القائمة القصيرة للبوكر العربية 2020

مكتبة نوميديا 184
Telegram@ Numidia_Library

رواية

عالية ممدوح

التانكي

المتوسط

عالية ممدوح: كاتبة وروائية عراقية، مواليد بغداد ١٩٤٤. خريجة علم النفس من الجامعة المستنصرية عام ١٩٧١، شغلت وظيفة رئيسة تحرير جريدة (الراصد) البغدادية الأسبوعية لأزيد من عشر سنوات. غادرت بغداد منذ ١٩٨٢، وتنقلت بين عواصم ومدن شتى. أصدرت عام ١٩٧٣ مجموعة قصصية بعنوان: «افتتاحية للضحك»، ومنها توالت أعمالها الأدبية؛ ثمانُ روايات تُرجمت بعضها إلى الإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية، والإسبانية، أشهرها رواية «نفتالين» التي تُرجمت إلى سبع لغات، ودُرست لمدة سنتين في جامعة السوربون.

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٩ منشورات المتوسط - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Altanki *by* "Alia Mamdouh"
Copyright © 2019 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: عالية ممدوح / عنوان الكتاب: التانكي
الطبعة الأولى: ٢٠١٩.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-32201-03-1

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

عالية ممدوح

التانكي

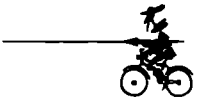

المتوسط

"إن الكائنات حمقى بالضرورة، لدرجة أنه سيكون المرء مجنوناً، لو لم يكن مجنوناً"

باسكال

إلى روح صديقتي الطبيبة المصرية وفاء قاسم

الفصل الأوّل
كلاكيت أوّل مَرَّة

الأستاذ صميم مجهول النَّسَب

كما في صور الألبومات العتيقة، فكّرنا جميعاً: نحن الموقّعين أدناه، عائلة أيّوب آل الذين سيظهرون بالتدريج معنا، بجوارنا، بعدنا بقليل، أمامنا، أو أبعد قليلاً. من المفيد أن ندع الوالدة مكّيّة جالسة على كرسي، فهي غير قادرة على الوقوف طويلاً حتّى لو أن الأمر لأجل التقاط صورة. بجوارها الخالة فتحية، بعدها الخالة الأصغر سنية. الوالدة بيبي فاطم مكانها غير موجود بيننا، بقيت في الطابق الأعلى. حسناً، من المفضّل ولأجل الهيبة أن نقف وراءهم، نحن الرجال. أنا الوالد أيّوب، وبجواري أخي مختار. هنا يستحسن أن نترك مكاناً لهلال، ولدنا البكر، ولها، ابنتنا عفاف التي أوكلنا شؤون قضيتها إلى الأستاذ صميم. هيّا، يا أخي، خذ عنّي المهمّة، ودعني أعود إلى مكاني في الألبوم.

حسناً، ظهر طيف الآنسة عفاف وأنا أكتب اسمكَ فقط:

عزيزي الدكتور كارل فالينو،

أنا صميم، كاتب سرّيٌّ أشتغل باسم حَرَكيّ. هو الرجل ذاته الذي قدم معها في العام 1986 إلى عيادتكَ الخاصّة الكائنة في شارع جاسمان في الحَيّ السادس عشر. آمل أن لا تحبطكَ الذاكرة، وهي، الآنسة عفاف، كانت تتقدّم ببنيتها الرشيقة والقصيرة، وبيدها لوحة مربّعة من لوحاتها،

لكي تقدّمها إليكَ بدون كلام. وطرب زوجتي، النّحّاتة، صديقتها وزميلتها في الأكاديمية.

ومعاذ الألوسي، صاحبي ومرشدها الهندسي، المعمار، الذي شغفت بتصميمه المبدئي لـ - المكعّب - فسجّلتْ في كُلّيّة الهندسة، وداومت لعامَيْن، ثمّ غيّرت مسارها بالانتقال إلى أكاديمية الفنون الجميلة الكائنة في الوزيرية. هذا معاذ، من الجائز أفسدها حين قال لها في أحد الأيّام:

سنصمّم - المكعب - معاً، وندعو مَنْ نغرم بهم إليه.

ربّما، من مسار المكعّب ذاك والفنون عامّة، وسياق مدينتنا كلها، كانت الآنسة، وأنا أصرّ على هذا اللقب قبل اسمها، في الوقت الحاضر واضعاً الأشواق، أو أيّ شيء قريب منها، في أوّل الخطاب.

ثمّ المحامي مختار، عمّها الذي قد يرشدنا إلى بعض الحيثيات القانونية والاستشارات الإدارية التي قد نجد بعض العزاء في أرشيفها.

وهلال شقيقها الذي ما زلنا نخاطبه ونستعجله بالرسائل، لكنه لا يردّ علينا حتّى الآن، مَنْ يدري؟ من الجائز وفي الساعات الأخيرة وقبل إقفال الستارة عن آخر وجه من وجوهنا يظهر وينضمّ إلى هذه المخطوطة، أو سَمِّها ما تشاء. معاذ يقول، إن يونس تغيّرت ابتسامته في الفترة الأخيرة، وصارت محيّرة، وسأله إن كان يفكّر بالانضمام إلينا، فبمقدوره أن يخبر عمّا يعتمل في داخله. أضاف معاذ، ستكتسب هذه التدوينات أهمّيّة خاصّة، وستأخذ مكانها حتّى لو بعد حين. ولو كنّا نعرف عنوان السّيّد ياسين، لأرسلنا في طلبه، وجعلناه ينضمّ إلينا .. كما سنزوّدك ببعض الهوامش والإضافات، وأشياء لا نعرف عنواناً لها. كما قد تستهوي خطاباتنا الخالة فتحية، ويظهر صوتها للعلن .. سنتدبّر الأمر، أمرنا. وأنتَ، سيّدي الحكيم،

ستتحوّل بدورك من محتكر لبعض، أو الحقيقة كلها، إلى قولها لنا، لأفراد عائلتها التي تنتظر منّا البحث عنها قبل فوات الأوان. حضرتكَ مَنْ سيُطلب منكَ بالمصادقة على جميع ما تعلمه وتعرفه، ما سمعتَهُ، ما تناهى إليكَ بالمصادفة أو تعمّداً، فتقرّ بالفاعل: أنتم أم نحن، وكل واحد منّا يحيل قصصه في إثرها، متورّعاً من زعزعة يقينه بالبراءة المخادعة. بالطبع، نحن نعرف بعض الحقب، وماذا أنجزت وحفرت فينا، وستفتح علينا وعليكم، ومن الجبهات والأمكنة جميعها، الانتقادات والشروع بخيانة الأصول في حالة، حالات الترجمة المؤقّتة أو النهائية للوقائع السّرّيّة والعلنية جميعها .. ستلاحظ ذلك، سيّدي. آثارنا جميعاً، ونحن نباغت أنفسنا قبلكَ، فقد كنّا نفضّل بقاء الأسرار خفية في ما بيننا، أمّا اليوم، فسنجد مشقّة وبعض الخطر، كلّ من جهته، ونحن نضعها بين يديكَ وأيدينا. آثارنا هي، كلنا، وما تبقّى منها بين أيدينا، وعلى ثيابنا، وقبل أيّ شيء آخر، فكّرنا، ربمّا، هذه هي الطريقة الوحيدة التي نستعيد الاتّصال بها، أو نستعيدها شخصيًّاً، إذا تمّ إلقاء القبض علينا من بعضنا لأنفسنا، لسجلّنا العدلي واللّغويّ والفكري والدّينيّ والفنّيّ والجنسي والسّياسيّ. فكّرنا لو استعدنا أنفسنا، نحن المشرفين على الغرق؛ فقد يراودها كما يراودنا الحُلْم يوماً بالظهور أمامنا، دون توقّع أو انتظار. ياه، كم فكّرنا بحفظ بعض الأسرار، وإفشاء البعض الآخر، كلّ واحد منّا وما يمليه الظرف من اعتبارات.

معاذ، أوكلَ لي خطَّة تدوين هذه المخطوطة مردِّداً بصوت ودود:

نعم، خطّكَ واضح قوي، وحروفكَ تامّة التكوين. وهذا أمر يجعل القراءة يسيرة من أجل الترجمة. أنا سأزوّدكَ بقصاصات ورق، ربمّا مطبوعة أو بخطّي الركيك.

وطرب!

ما زالت متردّدة. هي متحفّظة على إفشاء الأسرار كلها قائلة:

بعضنا يختلقها، ويُثقل نفسه بها، لكي يبدو صاحب أُبّهة، والبعض ينقلها إلى عالم الفنون والآداب، فتأخذ مسارات غير متوقّعة.

العمّ مختار هو الذي دعم جهودنا بطريقته غير المبالية التي تحبّها الآنسة، فأدخلته معنا. هو الذي لا يجيد المحادثة كما يجب، ومخمور كما تحبّ أن تراه، فمن الجائز إذا اشتغل في أدوات عمل جديدة، فلن يصبح هناك أيّ عائق أمام نفسه، فسيتخلّص لسانه من التأتأة، وتغدو روايته الموازية عنها تجاوزاً لروايتنا. ربّما عائلة أيّوب آل لا تُفضِّل هذه الأنواع كلها من المسارات السَّرْدِيَّة، فهذا قد يحاصر خطوات البحث عنها، وربّما العكس، لا نعلم دكتور. العائلة تريد أمراً عاجلاً واحداً، مردّدة من فوق رؤوسنا جميعاً: هيّا، ابدؤوا رواية القصّة حالاً. ابحثوا عن ابنتنا، فوقت اختفائها لا يقاس بدورة الصبا والشباب، ولا بدوام الصّحّة وتوهّم المرض .. هيّا، قوموا بالغناء مثلها أو الهمس مثلنا، وليردّد الصدى ويصل بلاد الفرنج المشؤومة التي ضلّلت ابنتنا. هيّا، انتقلوا إلى المكان نفسه .. ها، هل بدأتُم تشاهدونها؟ هي ابنتنا نفسها، أو مجرّد شخصية داخل صفحات كتاب تنوون تأليفه، ولا يدلّ عليها، لا تطرحوا أسئلة لا تعثرون على أجوبتها قطّ، فليس لديكم إلاّ كلمات وحفنة أصباغ يابسة على لوحات ضاعت بين أصدقائها. لكننا كلنا أدلّة، أليس كذلك؟ عال، نحن لا يرقى إلينا الشّكّ، فلا تتحاشوا أخذنا في نظر الاعتبار. توقّفوا عندنا، وتحدّثوا معنا، توقّفوا عندكم، أو عند غيركم، نحن لا نعرف خططكم. هل ستفتحون محضراً، كما هي محاضر البوليس؟ أم ستكتفون بالإعلان؟: هل هي فقيدة؟ لماذا تذهبون إلى أراضي الغير، ها؟ مجرّد صداع في الرأس، رأسها، يقوم بدور القاتل .. هذه ليست مشكلة قانونية كما يردّد مختار، عمّها. ونحن، أسرتها،

مختلفون على العنوان: هل هي جريمة؟ أم حالة رعب بشكل عامّ، تنتقل ما بين العواصم والقارّات؟ نحن لم نرَ قطرة دم على ثياب ابنتنا، وهي تغدو خارج مجال نظرنا، لم نرَ ذلك. آه، صارت بعيدة عنّا جدًّا. نعم، نعم. والخطوط والطُّرُقات إليها مقطوعة منذ زمن بعيد، ليس بسبب الحروب فقط. ونحن نشتاق إليها، ولا نعرف ماذا نفعل بالشوق؟ وكيف نقوم بإدارته فيما بيننا؟ وأين نضعه؟ وكيف نوزّعه؟ وهل أخذ أحدنا حصّة منه أكثر من الآخر؟ وهل بمقدورنا أن نُؤخّره أو نستعجله، لكي ننتهي منه مَرَّة واحدة؟ لكنه كان يمتصّ نصف أعمارنا، فلا نعلم إلى أين ذهبت الأعوام؟ وكيف انقضت؟ من الجائز أن يكون الطبيب الأجنبي بصحّة جيّدة، وقلبه توقّف عن الشوق، نحن لا نعرف أسباب ذلك، ربمّا، هو يكسب عيشه لهذا السبب. وأنتم مثله، قلتُم: الشوق لا طائل منه، واسترحتُم. صحيح، هو من المزعِجات، وطبيبكم لا يكلِّف نفسه عناء البحث عن تشخيص المرض الصحيح: الشوق، نعم، لم يسجَّل في معجم الأمراض، لكنه مرض مميت، وهو فرصتنا الوحيدة الباقية التي تتدَفّأ بها دماؤُنا.هيّا، أخبروني، ماذا تفعلون بهذه الأقلام والأوراق والأقداح والأشربة كلها، وابنتنا تأخّرت، يا سيّد صميم؟ ماذا سنفعل بهذه القوافل كلها من المرارة والطريق إليها ليست آمنة، وبعضها مقطوعة، والجميع يعرف الأسباب. ونحن لن نستطيع التّمسّك بها، وابنتنا لا نعرف كم بلغ سنّها اليوم؟ ونحن، كل يوم، يزداد شوقنا. ويصير أكثر وطأة من اليوم الأسبق، والذي يليه. لا نعرف كيف نُشاغل هذه الأمور؟ وبمَنْ؟ وكيف يحصل هذا التلازم ما بين الاختفاء والأشواق وقطع الطُّرُقات والحروب؟ ظننتُ أنكم تعرفون السبب، وسيكون بمقدوركم إخبارنا، ها .. أنتم تبحثون هنا، الطُّرُق إليها مقطوعة، وهناك، لا يُرجى الشفاء، وإذنْ، مَنْ سيقوم بالبحث عنها؟ لا يجوز التلاعب بنا وعلينا، أو التّملّق والنفاق لهم، ولو تنقّلتُم وحملتُم المراجع والمجلّدات جميعها،

وابيضّ سواد عيونكم، فلن نعثر لها على أثر وأنتم تشتغلون بهذه الطريقة الباردة، فهذا لن يعيدها إلينا، وربمّا إليكم. ألم تدركوا أنها تركتكم جميعاً قبل أن تُقطع الطُّرُقات؟! تركت طرب ويونس وياسين، وأنتَ، سيّد صميم، وذلك المهندس الذي كان يعتبرها أمينة سرّه، فعافتْه وأخذت أسراره معها.

ونحن الخالات: نعم، أنا الخالة فتحية التي استفحل مرضي وأنا أصوغ الجمل البسيطة التي كانت تحبّها، علّها تعود، فصرتُ أُحادثها يوميًّاً، وأنادي عليها كما تبدأ القصص عادة وحسب ما نشاء. نقدر أن نُوقف البنت هنا، ونُقرِّب الكاميرا من كل وجه من وجوه العائلة، ذكِّرني، يا سيّد صميم، فيما إذا نسيتُ واحداً منّا. سيبتسم طبيبكم قليلاً، فهي كانت الأصغر سنًّاً بين العائلة يوم انتقلْنا إلى شارع التانكي .. نعم، أنا التي قسمتْ اسمها إلى قسمَيْن، فما إن أرفع رأسي وأراها أمامي، أعود وأناديها:

عفّو، نظِّفي المنفضة زين، يمكن تمرّ علينا واحدة من الخانمات والخواتين. هنا الجيران مو مثل أهل السفينة. عملتُ استطلاعاتي على أصحاب الشارع وأعيانه، وسجّلتُ كل شيء في مفكّرتي، يا نور عيني. وأوّل ما استقرّت الأحوال في السكن الجديد، أمسكتُها من يدها، وقلتُ لها:

هيّا، امشي نكتشف الطُّرُق والفيلات والقصور العجيبة هنا. امشي، وخَزِّني في رأسكِ ألوان السماء وطين الأرض ورائحة الرارنج، وهو ينفلع على الشجرة .. شمِّي يا عفّو زين، وبعدين اجلسي ولوّني وارسمي.

صحيح، يا سيّد صميم، كانت عفّو لا تستجيب لندائي، فأكرّر، ويرتفع صوتي، وأمطّ لساني شوية، لكي أمازحها هكذا:

عفّووووو ....

لا تجيب، فهي تدري ماذا أريد. أكلّم نفسي وهي واقفة ورائي:

يلّا عيني، ارسمي صورهم كلهم. آني حضّرتهم لكِ بأشكالهم وثيابهم، بالفينة والسدارة الفيصيلة {نسبة إلى الملك فيصل الأوّل} والعمامة فوق رؤوس بعضهم الآخر. يلّا، أريد أشوفهم بكامل قيافتهم. خلّي قنادرهم تلمع مثل صلعاتهم، وبدلاتهم جديدة طالعة من يد الخيّاط حالاً، وياقات قمصانهم ناصعة البياض. زين بنتي. أفكّر لو تسوّين معرض للوزراء العراقيّين .. ها عيني. طلّعت التصاوير من كتاب تشكيل الوزارات العراقية، وكبّرتْها بمكتبة الصباح في أوّل شارع عشرين. تعالي شوفي الشياكة والذوق الحلو، الصديري والفيونكا لعبد المحسن السعدون رئيس الوزراء. تعرفين عفّو من نظافة الجميع كنتُ أشمّ بعض العطور تطلع من الثياب والشوارب ... ههه. ترى في تلك السنين كانت عندهم عادات لطيفة في المأكل والملبس وحركات الأيدي والوقوف أمام المصوّر وأخذ الصور. كانوا رجالاً من صدق.

تسكتُ وأنا أردّد اسم التصغير. كانت تتضايق منه وتسكت. هل كان الأمر مزعجاً لها ودون علمي أنا بالذات؟! فهل التصغير أشعَرَها بشيء من الضآلة؟ هذا هو سوء الفَهْم الذي يُفسِد العلاقات، ربمّا على مرّ الأجيال، فأنا كنتُ أعتقد أنّه نوع من التّحبّب أو الاستحسان، أليس كذلك، يا سيّد صميم؟ ففي أحد الأيّام، أوقفتُها أمامي، وشرحتُ لها الأمر على الصورة التالية:

لا تصدّقيهم. أُمّكِ اختارت لكِ اسم عفيفة على اسم والدتنا، لكن والدكِ، صاحب الذوق اللطيف حسم الأمر قائلاً:

لا، عفاف أحلى.

وحين أصفن وأسكت أو أدخّن، عفّو تُطلق صوتها بالغناء، فكانت

تشاهدني أتمخّط وأمسح الدموع من عيني، ودائماً يكون الأمر بهذا الشكل وهي تغنّي ومع أفراد العائلة جميعهم، فيقع على عاتقنا أن نردّد بعض كلمات الاستلطاف والإعجاب، لكننا لا نفعل، حتّى الكلمات العائلية البسيطة والسخيفة لا نقوى على ترديدها أمامها.

آه، من الطبيعي أن نقدّم لها بعض الكلمات شاكرين لها أمراً لا نجيد تماماً التعبير عنه، إمّا بالسكوت أو بالدموع، وقد عرفتْ عفّو مبكّراً بعضَ الندوب منذ تلك السّنّ الصغيرة، لكني لا أظنّ أن هذا أثّر في حبالها الصوتية، فبعض نوبات الكآبة والقلق الشديد كانت تنتابها، وهلال هو الذي يخبرنا بها، وفي بعض الأحيان سنية أو العمّ مختار. فالغناء سخَّفه ياسين، ومن الجائز أنها أخبرت طرب، وربمّا أخبرتْكم جميعاً ..

كنتُ أخدعها وأخدع نفسي، وأردّد: هذه مسؤوليتي وحدي، أمّا هي، فكانت ترتحل أبعد ممّا سبق، وتبتعد عنّا جميعاً، وهي بيننا .. آني الآن أمامكَ، يا سيّد صميم، حضرتُ بنفسي إلى بيتكم، هيّا، انظر إليّ، وأنا أرتدي ثيابي التي كانت تُفضِّلها: طقم رصاصي مكسَّم على جسمي، أزراره الذَّهبيَّة لا تُقفَل، وياقته رفعتُها إلى أعلى لإخفاء ترهّل جِلْدة رقبتي، وسحّاب التّنّورة لم يصعد كله للأخير، فشكلتُهُ بدبوس أبو رأسَيْن. والقندرة ذاتها بكعب متوسّط الارتفاع، جِلْد روغان يلمع، زدتُهُ لمعاناً بمسحه بزيت ناشف. والشال، ألا تراه؟ انظر إليه جيّداً، هل تذكره؟ كان ذلك منذ سنين، طرب جلبتْهُ من هناك، نعم، هذا منها، أرسلتْهُ معكَ، هل تذكر؟ .. ها، هل تراني مهندمة وبلا عطر فوّاح، إلا عَرَقي الخفيف، والحقيبة العتيقة تحت إبطي، وأنا أمامكَ كما كنّا نذهب، نحن أفراد العائلة جميعهم، لأخذ العزاء وعمل الواجب .. أنا حاضرة باسم الجميع، ومن الجائز سترى من وقت لآخر سنية تمدّ رأسها وتقول لكَ: مساء الخير، أستاذ صميم، هل

تريد أحداً يصحّح لك المشاعر؟ هل وصلتَ للحديث عن الأحزان؟ هيّا، نادِني في أيّ وقت تشاء. وأمها مكّيّة، كانت تحضّر لكم ولنا ألذّ الولائم، وبلا منّة؛ علّ جوع المأكل يوازي الجوعَ إليها. وهلال أخوها، والعمّ مختار، أبوها أيّوب .. كلنا، الرجال والنساء، وسكّان هذا الحَيّ والشارع .. يا ويلي عليّ من لسان بيبي فاطم، جدّتها، لو عرفتْ أنني تناسيتُ اسمها، لما غفرتْ لي. شوق بيبي كان متأهّباً لدخول غرفتها، والإقامة فيها بعد حملة تنظيف جنونية. تفتح الشرائط التي سجّلْنا عليها صوتها وهي تشدو بأغاني سيّد درويش وعبد الوهاب وسعاد محمّد وأسمهان .. هذا لا يخبر أيّ شيء عنها، لكنها كانت على أعتاب الثالثة والعشرين، فتوقّفت الأعمار والقصص هناك.

طرب، وطوال ثمانية أعوام بقيت تسافر إليها في باريس، وحين تعود لا تؤكّد ولا تنفي، وهي تقول:

اسمعْ صميم، لا يمكن أن تتوقّف القصّة في المشفى ذاك أو تلك الرَّدْهَة أو عيادة ذلك الطبيب إيّاه. فهي تدخل وتخرج إلى هناك، فالحالة ليست خطيرة، وهي ما زالت تسخر من كل شيء.

كانت تضيف بنبرة حزينة:

من الجائز، هي تعتقد أننا تركناها تضيع من بين أيدينا. فنحن أيضاً توقّفنا عن الشوق إليها والبحث عنها. هكذا عناداً، حَنَقاً منها، وعليها. هل نحن أسباب المرض؟ كلا، كلا، لا أريد الحكم الآن.

معاذ يدعوكَ، يا سيّدي الدكتور، لزيارتنا، آه عندنا، في بلدنا الذي نتداوله بتقطيع السَّرْد، والخوف من فرار شخصيات القصّة والعائلة من الصفحات قبل التَّعرُّف إليكَ، بدءاً من الخال سامي مروراً بالأخ هلال،

ثمّ بالآنسة عفاف. وكلّما انقطع السَّرْد فجأة لسبب سياسي، أو حربي، أو عسكري، أو ديني، منحْنا أنفسنا بعض المكافآت، وعملنا وجبة طعام مُعتَبَرَة في الحديقة الخلفية، وشربنا نخب أفراد هذه العائلة. فتدخل على الخطّ دكتور، وأنتَ تضع قدمكَ على أرضية - المكعّب - وتتمكّن من دراستنا جميعاً، تضحك ولا تُعلِّق! لن نضع أمامكَ قِطَعاً من لحم الآنسة، أو ثيابها، فنزيّنها هنا في بلدها، ونهدّها أمامكَ كالفَرَسَة المولودة حديثاً .. كلا، هذه طريقة قصيرة النَّفَس، وها نحن الذين نتفاوض معكَ، ونتناوب على إدارة عملية السَّرْد، ولا علمَ لنا مَنْ سيدخل ولا يخرج، ومَنْ سيستفزّ ويحضر لدقائق ويغيب، ومَنْ يعرض علينا الفظاعات لإخافتنا، ومَنْ يريد العيش معنا، لكي ينفخ صدره قائلاً: آه، كنتُ معهم نفراً فرداً واحداً يتلذّذ بالصيد والأذية. هؤلاء كلهم، ومن الجائز أكثر، يقدّمون أنفسهم أمامكَ، فلا تبخلْ بالتعاون معنا. بالطبع، هناك احتمالات للشكوك والأخطاء فيما سنرويه، فلسنا كما تتصوّر، أصحاب نظريات في تحليل الجرائم، لكن وفرة ارتكابها، وتنوّع طُرُقها قد تدفع بعض البشر، كالآنسة، إلى فكرة لا جدوى الحياة ذاتها.

الفاذرية الأمريكان

في نظرنا، هؤلاء كانوا من أهمّ القادمين إلينا، على الخصوص إذا كان السبب مقبولاً؛

فنحن بلد نقدّم يد العون والصداقة وحسن الضيافة للغرباء. وإذاً، فليكن الله في عوننا.

"الفرنسيون الكاثوليك كانوا يمارسون نشاطهم في العراق، ولم يكونوا سعداء".

معاذ عقّب قائلاً:

مرتاحين أدقّ.

في حورتنا الكثير من الشائعات التي رافقت الآنسة وهي تغادر المدينة. طرب بقيت تُلحّ:

أيّ مدخل لتقصّي أطوارها فليكن من هناك، من البيت الكائن في حَيّ السفينة. يشير المقدسي: "قرب مشهد الإمام أبي حنيفة النعمان، وبعد دخول الإنكليز عام 1917 كان نفوس الأعظمية / المركز حوالي ألفَيْن ونَيِّف في محلاّتها الرئيسة، وهي الشيوخ، والنصة، والحارة، والسفينة، عدا الأطراف. كانت الأعظمية: هي المركز إداريّاً في العهد الملكي، وقد بدأ التّوسّع في المركز عام 1935 من جهة السفينة، حيث أُنشئَت محلّة هيبة

خاتون، ومن جهة النصة، حيث محلّة راغبة خاتون. وافتُتح شارع عشرين عام 1913، وبدأ العمران يتوسّع تدريجياً. وقيل، سُمّيت بهذا الاسم على شاطئ الأعظمية في هذا الموضع، ففي أحد فصول السنة، ومن كل عام، يبيع لها السّكّان المحلّيُّون منتوجاتهم، ويشترون ما يحتاجون من بضائع".

كان صوت معاذ وهو يدعوني للعودة إلى قدوم اليسوعيّيْن الأمريكان لبغداد. فقد كان رأيه:

سيزداد فضولكَ كلّما توغّلتَ في تلك الفترة. سترى مثلي وأنا أشقّ وأحضّر أساسيات - المكعّب - فأرى المخطّط الذي جعلني أرى حيوية أفكار تلك الآنسة الجذّابة، على الخصوص لمّا تتجمّع أكداس التراب والأحجار وباقي المتروكات، لكننا كنّا نرى ومعاً بجوارها شيئاً آخر. فالصور الجانبية تتغيّر، والأمامية تتّسع، والخلفية تختلف رؤيتها، وهكذا أشاهد قسماً من وجهها وهو يمتصّ إشعاع الضوء الساقط على دجلة، فتبدو في تلك اللحظات أكثر كمالاً من حقيقتها، فتلتفتُ قائلة بصوت بعيد وساخر:

سنرى، أستاذ معاذ، أمراً لم يكن بالحسبان. كثير منّا لا يُبصر جيّداً. كلا، هم عميان وعيونهم مفتوحة على اتّساعها. ربّما، واحدة من أسباب ذهابي إلى هناك، لم تقل باريس أبداً، أريد تنظيف حواسّي جميعها، فلو بقيتُ هنا، لعميتُ، واختفيتُ!

تفاجأ معاذ وهي تترك كُلّيّة الهندسة الكائنة قريباً من باب المعظّم، للتسجيل في أكاديمية الفنون الجميلة الكائنة في الوزيرية، في البقعة ذاتها. داومتْ عامَيْن متتاليَيْن في كُلّيّة الهندسة، فكانت ترى مُقَدَّم السفينة وهي على وشك الغرق. هكذا ذكرت لطرب، فأُصبْنا جميعاً بالدهشة من ذلك الانتقال والرؤية. كان السّيّد أيّوب لا ينفكّ يعرض عليها وقفيات

جدّتها بيبي فاطم، وكيف ستُجرِّب فنون الهندسة والتصميم عليها عندما تقدم على الهدم وإعادة البناء، لكنها وقفت في مفترق الطُّرُق: الرسم أو الهندسة؟ نعم، كانت المفاجأة ذاتها بانتقالهم من حَيّ السفينة إلى شارع تانكي الماي المجاور لسَكَن الأخوة اليسو عيّيْن. فقد بدت نصيحة الأب ولش، أن تكون بغداد هي المنطقة الوحيدة التي يمكن أن يعمل فيها هؤلاء دون أن يثيروا معارضة الفرنسيّيْن الذين يُشكّلون حجر عثرة أمام الآباء، وهذا ما حصل في بادئ الأمر فعلاً. كان معاذ يجلب لي بعض القُصَاصَات، ويتلوها أمامي، فأُعدِّل وأمحو وأضيف، فهو يتحدّث ويقرأ بسلاسة، كأنه يقرأ في مخطوطة تخصّه. أظنّ أن أحد أعمامه مؤرّخ، وخاله محام، ووالده، هنا روحه طلبت الرحمة، كان على اطّلاع تامّ على تلك المراحل من نشوء تلك المناطق. فيضيف:

أظنّ أنّه ليس جميع ما نقرؤه أو نحصل عليه من معلومات يبقى فوق مستوى الشبهات. ستبقى الثعالب وهي تسرد أحداث التاريخ تُزوِّر وتُلفِّق. ولن تتوقّف رحلات الصيد هذه، التي نقوم بها من حين لآخر، فهي لا تعدو أن تكون من باب كَشِّ الذباب عن برميل العسل المسموم.

صحيح دكتور، الأخوة اليسوعيون اشتروا قطعة أرض سَبْخَة مهملة ومتروكة، يعجّ فيها البعوض والحَلْفَاء، وتقع في شارع الأخطل. هذا الشارع الذي لم نطلق عليه هذا الاسم أبداً، إنما بقينا جميعاً، ويا للغرابة! نردّد اسمه الذي يملك سلطانه على أفراد العائلة جميعهم، فانتقل إلى الأصدقاء، وأصحاب المحلّات والأراضي والوقفيات وسائقي خطّ التّكسيّات: شارع تانكي الماي. هو الشارع ذاته الذي يتقاطع مع شارع ناظم الطبقجلي. لا أظنّ أنكَ سمعتَ اسم هذا الضابط الذي أُعدِم مع مجموعة من الضّبّاط في التسعة والخمسين من القرن المنقضي، وكان

حاكم العراق، العسكري الذي أعدم بدوره عبد الكريم قاسم. لقد تمّت الإغارة على وزارة الدفاع، وهو داخلها، فجلب لمحطّة الإذاعة العراقية وأمام المشاهدين، حظي بميزة لم نشاهدها من قبل: القتل بدون ارتكاب خطأ واحد، فقد تمّ إعدامه رمياً بالرصاص، وكان ذلك في التاسع من فبراير من العام 1963. ربمّا، بدت لكَ تلك التواريخ لا تستحقّ الذِّكْر، لكننا كنّا نعمل بتراتبية متّصلة باستعمال الشّرّ، ومن الدرجات الدنيا، وإلى الدرجات المتقدّمة والمتجذّرة على مَدّ أبصارنا. لدينا ساحة الطبقجلي، لكننا لا نملك مقابر للقادة والزعماء. تلك الساحة تبعد مشياً عشرين دقيقة عن جرف دجلة في قسمه الغربي الواقع في الصليخ الجوّاني. بالتأكيد ستأخذكَ طرب في جولات، وبالطبع معاذ، فتسيران ما بين - المكعّب - وكورنيش دجلة عندما تلبّي الدعوة، وسوف ترى أننا نقف في كعب شارع عمر بن عبد العزيز. فكل خطوة هناك تستطيع أن تجعلنا نشاهد صور الرهبان الأربعة في ثيابهم البيضاء الطويلة. تشدّ خصورهم أربطة سوداء عريضة، وكانت رؤوسهم عارية وشعورهم حليقة، ورقاب بعضهم غليظة، لكنهم طوال القامات، وهم يقفون أمام الباب الرئيس للكُلّيّة، يُحدِّقون في السماء البغدادية.

للتّوّ، أشعر كما شعر معاذ وطرب والعمّ مختار، ونحن نُحدِّق طويلاً في الصور، تلك التي استخرجتْها طرب من النت، فهي تدير تلك الأجهزة العالمية باقتدار أفضل منّي. كنّا نقلّبها بأيدينا، ونتأمّلها مليّاً. فيبادر معاذ قائلاً:

صور تتقاطع مع بعض الحسرات، وتتقارب من وخز الضمير.

أخذ مجّة من البايب المَحشوّ بالتبغ عالي الجودة، ففاحت رائحته في أرجاء غرفة المكتب الذي نشتغل فيه نحن الثلاثة. ففي غالب الأحيان،

أعمل وحدي، وكل واحد يذهب إلى حال سبيله. هو يحاول الاستذكار والتنقيب، فيباغتنا حتّى لو كنّا نتهيّأ للوصال، بهاتف يخضّنا، الأمر الذي كان يهمّ معاذ التالي:

الأسماء، يا صاحبي، هل ستُشير إلى اسمي الحقيقي واسم زوجتكَ، وباقي أسماء عائلة أيّوب؟

صمت قليلاً، وأضاف:

وعشّاقها وأصدقائها وعلاقاتها العجيبة والمتوتّرة معنا كلنا وبدون استثناء.

رشفتُ من قدح الويسكي الذي أمامي، ولم أرفع رأسي:

هذا الكلام كله لا طائل من ورائه، فنحن مَنْ يُقدِّر حسناتها وجنون عظمتها أيضاً. وفي هذه الحالة، كلنا متساوون معها. رفعتُ رأسي إلى أعلى:

هل لديكَ موانع من إيراد اسمكَ الحقيقي؟ أنا أراه اسماً أدبيّاً لطيفاً، بالرغم من رتبته التّاريخيّة. فالاسم الفعلي للشخص ونحن ندعه يتبوّأ مرتبة في وظيفة السَّرْد والإخبار، يحمل مع الراوي المجهود الجسدي والعصبي، التعب وبهجة النزهات القصيرة مع الشَّخصيَّات.

والدكتور كارل فالينو؟

كان سؤال طرب من باب اللياقة والإتيكيت الأوربي، بمعنى، هل نقوم بسؤالكَ دكتور بالسماح لنا بذلك؟ أم نقوم بوضع اسمكَ حالاً، لكي نقلّص المسافة الرّوتينيّة التي تضعونها دائماً في استعمال الضمائر ودبلوماسية

اللغة الفرنسية. اسمكَ دكتور أراه فائق الجمال. يتكلّم ولا يقفز سطوراً، ولا أظنّ أنكَ سترفض لو اخترتُ لكَ اسماً حَرَكِيّاً مغايراً، فلن أجد ألطف من اسمكَ الحقيقي، وسوف تتعرّف على نفسكَ وشخصكَ ونحن نصوِّركَ وأنتَ تتحدّث في فصول آتية، فتبدو أنتَ المتكلّم، والمخاطب أنا / أنتَ. فالإقامة هنا ستكون بيننا، بين هذه القُصَاصَات والصور والألبومات والشرائط والآلات والخمرة بأفضل أنواعها .. إلخ، وأزعم أنّ لدى معاذ بعض أفخر أنواع النبيذ الفرنسي، إلخ.

ضيوف الشرف

كان أفراد البعثة اليسيوعية الأربعة قد طُلِبَ منهم الإشراف على إنشاء الكُلّيّة في بغداد حسب ما دُوِّن "وأعلن في المعاهدات بين جعفر العسكري ومفوّض الولايات المتّحدة. وكان هناك الآباء اليسيوعيون "الفاذرية". وهناك المُدرِّسون الأمريكان "الأفندية" الذين يطلقون عليهم "المسترية". وهناك المُدرِّسون العراقيون أيضاً. حصل الإبلاغ رسميّاً وبأنّ مستلزمات البدء بهذا المشروع قد جُهِّزت بما فيها المبالغ المالية، وأُعِدَّت لتمويلها، تلك التي وعد بها الحبر الأعظم في روما. وقام بتوفيرها لتسيير عمل المشروع البالغة {000، 50} خمسين ألف دولار أمريكي، إذ أصبحت جاهزة، لتُوضَع تحت تصرّفهم "وهذا يتعلّق بإنشاء كُلّيّة بغداد فقط ما بين العام {1928. 1930}. استوقفتْنا كلمة "طُلِبَ" منهم، وأنا أعيدها بصوت مرتفع، فيجيبني معاذ ضاحكاً:

من المفيد في هذه الحالة استخدام المخيّلة، فنحن هنا وصورهم أمامنا، ومن البدَهي كانت لهم خلفيات اجتماعية ربمّا متناقضة، جعلت المَعنيّيْن بالإدارة الأمريكية يختارونهم، وبدون بذل الجهد. صورهم وهُم أمامنا كأنهم كانوا على اتّصال مع قوى فوق طبيعية، أو يمتلكون طاقات غير مرئية، تجعل البعض من الأهالي يفتحون أفواههم أوّل ما يقع نظرهم عليهم، كما وقع نظري على بنود المعاهدة التي سُنَّت بين الفرقاء: "الولايات المتّحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى والعراق التي أُبرمت في تمّوز 1923

في لوزان، سويسرا، والتي كانت تسمح في مادّتها الرابعة لـ رعايا الولايات المتّحدة مع مراعاة أيّة مقتضيات عامّة للتعليم: الموضوعة بقانون في العراق، بأن يؤسّسوا في العراق بحرّيّة، معاهدة تهذيبية، وخيرية ودينية، تقبل مَنْ يطلب الدخول فيها مختاراً، وتُدرِّس باللغة الإنكليزية، وبأن يقوموا على تأمين سَيْرها". وُقِّعت بأسماء الثلاثة وقتذاك: جالس. ج. داوس، السفير فوق العادة لبريطانيا العظمى، ومفوّض الولايات المتّحدة أرثر هندسن، والسّيّد جعفر العسكري: المفوّض العراقي / لندن في كانون الثاني 1930".

"في الجانب الغربي من شارع التانكي كان يسكن أولئك الفاذرية، وبعد موافقة الحبر الأعظم على المصاريف جميعها، أصبح كل شيء جاهزاً وتحت تصرّفهم. فلم يواجه الآباء اليسوعيون عند وصولهم أيّة معارضة من قبَل المسؤولين في الحكومة العراقية. فقد أوضح أحد تقارير وزارة الخارجية الأمريكية لشؤون الشرق الأدنى، أنّ الأب ولش بيَّن موقف الحكومة من مجيء الآباء وتأسيس كُلّيّة بغداد بما يلي: "إن المسؤولين يحاولون تطوير بلدهم بسرعة كبيرة، ويحاولون أن يُنجزوا في عشر سنوات ما أنجزتْهُ أوربا في قرن". ولكن ولش يعتقد أن مثل هذا التّطوّر السريع كان من المستحيل إنجازه في تلك الظروف. وهكذا وقع اختيار الآباء على الحافّة الشمالية لبغداد في منطقة الصليخ، وذلك في العام 1934، فقد تمّ استئجار بيت يقع على ضفاف دجلة، وهو مَبنيّ على الطراز العربي القديم، ومؤلّف من طابقَيْن برواق حول الطابق الثاني. استُخدم قسم من الدار كسكن للآباء، وكانت الدراسة تجري في بنايات مستأجرة، إلى أن تمّ شراء أرض قريبة من العقار المؤجَّر في الصليخ من قبَل الجمعية التّعليميّة العراقية الأمريكية. هذه الأرض الجديدة تقرّر أن تكون موقعاً ثابتاً لكُلّيّة بغداد. وهي تبعد حوالي أربعة أميال شمال مركز العاصمة. وهي أرض زراعية، وتبلغ مساحتها 4050 متراً مربّعاً".

هذا هو شارع التانكي، دكتور، وهو كائن وسط الصليخ الجوّانيّ، والذي سنعاود ونكرِّر ذِكْرَه .. اسمه وسكّانه وقصوره وجنرالاته وموتاه وعاهراته. وهو الشارع ذاته المؤدي للكُلّيّة النازل من الكورنيش، فنصادف دار: "حكمت سليمان رئيس الوزراء في الثّلاثينيّات. ويقع في الجانب الغربي من الشارع، يقابله سكن الفاذرية بعدما صار الآن سكناً للراهبات، سنعاود ذلك بعد أن تمّ طردهم في العام 1969 في حكم الرئيس أحمد حسن البكر. أمّا الكورنيش نفسه، فهناك كان يطلّ بيت "رشيد عالي الكيلاني" في الجهة الجنوبية، والذي صار فيما بعد مقرّاً لـ "للجمعية البغدادية" التي أجَّرتْهُ من الوَرَثَة. طرب زوَّدتْني ومعاذ معها بحيثيات مَنْ كان يسكن مقابل منْ: كما هو بيت الطبيبة المشهورة آمنة صبري مراد، التي كانت تعالجها وجيلها والذي قبلها، مردّدة بصوت خفيض:

تمرّضت تلك الطبيبة بمرض خطير، وسافرت إلى لندن للعلاج، وكان ذلك في التّسعينيّات، ثمّ غادرتْنا. ولو وصل الدكتور فالينو، ونحن الآن في العام 2011، لما استطعتُ أن أمسك بيده ونمشي معاً في تلك البقعة من شارعنا الذي ما زلنا نعيش فيه.

هكذا سنتّجه للغرب، ونرى بيت الشيخ "بلاسم الياسين"، ذا "المسناية" الكبيرة التي تُوصل بسلّم إلى النهر، وبجانبه بيت الدكتور النّسائيّ الأشهر كمال السّامرائيّ، هو ذاته الذي أخبر الآنسة عفاف بولادة أخوَيْها الصَّبيَّيْن التوأمَيْن اللَّذَيْن قضيا خنقاً في أثناء الرضاعة بعد أيّام، وقبل أن تُولَد هي.

كنّا نلتقي بنا، بأنفسنا ونحن نحاول العودة إلى هنا ثانية، ونحن لم نبرح المكان. معاذ غادرَنا إلى أمكنة كثيرة في أوربا وبعض البلاد العربية، لكنه لم يغادر المكعّب في رأسه. لم نستحسن نحن جميعاً هذا الاستمرار في التنقيب عنّا كما هو عنها، فقد بدت الأمور مثيرة، والمهمّة مشحونة

بالمفاجآت، وأذاها مزعج لنا جميعاً، نحن والأهل. ففي هذا الخطاب بدا لنا، ونحن نُركّز على أحداث بذاتها، امتحان الصداقة بين البشر، فهذه لها شجرة، أشجار، وتعتمد على سلالات وأصوات وروائح ومشاعر، كلها نهضت أمام أعيننا مجرّدة من كل شيء، فالأمور لا تؤكّدها سجلّات الميلاد والدم والوفاة، والمبادئ المجرّدة وإجراءات المصطلحات النّظريّة، ولا تختصرها أطوار الأصدقاء الغريبة والغامضة، لكنْ، تتكفّل بها المصاعب والأهوال.

تُلاحِظ، سيّدي الطبيب، أننا ننتقل مشياً في تلك الشوارع الجانبية، وقد يعيب علينا البعض ندرة التوثيق لتسلسل الأحداث، فهذا ليس غرضنا الوحيد. فبعد عدّة دُور باتّجاه الشرق، كان هناك دار الدكتورة سعاد خليل إسماعيل. شغلت منصب أوّل عميدة لكُلّيّة بغداد. ولا يبتعد كثيراً بيت العسكري صالح مهدي عمّاش الذي شغل مركز نائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع في حكم الرئيس أحمد حسن البكر في سبعينيات القرن العشرين. وفي الجهة الشّماليّة، أي على الكورنيش أرض ليحيى ثنيّان. كانت خالية، لكنه في ما بعد زرعها حديقة، لها سلّم ينزل إلى النهر. ولو ابتعدنا قليلاً عن تانكي الماي، لظهر أمامنا، فجأة، صورة ووجه: "بكر صدقي الذي طلع من هذا الصليخ الجوّانيّ في العام 1936. هذا العسكري لم يكن إلاّ مُنفِّذ المقتلة التي نزلت بالآشوريّيْن في العام 1933، وبعد عامَيْن بعشائر الفرات الأوسط الشّيعيّة. وبعد ذلك بأكراد العراق".

أكسسوار

تفاهة ... تفاهة ..

هذه اللّازمة دكتور التي بقيت الآنسة تردّدها أمامنا، فنسمعها منها وهي تنفجر بالضحك، وتشرب الخمرة، أو ترشف فنجان القهوة المرَّة من يد طرب، تردّدها بنوع من نبالة تناسب بعضهم، وكأنها تُؤرشِف بها الكتاب وعنوانه. تعتني بالنعت، وتخاطبه وراءنا، أمامنا، وفي بعض الأحيان تفترضه كسؤال: عن أمور وأناس تعرفهم، عن معارض وكُتُب وأشخاص قابلتهم ..تُرى، هل حصل وذكرتها أمامكَ دكتور في تلك الأيّام والسنين؟

بقيت تتلصّص وهلال وسنيّة علَى تلك القصور المتجاورة. هلال يغنّي الأغاني الأجنبية، وهي تنادي على سيّد درويش، فتصير في مواجهة الطبقة التي تربّي الكلاب البوليسية، وتعزف البيانو، وتلعب التنس، وتنزل {للمسناية} الكائنة بجوار كل فيلا وقصر. رجالها يرتدون الشورت، وبناتها المايوه، فيدفعنَ الأمواج بأذرعهنّ البضّة البيضاء بعيداً. ويتشمّسنَ على كراسي مستطيلة ملوّنة. بعضهنّ يستلقينَ على الجنب، والبعض على البطن، وأفخاذهنّ مفخورة ومدبوغة بشمس بغدادية حارقة .... وما إن ترى ذلك كله، فتنفجر بالغناء، وهي لا تنظر في وجه أيّ أحد ... ثمّ تبتعد وتمشي وحيدة ويصل صوتها إلى هلال وسنية:

"صعب عليّ أنام

أحسن أشوف في المنام
غير اللي يتمنّاه قلبي،
سهرت أستنّاه
وأسمع كلامي معاه
وأشوف خياله قاعد جنبي"

في بعض الأحيان، نستخدم العربات الخاصّة للانضمام إلى تلك المجموعات، أي المؤسّسين لكُلّيّة بغداد الذين تجوّلت حكاياتهم بين سكّان قصور شارع التانكي وما يجاوره من أحياء، مروراً بالمخابرات العراقية وبعض رجالها الذين كنّا نراهم بثيابهم المدنية ونظراتهم المخيفة وشواربهم غير المشذّبة جيّداً. كنتُ أعتقد أن أرشيف وزارة الداخلية كله كان يتوقّف في شارعنا، وهناك أسئلة مبثوثة في الهواء سوف تتساقط على رؤوسنا، ولكنْ، لا نعرف متى! بالطبع لا نستطيع أن نتحاشى الحوادث التي تعرّضوا لها. بالتأكيد عندما حضروا إلى العراق، كانت لهم أفكار وأهداف، وصارت لهم علاقات وصداقات، وكان عندهم معارف وأقارب في أرجاء المعمورة.

تخيّلتُهم هكذا، بادرني معاذ الذي كان يسافرإلى خارج المدينة، ويعود إلينا محمَّلاً بالأوراق، كأنه هو الذي صمّم بناية الكُلّيّة، وكتب بنود الاتّفاقيّات، ويريد منّا العناية بهؤلاء السادة قائلاً:

دائماً تصوّرتُهم وهم ينزلون من مركبة فضائية، تشبه تانكي الماي بأذرعه وأرجله الممتدّة إلى باطن الأرض، وهم يقرؤون المستقبل، وسوف يسيطرون وبالتدريج على البيئة المجاورة لنا.

دجلة يظلّ يصغي، وفي كثير من الأحيان، كان يحرّك الكلمات والرياح والجيوش والدَّبَّابات. فقد تناهى إلينا في إحدى السنين الدّمويّة: أن

هناك عسكريّاً كان يعيش في واحد من بيوت شارع التانكي، كان بمقدوره، وبمفرده، عمل انقلاب عسكري، وبدبّابة واحدة، وفي بضع ساعات. هنا كانت تختلّ أنظمة الأحياء، وتهتزّ عظام الموتى، فالعسكري ذاك اختفى، وجاءت اللحظة وللتّوّ، فبدأت أردّد بدوري أنا أيضاً:

تفاهة .. تفاهة ..

تقطيع

أنتَ الآن، يا سيّد صميم، مَنْ يترجم سيرة تلك الآنسة. تُدوِّنها، ولستَ متأكّداً من حدث إختفائها البطيء الصعب الذي شرع بالإخبار عن غيابنا نحن .. في العمق، هذه واحدة من إزعاجات تأليف الكُتُب والمخطوطات، فما إن تبدأ وتشقّ ساقية صغيرة، فتصير بركة ماء، ثمّ تتحوّل إلى جدول جارٍ، فنرى دجلة وهو يتكفّل بالباقي، يستلف منّا بعض الشَّخصيَّات، ويأخذهم إليه، أو يوقع العزل على البعض الآخر، فيُشوِّه حياتهم .. أجل، أنا، ونحن أصابنا الفزع ممّا حصل ويحصل، لكنني، دكتور: التأليف لم يبقَ تحت إمرتي، ولا أحتفل بعزلتي من جهة أخرى، على العكس، صار التأليف عدوّاً يقف على حدود دماغي، وهو يعدّد الخسائر والبلى. لم أتفرّغ لسلطته وصرامته، فأنا كاتب غير جدّيّ، وسرعان ما أنفجر بالضحك من أولئك الذين يبالغون في هذا الأمر: الآنسة عفاف على رأسهم. بقيتُ مجهولاً تستهويني الأسماء المجهولة، وأنا أغدقها على مَنْ أشاء من الأشخاص الذين أتناول حيواتهم، وأعرف ماضيهم حسب الأصول المرعية، نازعاً عن بعضهم الأقنعة، وكاشفاً عن البعض الآخر ما يخيفني شخصيَّاً. فالبشاعة والأصوات المُدَوِّيَة التي أشعلت السماء منذ أعوام الثّمانينيّات وحتّى اليوم تتطلّب منّي رعاية صحّتي وحواسّي وألياف عقلي بالدرجة الأولى، فأنا لم أغادر المدينة، مأخوذاً بالحدود القصوى لقدرة الكائن البشري على تحمّل الابتذال والسفاهة، وهو يصدّ ويرد قبل حدوث الانفجار. لم أجد أفضل من تِقْنِيَّات المكر والسُّكْر، واللعب مع حالات الانضباط الحربي، كما هو في

النظام السَّرْدِيّ، وهو يفتح لي طُرُقاً سرِّيَّة في البحث عن نوع من اللّامبالاة الملطّفة، وإنجاب عبارات طازجة على شاكلة: تفاهة. وفي واقع الحال، لم نتوقّف، أنا وطرب صراحة عن حثّ معاذ على التّوقّف عن المراوغة وحماية نفسه بالدرجة الأولى، لا مصير المكعّب - العزيز علينا جميعاً، ومن العودة إليه بين حين وآخر كنوع من إكرام الفضائل لطريقة بنائه والعيش فيه .. قطعنا له عهداً، سوف تتولّى طرب اللقاء به عبر الـ سكايب، فهما ينتميان أكثر منّي للاضطراب الافتراضي الذي أصابنا جميعاً، ولو بدرجات، وسنضعكَ، دكتور، في المقدّمة، نعم، عزيزي، لا أظنّكَ ستسمع استغاثة ما ونحن نرى ونسمع المحتضرين طوال الليل والنهار، ولن نزعم أن الآنسة شاهدت ما نشاهد، فهي لم تمتلك جهاز تلفزيون طوال حياتها. أخذت لها طرب في إحدى الزيارات مذياعاً صغيراً هدية من العمّ مختار.

***

نعم، دكتور، دائماً أخرج عن النّصّ، فأودّ إعادة ترتيب بعض الوقائع، وجلب الآنسة إلينا ثانية، وهي تجيب على طرب في أحد الأيّام، وهما في الأكاديمية:

"الفراغ هو الممتلئ الوحيد الذي يتّجه إليه العالم والوجود كله، ولا يكترث إلى أين نصل" ..

تدخّل معاذ عبر السكايب، فقد سافر وفضّل هذه الطريقة الافتراضية المزعجة، غير المألوفة لي، فأنا لا أُحبّذ هذه الطُّرُق جميعها .. ما علينا:

نحن نتخيّل، يا صاحبي، كما كانت تفعل هي. لا نملك أيّة لوحة من

لوحاتها في مرحلتها الأولى. ولا للبناء الأوّل لسكن الأخوة اليسوعيّيْن، وليس لدينا أيّ أرشيف للدار الأولى المتواضعة المستأجَرَة الواقعة شرقي دجلة في منطقة المربّعة، ولا اللوحات التي رسمت بها أفراد عائلتها جميعهم وأبطال الألياذة، أوليس وبنينلوبا، وكارل ماركس ولينين وأنجلز وبيبي فاطم والخالات، والعمّ مختار الذي كانت تُطلق عليه لقب: صاحب القلب المخمور والمفطور دائماً.

حسب علمي، الدكتور سوف يجيب عن القسم الأوّل الذي يخصّ الملفّ الطّبّيّ، لكني متأكّد أنه سوف يعرّج على الملفّ الفنّيّ، ونحن سوف نُكمِل الجانب الذي يخصّنا هنا، فالدار في شارع الكيلاني المتفرِّع من شارع الرشيد، وقبل الانتقال إلى الصليخ، أوضحت بعض تقارير وزارة الخارجية الأمريكية بشؤون الشرق الأدنى، أن الأب ولش بيّن موقف الحكومة العراقية من مجيء الآباء وتأسيس كُلّيّة بغداد. وهنا وبعد قراءة هذه الفقرة توضّحت بعض الأمور: كانت الحاجة التّنافسيّة ما بين الولايات المتّحدة وفرنسا شديدة في الطُّرُق التي استخدمها كلا الفريقَيْن بعضهم ضّد بعضهم الآخر في مهمّات التّنصّت والتّلصّص والتّجسّس والملاحقات الغامضة بالعربات التي تجرّها الخيول، إلخ ..

ما هذا، يا صاحبي معاذ؟

أنا لم أبدأ بكتابة خطابي الحقيقي إليكَ، سيّدي الحكيم، كنّا وبدون علْمنا أو علمكَ نقوم بتحضير الكحول والأغذية والمقبّلات والموسيقى والتبغ، وما يُسمّى بتحريك رفات الموتى والإنصات إلى بلبلة الأحياء، ونشهد على ما كان يردّده الفرنسيون وهم يصفون الميت: "لفظ نَفَسَهُ الأخير"، أمّا الإغريق، فيقولون: "أطلق نظرته الأخيرة".

حسنا، علينا العناية بالميت، أو الميتة، فنحن لا ندري إن كانت ما تزال

موجودة . وتحتضر، أو أنها مجرّد مختفية، ولا تنتمي إلينا، ونحن لا نعرف كيف نقوم بالسهر على مصيرها، ولم نفكّر في الأصل كيف؟ أظنّ هذه طريقة، أعني طريقتنا، ميئوساً منها، فهي عزمت على الإختفاء، أو اقتصرت على هذا الاحتمال، ونحن نقوم بتحضير الخلفيات الفاجعة في الرسم والفنّ، في السياسة وطرد الأخوة الفاذرية. لا ندري لمَ تصوّرتْ عائلتها أنكَ كطبيب، ولكَ يد في حياتها كلها، وربمّا اختفائها. بمعنى: أنكَ القاضي، يا سيّدي الحكيم. هكذا تُسمّيكَ السّيّدة مكّيّة أُمّها. ستجلبنا للمحكمة كلنا على ما أظنّ، وسوف تمثل أمامنا أنتَ أيضاً، فهذا هو الذي يُسمّى عدلاً. ذلك الأمر الذي لا أحد يؤمن به. من الجائز، هكذا تبدأ القصص، فيما إذا تجنّبْنا، على الأقلّ، وفي الوقت الحاضر، إعداد الجنازة، فلا نريدها أن تبدو كاريكاتورية وهي ترفع رأسها في وجوه المُشيّعين والمُعزّين، فتتفوّه في وجوهنا، وبصوت ماكر:

تفاهة .. تفاهة ..

الفصل الثاني

معاذ الألوسي،

مدير الموقع

ولكنْ، مَنْ هو معاذ الألوسي، دكتور؟

أخْبركَ صميم وربّما طرب، إذا تركتْ عنادها، بكوني سأكون الشخص الثالث الذي له بعض التأثير في حياة عفاف. وإذا ما بدأتُ بالكتابة إليكَ، فليس لأنني الأشدّ إخلاصاً لها، وإنّما لأنّ كلاّ منّا يحاول تضييق مجال البحث، فالذي لديّ ليس أدلّة، ولا أنا أحد الشهود. أقسم لكَ، في بعض الأحيان أن هذا المعاذ لا ينبس ببنت شَفَة وطوال ساعات، وفي كثير من الأوقات، يُلقي اللوم على نفسه، وليس عليها. عليّ التّوقّف أمام خطيئتي الأولى؛ يوم تركتُها تُلقي بنفسها في أكاديمية الفنون الجميلة، ولم أصرّ عليها للاستمرار في دراسة الهندسة المعمارية. كانت تحتجّ على هذا المكان، وترفض تفاهاته، لكنها تقوم بدفن موتاه في لوحاتها، فتبقى تُحملق في الفراغ، ثمّ تبدأ الحروف تتجمّع وتجري دون عائق، وكأنها تخاطب نفسها بهدوء:

كل يوم أستيقظ وأتتبّع الرائحة ذاتها: ربّ العائلة، أيّوب وبيبي فاطم والخالَتَيْن المكروبَتَيْن وهما تحتفظان بالأسى الذي لا ينقطع كالشهيق والزفير، فتدخلان في الصمت التّامّ. وعمّي مختار الذي أراه دائماً على أُهْبَة

الاستعداد، ولكنْ، لا أعرف لأيّ شيء؟ كانت الحياة لا تُعلّق في أهداب هذه العائلة. لا يكفي أن يكون لنا عائلة هنا، لكي تُسمّى مدينة الآباء. نعم، خانة لاسم الجَدّ وجَدّ الجَدّ وسابع ظهر، كما تحبّ بيبي فاطم شتيمتنا إلى حدود تلك السلالة، وجميع ما يخصّ الطوبوغرافيا، عمل أبي. أنتَ محظوظ، أستاذ معاذ، فيما إذا احتفظتْ ذاكرتكَ بوجوه جَدَّيْكَ من الأُمّ والأب، واللوائح والصور والأحوال والشوارع والأطعمة والصفات واستمارات الولادة والسفر والدفن .. وهل هذه صورة ملطّفة من خارطة المكعّب الذي تنوي الاشتغال عليه؟

بالضبط، دكتور، كانت على دراية بعموم ما يدور في رأسي، وهي ما زالت في السابعة عشرة، وفي يدها ملفّ وثائقها وشهادة تخرّجها ومعدّلاتها التّامّة تقريباً من القسمِ العلمي من ثانوية الحريري، ونحن في قسم التنسيق المكوّن من الأساتذة وبعض المعيدين نعاين ونسأل ونرقب .. بدت شديدة الإخلاص لشيء أو لأمر لا أعرف على وجه التقريب تحديده بالضبط، لكنني أدّعي أنَّه لا يُخترَل: إنها تشعر بمسؤولية عن الجمال.

أجل، دكتور، مَنْ كان غيرها ليُصدّقني؟ كان المكعّب قد بدأ يتحوّل إلى ورم حقيقي في رأسي ووجودي. نعم، له وجود يحفر في داخلي، فهو قصّتي التي أقدّمها أنا إليكَ، فكل واحد منّا له اسم وقصّة ومكعّب، لا يتلعثم وهو يردّده أمام نفسه، ولا يذكّره بحماسة عتيقة. وها أنا أُفصح عن اسمي الحقيقي، يا دكتور: أنا المكعّب، معاذ الألوسي. أظنّ عفاف شعرت بذلك، وكنتُ أريدها أن تخمّن وتتخيّل أن ذلك البناء في طور التأسيس، له وجه وأنف وعينان وأسنان ووجدان وخيال وغريزة وهذيان ومحظورات ورغبات بالغة الصعوبة .. آه، له قسمات تمتّ إلي وإليها .. فلنطلب له الحظّ السعيد، سيشقّ الغبار، ويظهر، ويكون له أبوان، وأظنّ اسمه

المناسب كما أخبرتُكَ به ... هو تجربة أسراري الخاصّة، يا سيّدي، فكان مكعّب الشكل، حجم واحد يحتوي دعوة للنوم والعمل والرغبة واللّذّة والمتعة والتسلية والفكاهة والرسم والتصوير، فضلاً عن مراسيم من التّذوّق والملامسة والولع والإنصات والإثارة ومآرب عيش عابث. "حتّى الموادّ البنائية عبثية، وهي بحالتها الطّبيعيّة العارية دون تشويه: الطابوق والخشب والإضاءة الظاهرة، حديقة داخلية، غرفة نوم لا باب لها ولا شبّاك، وغير مستعدّة، لأنها مندمجة بفناء داخلي أخضر، وتطلّ على دجلة. والحمّام، سيّدي، وما أدراكَ ما الحمّام؟! مسطبة مرمر تسخن، وتُشرف على النهر. طوّرت وظيفتها لقضاء وقت طويل في القراءة متوسّداً المرمر المسخّن. هو شطحات سكن الطفولة المطلّ على الشّطّ، مقابل منائر وقباب موسى الكاظم الذَّهبيَّة، وغرفة نوم الوالد كانت تُطلّ على جسر الأئمّة، والفراندة الخشنة تطلّ على دجلة، سيّدي، لن أُحقّق حُلْماً دون مادّة كاملة من دون نهر وانكساراته".

عثرْنا جميعاً على بقعة الأرض، وهي كانت معنا في تلك المنطقة القريبة من شارع التانكي، كانت فضلة من أرض الأحلام، قطعة من حديقة مُطلّة على الماء، وغير مُستَغَلَّة على الوجه الأكمل، فتمّ التفاوض مع صاحبها، وبالتالي حصل المراد. تلك هي الأطياف الأولى ما أطلقنا عليه بـ "المكعّب". عفاف كانت تتجوّل بين مجرّات دماغي، وتُلقي بالأحجار من هنا، وترفع الحَلْفَاء من هناك، وتكتب بفرع أحد الأغصان على التراب اسم المكعّب وهي تضحك:

يا لكَ من فنّان متوحِّش. هل دَعَتْ لكَ الوالدة أن تفيَ بِنَذْرِهَا في هذا البناء..؟ أنتَ مقامر، أستاذ معاذ، وأنا أخشى عليكَ أن تتكدّر في أحد

الأيّام فيما لو هلكَ هذا البناء، فقط لسبب واحد لا غير: يتعذّر احتمال فتنته ودويه، فماذا سنفعل فيما بعد؟

كانت لا تهدأ في مكان، لكنْ، لها القدرة على السكوت لساعات، كميتة، وهي ترصد وتراقب المخلوقات والأشياء. كنّا أنا وطرب وصميم لا نملك إلا هذه القصّة، لكي لا تفرّ من بين أيدينا، والأرجح هذه الطريقة الوحيدة لإغرائها بالبقاء. أنا على يقين أن مواهبها في التصميم والإنشاء لا تقلّ عن الرسم والغناء، فقامت في البداية ووحدها بتخطيط شكل المكعّب، ولمرّة واحدة على صورة قصائد متعاقبة ونوتات موسيقية متوالية، وفي مقدورها إجراء تغييرات فجائية من الداخل، وغير متوقّعة، فيعاود العيش فيه بطُرُق مغايرة مَنْ يهوى ذلك .. هي تُفضِّل الشَّخصيَّات الكلاسيكية، هكذا تُطلق عليهم دكتور:

نعم، هؤلاء يملكون خاصّيّة لا تتقوّض، وهذا هو الذي أُفضِّله في التشطيبات، لكني، يا أستاذ، سوف أغادر المكان هذا، ربمّا لن أعود، لا أدري، سأرسل لكَ التخطيطات والرسومات والأفكار وبعض القياسات، سآخذ صوراً .. هيّا، لا تُفسِدْ عليّ الطريق، فأنا كالمكعّب، أحتاج إلى مراجعات وتحسينات .. ها ها .. كانت الأفكار تتسلّل إلينا جميعاً ونحن نرى تصاميم طرب الخزفية:

سنضع في مدخل المكعّب، ونكتب بجوار كل قطعة؛ هذه زخارف هندسية هدية من صديق، تصمت، ثمّ تلتفت وتسأل:

ترى مَنْ تتوقّع أن يقوم ويهديكَ ما يناسب المكعّب بسِحْرِه؟

بدأت هي وعفاف تُعدِّدان أسماء أساتذتهما الكبار في الأكاديمية، كما لو كانتا تعزفان ناياً وكماناً، فأعطت لكل واحد منهم نوتة ولحناً مغايراً.

في الخفاء والعلن، كان أصدقائي يتصوّرون أن المكعّب نفحة روحانية، سأُشفى منها بعد ما أضعها على الورق، لكني وعدتُ بقطع فنّيّة ولوحات تشكيلية، صحون وصناديق من الخشب المحروق، وجداريات وسجّاد عتيق. وكنتُ، ولحسن الحظّ، من أصحاب ضرورة العمل الشّاقّ، وأنا أشاهد كيف تتجمّع الصور والتصاميم، وقد بدأتُ بالتنفيذ بكل الإمكانات لديّ ولدى أصدقائي. تخيّلي معي، ياعفاف، وهذا أمر سابق لعهده، لكنْ، دعيني أفعل ذلك. هذا مكعّب قيمته في قبوله الانشقاق على كل شيء، وكسر كل شيء، فيرغب كل واحد منّا في أن يكون مكعّبه، ويريد امتلاك البرهان على ذلك، أن لا يخفيه عن أصدقائه، هكذا. أجل سيحضر مَنْ نحبّهم جميعهم، ويتوافد إليه، وعلى ذلك النحو الذين ينتظرونه منذ أمد بعيد، على النحو الذي يجعل أشكالنا وملامحنا ومنحوتاتنا ولوحاتنا وأغانينا أفضل من سابق عهدنا بها، ومن باقي أعضائنا التي نمتلكها قبل خمس دقائق، أو ثلاثة آلاف سنة. أجل لا أعرف كيف، وإنمّا سنرى شخصاً ما نعرفه في المكعّب، ويجدر بنا التّعرّف عليه أكثر. أنتَ، يادكتور، فالمكعّب كان قد أُنجز من "موادّ محلّيّة صرف" في رأسي. كانت تناكدني دائماً وهي تردّد أمامي ووراءي:

أنتَ تلعب بالموادّ جميعها كأيّ فنّان لديه نظرية يريد تطبيقها. تريد عمل فراندات خشبية معلّقة فوق دجلة مشابهة لتلك الموجودة في رأسكَ. تصميمكَ للمكعّب بطوابق ثلاثة. والجدران تريدها أن تحمل منحوتات من أعمال الأصدقاء، الفنّانين شاكر حسن آل سعيد، وضياء العزّاوي ورافع النّاصريّ وعلي طالب .. ومن المعماريّيْن، إذا لم تخنّي الذاكرة من الأصدقاء الذين أخبروكَ أنهم سيحضرون مشياً من شارع أبو نوّاس: إحسان فتحي ها، وغيرهم من الأصحاب الفرنسيّيْن ومهندسي الكهرباء. قال لكَ وليد الجادر سيهديكَ تلك {البستوكة} التي ظلّتْ عينكَ عليها، فعمرها من

عمر جَدّتكَ لوالدكَ. من المؤكّد ستحضر صديقتنا المهندسة المعمارية وجدان نعمان ماهر، وبيدها، ربمّا، مخطّطات لمشاريع لا تُحصى ولا تُعدّ ..

كانت تُعدِّد الأسماء جميعها، وتنسى اسم الدكتور الخرّاف القبرصي فالينتينوس الذي وعدني بقطعة من السيراميك ..

إذاً، ستحضر، دكتور، وسندعكَ تتذوّق عَرَق قازان، وسنشوي الأسماك، شو عبالك عزيزي، بمقدورنا أن نطبخ لسريَّة عسكرية، وندع الموسيقى تُلَعْلِعُ، والتّجلّي على آخره .. وبغداد، يتيمة، كلا، عمياء، لا ترى إلا بغضها وحتفها ... أنا أتحدّث عن زمنَيْن وثلاثة وتداخلها معاً، أقابل المخفي من أعمال المكعّب، وعفاف تُحضر أوراقاً غير مرئية في رأسها، وهي على وشك السفر، وكان ذلك في العام 1979 وأنا أصرخ في البرّيّة وأناديها أن تتوقّف: كيف ستهاجر وتترك لقيتها الأثيرة لديها؟ وهي تردّد:

أستاذ، أنا مادّة خام موجودة، وأتحرّك ما بين هنا وهناك، الأرض والسماء. نحن الآن في العام 1973، وفي هذه اللحظة الراهنة والحرب بين العرب والدولة العبرية بدأت، هيّا، تفضَّل، أرجوكَ، سيتمّ الرسم التّخطيطيّ على موادّي الخام كلها، وموادّكَ التي تستعمل وإلى ما لا نهاية، وكأننا نحن موادّ الحرب، الحروب جميعاً. ألا تشاهد يونس وهو يحضر من سدة الهندية، وكلّما رآنا معاً أو منفردَيْن زادت وحشته عنّي وعنّا. يرى سلالم المكعّب على الورق، وكأنه حضر من كوكب آخر، وطرب تنزل درجات إلى مسناية النهر، وهي مازالت وسط ذاك الدخان والموت كلَيْهما تريد مَنْ يحدّثها عن جمالها وفتنتها حتّى يفقد توازنه .. أليس هذا غريباً، يا أستاذ؟ طرب تحفة وحدها، وتقدّر وضعها في صدر المكعّب .. ها ها .. صديقتي نعم، ومن الخير أن تكون بدوني، أن تبقى بدوني.

لا تنسَ، أستاذ معاذ، أن توصي أصحابكَ بالفخاريات، لكي تبقى المشاهد تتعاقب في رأسي ورأسكَ، وأنا أرى "فخار طارق إبراهيم وبعد مسافة قريبة منه سيواجهكم تمثال خشبي لخليل الورد، وآخر لمحمّد غني حكمت. ومن الجائز يونس سوف يقوم بنحت رأسٍ لطرب، آه، وذلك الذي أتخيّل ضحكته الرَّنَّانة، وأتمنّى رسمها ؛ إسماعيل فتّاح الترك، دعني أُكمِل، فأنا أعرف جلّ أصدقائكَ، وهم أساتذتنا. أظنّ سوف تهديكَ طرب المرآة خارقة الجمال لنهى الراضي، ومن الجائز أنكَ أوّل ما ستدخل المجاز ستُبصروجهكَ في تلك المرآة .. سيحمل صميم "ركَية" تفلعت من منتصفها، وظهرت بطنها الحمراء الشّهيّة جدًّاً، وأنتَ، يا عزيزي الدكتور كارل، تضع قَدَمَكَ على عتبة المكعّب، وكلنا جميعاً بانتظاركَ، سترى "الركَية"، وأنا أهمس لكَ بصوت خفيض:

هذه الفاكهة تُسمَّى في فرنسا بطّيخاً أحمر، وما إن تبدأ تبتسم، وقبل أن أُكمل أسمع صوت عفاف، نعم، هكذا، وهو يتوزَّع علينا جميعاً:

تذوّقْ هذا الطعم جيّداً. فمهما بحثتَ عن مثيل له، فلن تعثر عليه أبداً.

تراكيب الجمال

من الجائز أن يكون خطابي إليكَ بعدّة طوابق، هيّا، ابتسمْ كما أتصوّر، وهناك الحديقة الدّاخليّة .. ليس لدينا أنا وعفاف ما نستقرّ عليه في الوقت الحاضر. هل هو شذرات من مشتقّات الحبّ والبارود بسبب الحرب؟ أم من وجيب القلب المجنون وطاعة المحبوب؟ هل هو المكان الذي حلمنا به نحن الثلاثة: طرب وعفاف وصميم، لكي يكون عاصمة التشكيل والفنّ والمحبّين والعمارة والفنّانين والمجانين وشبه المجانين، الشعراء الذين يكدّون ويعترضون ويبقون في الظّلّ ويمشون وحدهم، فنجلب إليهم وإلينا العنب والتين والتمر والخمرة واللغة المحكية البيضاء وحبر الرَّسَّامين العراقيّيْن وحمولة الليل الطويل، وصيغاً من تراكيب النحل والطيور والأطفال وخلاصات الموتى .. قلتُ لعفاف في أحد الأيّام:

صميم يريد بناء يشبه طرباً. نحن نتشابه أنتِ وأنا، فلا نستسيغ مرجعيات العشّاق في الأندلس أو الهند أو الصين أو بغداد في عصورها الذَّهبيَّة .. اسمعي، ألا تظنّين أن المرأة تتلذّذ بأعباء الصيد ومهامّه أكثر من الرجل؟ تسعد بالملاحقة وبشيء من التعذيب، لكنها لا تُفضِّل إراقة الدماء مثله ؛ فنحن لا نزال نلاحق الضواري كالوحوش.

أنتَ، حكيم، لم ترَ طرب، فهي تمتلك جمل الاسترخاء جميعها في اللغات العالمية. استرخاء الدماء ومطواعية اللحم الذي يفصح كما تشاء، فيلحق بها صميم، ولا يرتوي. منحوتاتها الجدارية جميعها مغوية، وهي

شاخصة على جدار، فتضع فيها مقاطع من نشيد الأنشاد، ونوتة من نوتات ابن حزم، وبعض أبيات من ديك الجنّ وأبي نوّاس، فتطلق العنان لمخيّلتها العنيفة. أوّل ما شاهدتْ يونس، فكّرتْ، أنه سيغرم بها في أحد الأيّام، والمفترَض أنه أُغرِم بعفاف، أو العكس. لم نعرف. ولا ندري هل أخبرتكَ عنه؟ فنحن نظنّ أنه مات في وقت مبكّر، أعني الحبّ، كذلك ياسين .. أنا أعتقد أن الرجال الذين تعرّفت وأغرمَت بهم حاولوا تحطيم إرادتها بالدرجة الأولى، وتخصّصوا، ربمّا بعلمهم أو دونه في أذيتها، وبالتالي في اهتزاز شخصيتها.

أين عفاف، دكتور؟ الآن، الوقت صار قليلاً ونحن جميعاً أسوأ حالاً من ذي قبل، فندعوكَ ونعرف أن الوقت يفرّ من الموت هو الآخر، وليس في أيدينا إلا ذلك المكعّب الذي ندعوكَ إليه، لكي تجوب معنا الشوارع بحثاً عنها، فربمّا عادت دون علمنا وعلمكَ. عادت لكي تستقبلكَ معنا، وتكون ملزمَة باستقبالكَ كواجب الضيافة، هي ومَنْ بقي من أفراد عائلتها.. لمَ لم نفكّر بهذا الاحتمال، دكتور، فصمتُها ربمّا هو الإيغال في وجودها، وأن هذا التواري يناسبها .. ما رأيكَ؟ نحن نتآكل يوميًّاً بالبحث عنها، ولا جواب من طرفكم .. وأنا أريد إغراءكَ بالبناء العجيب الذي أسقط المفاهيم المسلَّم بها، مثلاً، عن: الحجرات المنزلية، الأشكال الوطنية لبيوت العائلة وبيت الزوجية {الكليشية} الذي كان يذكّرنا بربّ العائلة وقد فَرَقَ شَعْره من النصف ... عليكَ أن تتصوّر ماذا حدث، دكتور؟ فبعض أقطاب الحزب الحاكم في تلك الأعوام، منتصف السّبعينيّات، قال وبدون مواربة وبالحرف:

إمّا أن تبني لنا واحداً مثله، أو تدعه لنا.

لم نكُ نرى الدم والعنف، هل هو أمر به بعض العزاء للبعض؟ أم

كان به شبه من الإهمال، وفي بعض الأحيان، الاحتقار أفضل من التهديد الذي كان يواجهنا في الكثير من مظاهر الحياة الثّقافيّة والفنّيّة في نوعيات من التراكيب تُدخلنا في المهانة .. سنُدوِّن لكَ عن كل فرد من هذه العائلة، وفي الطريق، ها نحن نستخدم أنفسنا في الإفصاح عن ذلك الخضوع السابق واللاحق، فعفاف أفضل منّا .. لا أحسدها، دكتور، إنمّا تلك الأجهزة، ومن الأنواع جميعها لم تنتصر عليها، ولا على مَنْ بقي من عائلتها. في تلك السنين، بدءاً من نهاية الـ 1973 وإلى ساعة الظهيرة، وأنا أكتب لكَ، واليوم يصادف الأوّل من أكتوبر للعام 2011 وهي عندكم. أنتَ ضعْ ماكينة الحساب في حاسوبكَ، سيّدي واحسب كم عدد الأعوام، أنا لم أقوَ على ذلك، ولا واحد منّا جرؤ على فعل ذلك. كانت الرياضيات التي شغفْنا بها في كُلّيّة الهندسة، وفي قياسات الخرائط قد تحوّلت إلى جثث وقبور ومُشيِّعين ومُعزِّين ومعسكرات من حِداد لم يُفَضّ حتّى الساعة. بقيت تسأل عن مراحل البناء حين يكون المزاج رائقاً، فتقول لطرب في الهاتف:

من الجائز أن الأستاذ معاذ يريد أمراً، لا يُنجَز، فإمّا أن يُكمِل بناءه، وإلّا فهو يلعب. تماماً، هذا المعمار يموت على اللعب والعبث وتدمير الطُّرُز التي لا تعجبه من عمارة هذه المدينة، مدينتكم التي لا توافق أمزجة مرجعيات الكثيرين، وربمّا مزاجنا أنا وأنتَ أيضاً، فَمَنْ يدري؟ قولي له هذا لكي نغيظه .. أو ما رأيكَ أن نقوم بتحطيمه حال الانتهاء من البناء؟ .. كانت تُطلِق ضحكاً هستيريّاً، وهي تقوم بإغلاق الهاتف قبل أن تجيبها طرب ..

كما ترى، دكتور، عفاف حاضرة بيننا أكثر من الذين نخاطبهم يوميّاً، ويدورون حولنا، ولا ندري مَنْ بمقدوره أن يمسك بروحها المعذّبة غيركَ .. فهل أصغيتَ إليها مثلنا وهي تتأفّف بطريقة مريرة:

"الذي يسعده ويثريه الاستماع لموزارت، لا يستطيع الاستماع بالأُذُن نفسها للحماقات التي تُغنَّى في الإذاعات، والذي يتمتّع حقّاً بلوحة لتيرنر أو دوستال لا يتوقّف أمام أشكال شائهة تحمل الوباء، الذي يحبّ هذه النماذج التي ذكرتُها، ويجد مفهومه الجمالي متعة فيها، يشكّل حياته بأكملها بشكل مختلف تمام الاختلاف عن الشكل السائد. أستاذ معاذ، ألا تتذكّر مقولة أرسطو في الفنّ الذي يرى أنه يشبه الجسم الإنساني، فلا هيكل عظمي وحده، ولا شرايين وحدها، وإنما يجب أن يكون جامعاً كل شيء، ويدلّ على كماله الخاصّ المتفرّد، كما أعمال ديستويفسكي وشكسبير، وغيرها .. هو سرّ الإقناع بشكّ هاملت، وغَيْرة عطيل وقتله امرأته، كما سيقتل في أحد الأيّام صميم امرأته طرب". لم تفارق كلمات عفاف رأسي، دكتور، ولا فارقتْها كُتُب الفلسفة القديمة قبل سقراط وبعده، وحين كانت ترى يونس أمامها، ونحن نقف أو نتمشّى في تلك الأرض المَنوِيّ البناء فوقها، يكون مهندماً ونظيفاً، فتبدأ تضحك، ثمّ تسكت كأنها تكلّم ميتاً:

"لا نستحمّ في نهر مَرَّتَيْن"

وتواصل نَكَدَها، فهي ساخرة من طراز مزعج:

أجل، وأنتَ كم مَرَّة تستحمّ، يا يونس؟ في الشهر أو العام، وأنتَ الذي قلتَ لي في أحد الأيّام: إن قَدَرَكَ هو الماء. يعني أنتَ مثلي تماماً. كلا رائحتكَ: "فالكائن الذي قَدَرَه الماء كائن دائخ، فهو يموت كل لحظة، ومن دون توقّف، يسيل شيء ما من مادّته. إنَّ موت الماء أكثر حلمية من موت التراب، لانهائي هو عذاب الماء، فأصحابه يكابدون اكتئاباً خاصّاً كلون رامة في غابة رطبة. اكتئاب من دون ضيق، حالم، بطيء، هادئ".

عفاف، دكتور، كانت لا تبحث عن طالعها في يقين العقارب والحيتان والسرطانات، في ظنّي كانت تتّجه نحو جماليات الماء في حالاته جميعها. فتقدّم جَدّتها، بيبي فاطم كائنة مائية طلعت من الماء جنّيّة، وسوف تنتهي إليه في أحد الأيّام، هكذا، كانت تراودها بعض الأفكار، ثمّ تنكمش، وهي تتوصّل إليها بخوف، فحدسها كان مخيفاً.

ابتكارات خصوصية

قلتُ لها في أحد الأيّام، وقد صار سفرها يقف فوق رؤوسنا:

سأبني مكانا يشبهكِ، يشبه النساء جميعهنّ، ونعيش فيه ولو عاماً واحداً، أو عقداً أو ساعة. دعيه يتبلور ويتخمّر في رؤوسنا معاً، كما نشتهي جميعاً .. ها، ما رأيكِ؟ لماذا السفر بهذه السرعة؟ انتظري قليلاً.

آه، صحيح، دكتور، كما يصفني صاحبي صميم، إنني أشغف بالنساء وحركات اليسار العالمي. ربّما، المرأة لا تحقّق السعادة، لكنها تبتكر طُرُقاً شتّى في الوصول إليها، وأنا في حالة مرض، ليس بالمعنى العيادي، دكتور، وهي ترجُّني رجّاً، فيُقطع صوتي، فأعود إلى خرائط المكعّب، ويضايقني ويزعجني صميم صراحة، وأنا أراه متروكاً ومهجوراً أمامي، وأمام طرب، وقد تحوّل إلى فحمة. فالحبّ في تلك البقعة من الصليخ الجوّانيّ . يتناغم مع عقوق وشطط النساء اللّاتي لا نزال نجهل منطق أجسادهنّ وعواطفهنّ، وأجسادنا ومشاعرنا بالدرجة الأولى. عفاف لا تظهر إعجابها بصميم علانية. يُستحسن هنا أن لا نُسيء الظّنّ كثيراً. من الجائز أن صميماً يُجسِّد لها ضمير الغائب الذي تقدّر أن تشير إليه ببعض الألفاظ، وتكرّر العبارات التي يُفضِّلها، فهي تُلمّ بمعجمه، وهي تجلس أمامه، ونحن نلعب الكونكان، ولا تُفسد عليه شروط اللعبة، واللعب بصورة عامّة. عفاف مولَعة بالمبالغة، ولا تنتظر موافقتك، لكي تبدأ بالأسئلة، تُشمِّر عن كُمٍّ كنزتها الصّوفيّة أو القطنية، وترفعها إلى أعلى، ولا تنظر في الورق الذي أمامها. ترى صميم

الذي يعرف تماماً ما تفكّر به، فهو يهجس بما يجول في رأسها، يرمي ورقة في وسط الطاولة، ويسأل:

تهاجمكِ الفكرة ذاتها، يا عزيزتي، أليس كذلك؟

تدفع بجسمها إلى وراء، وتسند ظهرها بالمقعد، وتنفث دخان سيجارتها إلى أعلى:

ما العمل، يا صميم؟ ها، يموت المرء وهو لم يفعل شيئاً يُذكَر .. وأنتم جميعاً أصحابي وأهلي بأسرارنا الصغيرة جميعها، والنميمة بيني وطرب عنّا وعنكم، و.. هل يُعقَل أن يكون الأمر صحيحاً؟ عال، أين سأذهب بعد ذلك؟ والعالم لن يوجد أبداً ..

صمتتْ فجأة، ورفعتْ كأس الويسكي، وأفرغتْهُ تماماً، بقي بيدها وهي تنظر إلى قاعه، وتردّد بصوت بعيد:

" أستاذ معاذ، ما أقبح الذي يحيا ولا يسكنه هاجس الموت دائماً.

رفعتْ رأسها، ونظرتْ إلينا جميعاً، ثمّ أطلقتْ ضحكة هستيرية:

هناك بالتأكيد مَنْ يسخر منّا .. كلا .. كلا .. أنا لا أوافق على هذا التعبير المتعجرف .. لنقل هناك مَنْ يتعمّد المزاح معنا .. يجب أن نكون ظرفاء نحن أيضاً.

قامت من أمامنا وبيدها القدح. وضعتْهُ جانباً، وصار ظهرها لنا:

"مَنْ يدري؟ لعلّ الأمر هو كما يقول الشاعر الصّينيّ {الفراشة /الإنسان} عبارة عن حُلْم آخر" .. كانت تمشي بهدوء صوب الباب في طريقها إلى بيتها.

صميم كان يفهم جيّداً مناجاتها روحَها، فهما، في كثير من الأحيان، يتقابلان في حوارات فلسفية وفكرية لا تنتهي، وما إن يصلا إلى عنوان سياسي حتّى تفزع وتردّ عليه:

السياسة تفتح قبوراً و..

وما إن تختفي عن أنظارنا، فنرى وجه طرب وقد اكفهرّ، وهي ترفع رأسها بعد أن تضع أوراق اللعب جانباً، وتتنهّد:

كأنها تُفضِّل الموت، كي لا يعاودها الصداع الشديد والنوم القليل. لا .. كانت تقول، هي لا تنام إلا نادراً.

كان صميم يضيف وهو ينفث دخاناً كثيفاً:

على علْمنا، تناولت الأقراص المنوّمة وهي صبية، خالتها فتحية أخبرتْني. وكان طبيب العائلة الكائن في رأس الحواش "زكي أمين" يكتب لها نوعاً من الحبوب ذات النسبة القليلة من المخدّرات، وهي ما زالت في الثانوية حتّى تركتْنا.

تدخّلت طرب وهي تضيف:

في السنة الأولى في ثانوية الحريري كانت تُفضِّل لو تختفي، تقول، الحبوب تجعلها تبدو أقلّ وأضأل من قبل. فتصير شبه متوحِّشة لا تعرف المجاملات، ونفورة. تبدأ وبالتدريج تنفر من المحادثة مع الغير، الطالبات الجديدات والمعلّمات اللّاتي يمتدحنَ ذكاءها، لكنها لا تهتمّ. ثمّ صارت تقطع الحديث عند منتصفه، ولا تُكمله، وتتجاهل آداب المحادثة، وتتوارى. لا تعود تهتمّ بالإدلاء بأيّة إيضاحات نافعة أو مزيّفة عنها أو أسرتها أو دروسها، إلى أن قدمتُ أنا، وتسجَّلتُ في الثانوية، وتحوّلْنا إلى صديقات.

عزيزي الدكتور،

سامحني من هلوساتي أنا أيضاً، فقد توصّلتْ في أحد الأيّام وهي ما زالت طالبة في كُلّيّة الهندسة، ربمّا، لن تُصدِّق ما أقوله، لكني سأعيد ما شعرتْ به وهي طالبة متفوّقة، بأن هذه الشَّابَّة الجذَّابة كانت تريد أن تفرغ من شبابها وبسرعة، فلعلّ النوم يُعاوِدُها فيما إذا فقدت سنين من حياتها. ما هذا الجنون، دكتور؟ كان صميم يُخبرني فيما إذا ذُكر اسم المكعّب أمامها، أنّ سحنتها تتفكّك، وعُقد جبينها وبين عَيْنَيْها تنحلّ، وبعد أن تهدأ تقول:

هيّا، اتّصل بالأستاذ، أنا حاضرة للذهاب والتّحقّق من الأرض المختارة التي وقع عليها الاختيار.

أجل، دكتور، في البداية، كانت تفزع أن يكون المكعّب مجرّد مساحة ذهنية من الخيال، وما نحن، المعمار والرّسّام والنّحّات والكاتب إلا فريق مراقبة. نقوم بمَسْح الأفق واختراع علامات جديدة انطلاقاً من الشراكة بيننا وبين المدينة. كانت بقعة الأرض حقيقية، وأنا أذهب يوميّاً لزيارتها وتأمُّلها، وأحاول الانتقال إلى الجهة الصحيحة ممّا يدور في رؤوس عفاف وصميم وطرب وباقي أصدقائي. كل بقعة في هذا الحَيّ أو الشارع أو المدينة كانت لها طبيعة جذرية، وهي تطرح علينا ألوفاً من الأسئلة: فالعمارة "باعتبارها حدَّاً - وهذا ما كان يشغلني حقَّاً - أن يكون ذلك بالوقوف دائماً على هذه الحافّة الغامضة للمعرفة أو اللّامعرفة. أظنّ هذه هي حقَّاً مغامرة العمارة". اللعنة على عفاف في كل لحظة. هي الوحيدة التي تقوم بصَبِّ الزيت في حلقي وأليافي المتهوّرة بالتّأمّلات في غياب صميم بالدرجة الأولى وطرب، فلها قدرة على برمجة ما يدور في رأسي بصورة خفية، فتنطلق الأفكار، وتعارضني، هذا صحيح، ونتشاجر أكثر ممّا كانت تتشاجر مع صميم،

وهي تقهقه عندما تربح طرب في الكونكان نكاية في صميم الدكتاتور أمام الطاولة. اسم المكعّب، نعم، كان اختراعي الخصوصي، ولمّا أطلقته أمام صميم صاح فرحاً:

آه، هذا سيكون مكاناً يشبه الصندوق الأسود وهو يصلح أن نُخبِّئ به الأسرار، وربمّا الجرائم، لمَ لا؟ .. بدماء غزيرة، أو بدون إراقة قطرة دم واحدة ..

توهّج وجهي، وتورّد خَدَّاي:

كل شيء يخطر ببالكَ، أيّها الكاتب البوليسي. انتبه، لا أحد يعرف بالمشروع إلا نحن فقط، وها هو كما تقول، أوّل الأسرار:

ستسيل الأفكار والتكوينات، وينكشف السّرّ أمامنا. هذه استراتيجية كما يقول أستاذ النحت لانفجار الطبقات من حولنا، أمّا ما نستطيع تحويله أو تراكمه من نقاط لِلقاء أو الفراق، فسوف نعثر عليه في أثناء بناء المكعّب. هكذا أجابت طرب.

الفصل الثالث
استشارات قانونية
العمّ مختار

أهو ده اللي صار

كان صميم يردّد على مسامعي:

أنتَ، يا أستاذ مختار، شخصية روائية، وأنا أُحبّ جدًّاً أن أقابلكَ على الصفحات التي أعمل عليها. أرجوكَ، لا تغضبْ منّي فيما إذا جعلتُكَ تُغرِّر ببعض النساء والفتيات، وتعمل بعض الأعمال المُخلَّة بالآداب العامّة. أنتَ رجل مُغرٍ للكتابة. إي نعم. محام، سِكِّير، ضجر، مُسنّ غير هيّاب من أصحاب اللِّحى الصبيان الفاسدين، أبناء حرّاس البيوت السابقين، وسائقي سيّارات ملّاك القصور والفيلات الفارهة التي تمّ التلاعب بها من الجوانب جميعها، فصارت تشبه بيوت الشّحّاذين. ها، ما رأيكَ؟ .. هل تسمح بذلك؟

هل أسمح، دكتور فالينو، بالتلاعب بي؟ أم أدع الأمر لكَ، لكي تتلاعب بي، فيما إذا حضرتَ فعلاً، ولَبَّيتَ دعوتنا؟ على الخصوص، للإقامة في - مكعّب - معاذ الألوسي، ربمّا هو الشيء الوحيد، أو المسموح لنا باختلاس النظر إليه قبل أن يصله الاحتقار الذي نراه في عيون وقسمات الوجوه التي نلقاها أمامنا ومن حولنا، فيدكَ على رؤوسنا في أحد الأيّام قبل أن تزوره. هو الآن محروس، وكفى .. تأكّد من ذلك، فلا تكثرْ من أسئلتكَ حوله. دعنا نعود إليكَ، أنا دُفعتُ دفعاً إليكَ، يا دكتور. نعم، قمتُ بخطوات لاستقبالكَ على أكمل صورة: غيّرتُ ثيابي، وتهندمتُ، وتعطّرتُ بعطر قديم، مازال يحمل بعض العبق الذابل منذ سنين سابقة. أعجبَني حالي

وأنا أنتظركَ. أحببتُ أن يكون أحد هناك، في مكان ما من هذه الكرة العجيبة لا يعرفكَ أنتَ، لكنه ينتظركَ، ومن الجائز تنتظره، فابنتنا كانت تحت وصايته ورعايته، أو حمايته، أليس هذا ما يقال في أدبياتكم، دكتور؟ أنا لا أفهم ماذا حصل لها وهي هناك؟ دعني أعود وأُكمل حفل الاحتفاء باستقبالكَ. ها، تبتسم، ندعكَ تبتسم وتقهقه قليلاً، وأنا أقوم بذلك بالفعل الآن، وأحضّر ثيابي، على الخصوص سروالي. تأكّدتُ من الإبزيم أنه يعمل بصورة مضبوطة، لا كما في كل مَرَّة أدعه مفتوحاً، وأنا ألاحظ هلال وعفاف، ونحن على سفرة الطعام وهما يغصّان بالضحك المكتوم، ويُبعدان رأسَيْهما عنّي، والوالدة تخزرني قائلة:

أي، شلون ويّاك؟! ... كل يوم تنساه مفتوح، وإيدك تبقى تلعب هناك!... هي والجميع يتصوّرون أنّني أفعل ذلك عامداً متعمِّداً، والحقيقة، أنني أنسى، ولو كان بيدي، لتركتُ حالي بالفانيلا ولباسي الدّاخليّ، والكلام بيننا، أنتَ وأنا كرجال، وفي سنٍّ متقدّمة، لو مشينا عراة في أنحاء البيت، أليس هذا أمراً مريحاً، أشد راحة من لاستيك البيجاما الذي يحزّ على بطني، فيدعني أهرش بطني وخاصرتي، ولا أكتفي بذلك من فوق الثياب، بل أرفع جاكيت البيجاما إلى أعلى، وأبدأ الحَكَّ بأظافري؟ لا تتصوّر تلك اللَّذَّة، دكتور، ألم تجرِّب ذلك؟ غير معقول، لا أصدِّق ذلك ... ما علينا. تأكّدتُ واخترتُ السروال النيلي الغامق المصنوع من قماش الكبردين. صحيح هو قديم، وصار كالحاً، لكنه يدع أعضائي مستتبَّة في مكانها، ومرتاحة جدَّاً وهي تتحرّك وتهدأ، فلا يضايقها حزّ الخياطة الحديثة كما أراها في بعض الأحيان في سراويل معاذ وصميم. لا أخفيكَ، دكتور، وأنا أزيح الثياب، لكي أسحب هذا السروال، كنتُ أسمع أنيناً يطلع من نسيج الملابس، ومن خشب الخزانة. من الجائز أن الثياب تئنّ مع بعضها، كما نفعل نحن البشر عندما نترك أحداً، أو نفقده نهائياً. هل تصدِّق،

دكتور، كان الأنين يجلعنا سعداء بعض الشيء. لم نكن نقول كفى، وكأن تلك الأصوات التي يتناقلها الهواء بين الغرف هي التي تلمُّ شملنا تحت سقف واحد. أظنّ كلنا كنّا نتوجّع، فنحن لا نعرف متى يبدأ الوجع؟ متى بدأ؟ وبدون اتّفاق كنّا نتبادل الأدوار. الآن وأنا أكتب إليكَ أعتقد جازماً، أن الأوجاع كانت تتطلّب من المرء أن يكون ذا صحّة جيّدة .. نعم، كنّا أحياءً وأصحّاء وأمواتاً معاً.

طبعاً لمعّتُ حذائي، واخترتُ ذاك الذي يدع ظهري مستقيماً، أو هكذا أتمنّى، فعلى مرّ الأعوام، بدأ الظَّهْر بالانحناء، بسبب عاملَيْن، الأوّل طبيعي، والثاني بسبب الذّلّ. نعود لقيافتي، فأنا كنتُ رجلاً مترفاً جدَّاً، ربمّا أخبرتْكَ عفاف عن ذلك. وها أنا أريد أن أبدو بصورة مناسبة أمامكَ. كويتُ ياقة قميصي المكرمشة بعدما اخترتُ ذاك الأزرق الفاهي الذي تُفضِّله عفاف. ألا ترى كم عدد المرَّات التي نجلب اسمها ونضعه في أوّل لساننا، كما أجلب من أقصى الخزانة الحمالات بلونَيْها الرّصاصيّ والأسود، شغل الإنكليز؟ كنتُ أضعهما بصورة صحيحة، لكنني بسبب اهتزاز يدي اليسرى، كان أحدهما يبقى نازلاً، والآخر مرفوعاً، هلال في بعض الأحيان يقول:

عمّو، هذه الموضة في لندن .. ويبتسم.

أوّل ما وصلنا شارع التانكي سجّله أخي في كُلّيّة بغداد، وكان هلال في عامه السابع عشر. أذكر بعد ذلك ما حصل في صيف العام 1968. اقتضى الحال تغطية رؤوس أولئك الفاذرية اليسوعيّيْن بغية إهانتهم. بدأتِ التظاهرات تتوافد إلى كُلّيّة بغداد، تطالب بتعريقها وطرد الآباء، ممّا سبّب بعض الإرباك للطَّلَبَة وأولياء أمورهم حول مستقبل تلك المدرسة العريقة. في نهاية العام الدراسي وفي صيف 1969 صدر قرار بتعريق الكُلّيّة، وتمّ

طرد الأساتذة الأمريكان، والذين سبق أن دُفن أربعة منهم داخل حدائقها ؛ ممّا سبّب صدمة لهم، قابلها العديد بالبكاء، ثمّ الرحيل إلى بيروت لتكملة البرامج في الجامعة الأمريكية داخل الأنترناشيونال كوليج. كان حزن الطَّلَبَة وأولياء أمورهم شديداً. بعد ذلك تمّ إلحاق كُلّيّة بغداد بالجامعة المستنصرية، وجعلها مؤسّسة مستقلّة.

كل ما لديّ، دكتور، قديم. أنا قديم وأتغنّى بشهوانية وجاذبية قِدَمي، فها أنا أبصر حالي واقفاً أمام المرآة: رجل حَيّ، فريد في نوعه. نعم، كلنا هكذا. هم لم يكفّوا عن الطواف حولنا وتهديدنا. أنا شخصيّاً توصّلتُ إلى حيلة ساذجة ؛ فضّلتُ أن أكون قديماً، هكذا، باللّامبالاة والتجاهل بدلاً من الحسرة، فبدأتُ بجانب الخمرة أُدخِّن الغليون الذي لم أكن جرَّبتُهُ من قبل، هكذا، للإثارة والمضايقة. نعم، أنا حَيّ أرزق، بسبب أعوامي الكثيرة جدّاً، لكني لن أبوح بها أمامكَ. لا معنى للأرقام:

تفاهة .. تفاهة ..

كما كانت تُسمعنا إيّاها، هذه اللّازمة، عفاف. ترى هل وصفت بها فلاناً أم فلانة من أفراد عائلتها وأصدقائها؟ هي لم تبغض أحداً، على العكس، هي لم تحبّ نفسها ما فيه الكفاية. لم تبتهج بها، أعني لم تقبلها. أظنّ لم تذق أو تعرف ما هي السعادة. صميم قال، اكتب للدكتور .. وهذه مهمّة شاقّة جدّاً عليّ، فنحن، هي وأنا، نمتلك موهبة الشقاء. نعم، دكتور، بعد أن سافرتْ وسمعْنا عن حالتها، لم نفهم ما بها حتّى الساعة، خمّنت، أن بعض البشر، أنا واحد منهم، وربّما هي أيضاً، تفضّل البقاء في ذلك الجانب الشّقيّ من الحياة. في ما يخصّني، لديّ أسباب كثيرة: تأتأة لساني المزمنة، واهتزاز كفّي اليسرى، وحَوَلُ عيني اليمنى الذي كان يستهوي عفاف كثيراً، فهي ورثت بعضه، والمقالب التي كانت تدبِّرها لي

هي وهلال .. لكنني أُحبُّهما، ولم أغضب يوماً من أيّ واحد منهما. هذه العوارض جميعها جعلتْني خجولاً أمام الجميع، بمَنْ فيهم بعض أصدقاء الجرداغ الذين يقومون برفع الكأس عالياً مردّدين:

يلا عضيدنا الورد، كعب أبيض، في صحّة منتصف الليل ومنتصف العمر ومنتصف الوطن .. هههههه.

كانت ربعِيَّة العَرَق العراقي الثقيل موضوعة في جيبي الخلفي، جلبها لي معاذ من أوربا، حيث يعيش. قطعة فنِّيَّة من الفضّة ذات غطاء مكبوس أسود، يحفظ الخمرة، لكي لا يُفسدها الهواء، فكانت تنزلق لجيبي بهدوء، فلا تُسبِّب لي أيَّ حرج، وأنا أسير من الجرداغ إلى بيتنا الكائن في شارع التانكي، وبالعكس. الطريق لم يعد ذاك الذي كنّا نعرفه من قبل، فقد كنتُ أكرع من فم القنّينة، وأهتف بصوت شبه ساخر:

في صحّة زوجاتي التافهات وعاهراتي اللطيفات.

كانت صحّة شارع التانكي في أدنى حالاتها، وأنا أدوس وأتعثّر بعشرات الحفر، وأغوص بالمياه الراكدة في سواقي نتنة. قوالب من الكونكريت التي كانت تقطع بيوتاً عن بيوت، وشارعاً عن شارع، فصارت القوالب من السّكّان الأصليّيْن للحَيّ. كنتُ أتشوَّق لو شاهدت عفاف هذا كله لبحثت عن اسم مناسب له، فما يطلق عليه لا يفي بالغرض. أين كنتَ، دكتور، حين دخل النّازيّون باريس؟ هل ظهرتَ أنتَ في إحدى الصور وقتذاك؟ هل كنتَ في المقاومة؟ مَنْ قادتها؟ هل قمتَ بعلاج الجرحى ودفن الموتى؟ هل أطبقتَ أجفان أولئك الذين كانوا على وشك .. أو الناجين ..؟ ترى هل كان هناك ناجون؟ كانت الجثث في التصاوير تبدو في غاية الوداعة، كانوا يموتون بصورة متقنة، وينالون وجبات من الرصاص والبشاشة والإذلال

.. الجميع كان يناديني بـ"العمّ"، وبدون أن يعرفوا اسمي. السنون تتوالى وأنا أشاهد تفكيك المدينة وانسحاق العائلة، عوائل من الشباب إلى المُسنِّين، ونحن هنا، دكتور، نقضي وقتاً طويلاً، أعني عمراً تامَّاً في الربية بنا، لكنني لم أهتمّ كثيراً. فأنا أعرف أنهم لا يُفضِّلون الصور، تصاويرنا، ولا وجوهنا، ولا ثيابنا. آه، ولا سكرنا. بالحقيقة، سكري أنا الذي أبرع به بعدما تضاعف، ومنذ العام 2003 وإلى هذا اليوم، ونحن في العام 2011، وأنا أتبادل النظرات مع العيون والوجوه التي لم نرها من قبل. جاءت واحتلّت هذا الشارع. قلتُ لصميم في أحد الأيّام ضاحكاً:

ألا ترى، يا عزيزي، أنهم صعّبوا الحياة عليهم بالدرجة الأولى. فصرنا الموضوع الدائم لهم، فوقعوا تحت تهديدنا.

الخمرة وأخواتها

صحيح كنّا أحياء وأمواتاً، ولا تقدر أن تفرّق بين الحالَتَيْن، لكننا كنّا نجد في هذا مساواة لنا، وفيما بيننا، وليس معهم. نعم، العام 2003، لم نعثر له على نعت أو جنس في الخفاء أو العلن. أمّا تلك السنة، فأنا شخصيّاً نحّيتُها جانباً، لم أُنكرها، ولا أهملتُها. ففي مكتب المحاماة الذي كنتُ أذهب إليه في الأسبوع مَرَّتَيْن، كنتُ أحافظ على فضائل بعض الحيثيات، وأنا أكتب في الكرّاسة التي اشتريتُها من مكتبة الصباح الكائنة في شارع عمر بن عبد العزيز، ووضعتُها تحت إبطي، لكي لا تقع من بين يَدَيّ: أمسك بيدي اليمنى قلم الحبر الأسود مثل عفاف التي كانت تُفضِّل هذا اللون، وأكتب في رأس الصفحة: أنا الرجل الأحول الذي يُتأتِئ ويده مهزوزة، والحَوَلُ يجعلني أصل إلى قاع الناس من حولي، فكنّا أنا وسكري لا نبقى في البيت طويلاً، ولا نعمل تحت جنح الظلام، وما إن توقفني إحدى المليشيات التي تظهر بغتة، وأنا عائد لبيتي، حتّى أتلقّى نظراتهم شديدة الخسَّة والشراسة، وكلمات: أعوذ بالله، يعقبها سِبَابٌ فاجرٌ.

توقّفت عن الفزع منذ بدء الاحتلال. كانوا في عمر هلال عندما فرّ في العام 1969، وبعد طرد الآباء اليسيوعيّيْن، كان في السابعة عشرة أو أكثر قليلاً. مُلتحُون يتطاير من عيونهم أمر رهيب: بُغْض لا نظير له، ونحن نتلاقى للمَرَّة الأولى. تقدّم أحدهم محاوِلاً تفتيشي، فقلتُ له نكتة عن حنّا السكران الذي كان يتبادل النّكت مع الضابط الذي يستجوبه .. فعطف

عليه، وتركه لحال سبيله. كان أحدهم ابن حارسنا القديم الذي نسيتُ اسمه. بدت الأسلحة ثقيلة على أكتافهم الهزيلة، فسألتُهُ عن أبيه وكيف هي أحواله، فاستنكر الأمر، وبدا عصبيّاً جدّاً وعلى غير توقّع بدأ بالشتائم البذيئة على:

عفاف وهلال.

بعد ذلك، التفت للجهة الثانية، وبصق على الأرض، ثمّ أشار لرفاقه بتفتيشي، فاستخرجوا ربعِيَّة الخمرة، فتمّ إفراغها أمامنا، والنظر فيها مليّاً:

تشرب المنكر بقناني الفضّة. لن تراها بعد اليوم. أمسكها بيده، وأشار للباقين بالانصراف وسط السِّبَاب واللعنات.

هذه ليست سيرة الصفحة الأولى من هذا السكران، فعموم سكّان المدينة سكارى في المعدّل الوسطي، قوّة الخمرة تجعلكَ على صواب، على حقّ، وتتضاعف ثقتكَ بنفسكَ، وتجرؤ على مناقشة أعقد الأفكار، فتصير أشدّ لطفاً وإخلاصاً، كلاً أكثر حقيقيّة، فتبدو محمّلاً بجاذبية وقوّة أخلاقية، حتّى شعور المواطنة لا يتخلّى عنكَ، ولا يسبّب لكَ الخطر، فتستطيع أن تكون شيخاً ورعاً وطفلاً بريئاً ومتسكّعاً فريداً. فالخمرة وطقوس تناوُلها تتطلّب الكثير من الفنون والذوق العالي والمزاج الراقي، وبالتأكيد من الخيال، فأعود وأتفاهم مع نفسي، وبالدرجة الأولى، فأستطيع الدخول إلى سريرة هذا الشارع وجميع أزقّة وبارات وحارات وملاهي أسواق ونوادي وحانات المدينة السّرّيّة والعلنية، وأبدو رقيقاً .. آه، هذه الكلمة كنتُ أبحث عنها وأنا أردّد قبل وصولي للبيت بثوانٍ:

أنا الخمرة، والخمرة أنا ..

"أدْخَلَنِي بَيْتَ خَمْرِهِ. أسْنِدُونِي بأقْرَاصٍ مِنَ الزَّبِيبِ. قَوُّونِي بالتُّفَّاحِ، فَقَدْ أسقَمَنِي الحُبُّ".

كنتُ أمرّ يوميّاً على أسوار كُلّيّة بغداد التي تحوّلت إلى أسمال هندسية، فقد سبق الاحتلال، وعلى مدى سنوات، وأنا ما زلتُ أنقّب مع فتحية على مَنْ تخرّج منها، واستلم دفّة الوزارات، وعلى أنواعها من عوائل عراقية معروفة، فوصل مع الغزو، واستلم الإدارات والحقائب، وإلى اليوم .. ما هذا، دكتور؟ كان أرشيف وصور الأنتلجنسيا العراقية المصطفاة من المهندسين والمعماريّيْن والفنّانين ورؤساء الوزارات السابقين والعلماء .. كلهم سكنوا شارع التانكي وما يجاوره، وصرنا كلنا نصوغ الجمل المركّبة، وندعو المصوّرين وكتّاب السيناريو ومنسّقي المناظر وفِرَقاً للإضاءة لتفكيك ذلك كله وهذا، فماذا نستخدم؟ وماذا ندع من فرقاء العمل وجماعات كذا وجمعيات كيت، وتجارب الرّوّاد، ولوحات المتمرّدين المعاصرين، وجمعيات اجتماعية وثقافية ..؟ فهذا الشارع لم يكن يوماً صغيراً أو متعصّباً، ولا استنكف عن قبول أيّ أحد. ومنذ العام 2006 و2007 كان قرع الطبول قد بدأ، وعمليات التطهير الطّائفيّ لمناطق المدينة، والنهب والسلب. الكهرباء قُطعت عن أحياء كثيرة، ومنها حَيُّنا، وأنا أحمل ولّاعتي وأركض في إحدى الليالي حتّى وصلتُ بيت صميم، وأنا أشبه الرجل الفارّ من مستشفى المجانين. رفضتُ الدخول، فظهر أمامي وهو يضع الروب فوق البيجاما:

اسمعْ صميم، لا أعرف إن كنتَ تُحبّ الشِّعْر العربي القديم؟ فأنا لا أردّد القصائد على أيّوب وأهل الجرداغ. أمام فتحية أقول هذا وأنا أمشي، وعلى مسامع عفاف التي لا يستهويها إلا بعض من شِعْر الجاهلية. اسمع، عيني صميم، بيتَ الشِّعْر ذاك الذي يُسمّى بيت الخذلان الكبير:

"يا ليت جور بني مروان دام لنا .. وليت حكم بني العباس في النار"

من الجائز أن فريق العمل الجديد المتكوّن من: صميم وطرب ومعاذ سيضيف عناوين حديثة لهذا المخطوط الذي نشتغل جميعاً عليه. فنحن اليوم في العام 2011، وفي آب / أغسطس 2010 "سحبتِ المارينز قوّاتها من العراق، وما حدث في الواقع هو إعادة تصنيف للاحتلال، وأُعيدَت تسمية الجنود المقاتلين الخمسين ألفاً الباقين قوّات "تقديم المشورة والمساعدة"، يساعدهم ألوف من المتعاقدين الأمنيّين المسلّحين الخاصّين".

والله، لا علم لي، دكتور، بما كتبت؟ هل هو صالح كما يشاء صميم الذي قال لي:

عليكَ بالمرور على أفراد العائلة جميعهم، على بيبي بوجه خاصّ. نعم، هي أميرة البيت المتوّجة، حتّى وأنا أفكّر بها فقط، أشعر أن الآلام تبدو بعيدة، كيف؟ لا أعرف ذلك. صميم قال كلاماً عجيباً:

ما دمتَ ستُدوِّن عن كل شيء، أعني أهل بيتكَ والشوارع، فإنكَ سوف تكتب عن الاحتلال وبطريقتكَ أنتَ .. لكنني تعبتُ، دكتور. أنا أتعب، وعندما أُصاب بالتعب، لا أعود أظهر بالمظهر اللاّئق، فاختار مكاناً وعاماً وشهراً لا يذكّرني بالمارينز. بقي صوتي ضعيفاً أمام بيبي، وأخي أيّوب في غرفته يتلو آيات من القرآن. صحيح أكملتُ كُلّيّة الحقوق بمعجزة، وفي البداية، لم أعمل في المحاماة، وإنما في البريد المركزي الكائن في الباب الشّرقيّ. أنا أُفضِّل تلك الحارات الضَّيِّقة المتعرِّجة، السواقي ذاتها في الوسط، المليئة بالوسخ وبقايا الشاي والطعام البائت،

والتي تأخذني للبيوت المتلاصقة بعضها ببعض، بشبابيكها المفتوحة، والمطلّة على الشوارع، فتظهر العمارات والمقاهي والمحلّات، والنساء بمناماتهنّ المنزلية، التي تفوح بروائح القلي لأنواع لا أعرف صفاتها وأسماءها في أغلب الأحيان. يخرجنَ ويقفنَ، وينشدنَ بعض المواويل والأغاني التي لم أسمعها من قبل، وما إن أمر بجوارهنّ، فأشاهد بعضهنّ، وهنّ يغمزنَ لي، أو ربمّا يخيّل لي ذلك بسبب حَوَل عيني، فأقترب أكثر، وأتفرّس جيّداً بإحداهنّ، وما إن تراني لصقاً بها حتّى تقوم بسحبي من ياقة قميصي، وتُغلق الباب ورائي. آه، يا عزيزي الحكيم، كبرتْ إضبارتي الجنسية ولذائذي المُربية والعجيبة، وأنا في كامل صحّتي. نعم، فبعدها أستغرق في نوم هادئ وعميق .. المضاجعة الرَّضيَّة يبتدعها الإنسان بجهده، فبعدها آكل بشهية منقطعة النظير، كما لو كنتُ آكل من أطباق مكّيّة اللذيذة. لم أكن أحتاج للكلام إلّا نادراً، فماذا أفعل بالكلمات والحوارات ..؟ و.. فقد بقي الإجهاد يصيبني في أيّة نوبة محادثة مع أيّ واحد من أفراد العائلة أو الموظّفين، فلا أجلس طويلاً في غرفة المعيشة، ولا أشاهد التلفزيون، وعلى سفرة الطعام، كنتُ أسبقهم للنهوض متخلّصاً من ورطة الأكل أمامهم، أمّا إذا تلاسنّا، أنا وبيبي كما هو حاصل دائماً، فكنتُ أتعثّر بأيّ شيء أمامي، وأنا أحاول القيام من أمام الكرسي. أدخل المطبخ ربمّا، وأبدأ أغسل بعض الأطباق، ثمّ أرميها على الأرض، وأمشي على عجلة في المجاز المعتم المؤدّي إلى الحديقة، وأنا أضع يَدَيّ وراء ظهري، فأرى فتحية جالسة كعادتها على كرسيّها الخاصّ، تسمع إذاعة بي بي سي. أُسرع في مشيتي كثيراً، وأريد الاختباء منها، نعم، كنتُ أشتهيها وأنا في ثيابي المهمَلَة النظيفة، وشَعْري الملوّن بالأبيض والرّماديّ، ومشيتي العجولة، وحذائي الذي لم أرَهُ مربوطاً كما

يجب يوماً، فأتعثّر به في بعض الأحيان، وأكاد أقع. أرى حالي ضعيفاً، وفي حاجة إلى مساعدة، نعم، هشّاً، وليس مثل أخي أيّوب .. ويوم أذهب إلى مقرّ عملي، وأصعد الحافلة الحمراء ذات الطابقَيْن، يُخيَّل إليّ، أن ناجية، آخر زوجاتي، تتعقّبني، كلّا، تتجسّد في كل موظّفة أراها تتمشّى أو طالعة من أحد القصور أو نازلة من عربة ذات ماركة أجنبية.

لسان بيبي ولسان المدينة

شاهدتُ أكداس الصفحات المبعثرة هنا وهناك، فاستهوتْني هذه الحالة، وأنا أستجيب لكم، فأكتب كلّما سنحت الفرصة لي. طرب تتّصل ولا تُلحّ، لكنها تضيف:

ها، يبدو أنكَ ما زلتَ تخفي أموراً، عمّو مختار. هو طبيب، ولن يتّهمنا بشيء. وصميم وصل إلى الجرداغ ليلاً، لكنه لم يعثر عليّ، فتلاقيْنا في منتصف الطريق. لم أرهُ يوماً مخموراً مثلي، لكنه كان يحبّ ثمالتي قائلاً:

تعجبني طريقة سُكْرِكَ، فمُخُّكَ يعمل بطريقة حياة تامّة، يا بختك بحالك، أستاذ مختار. هل مررت على أفراد العائلة جميعهم، كما وعدتك وصميم؟ ربّما سآخذكَ، دكتور، لبعض الضواحي في المدينة. للتّوّ اكتشفتُ أن كل واحد منّا يشبه جزءاً من المدينة، وبما أننا سننقل لكَ وبلغة ثالثة ما يضيع أوّلاً وخامساً في أثناء الترجمة، فبقيتُ أردّد بصورة جديدة وأناديكَ: أيّها الطبيب العزيز، هل ستقبل دعوتنا بعد كل الذي حصل للمدينة الكبيرة التّاريخيّة بغداد، التي كانت تثير الفضول كثيراً، وما نال عائلة أيّوب آل من نفي واختفاء واقتلاع واختطاف .. سيحضرون تباعاً، لكننا لا نقدر القيام بترجمة هذا كله ودفعة واحدة، ولا بمقدورنا اختراع غيرها وغيرهم، وتدوينها بلغة قديمة أو جديدة، ولا نعرف أحداً بعينه، لكي نلقي القبض عليه بجرم القضاء عليها وعلينا، فنقدّمه للمحاكم، فَمَنْ سيُصادق على مثل هذه أو تلك التفاهة التي أردّدها أمامكَ؟

وأنا، أنا المحامي على مَنْ أرفع قضية، دكتور؟ ضدّكَ؟ أم ضدّ رَدْهَات المستشفيات والغرف الانفرادية والحبوب التي جعلت ألياف دماغ ابنتنا تتآكل؟ أم ضدّ سيزان الذي لم تستلطفه عفاف وهو مؤلّه عندكم؟ فليكن، أم ضدّ أسماء الفنّانين الأوربيّيْن والنّحّاتين، المجدّدين، المعاصرين الرّوّاد والقدامى جميعهم ...؟ ظلّت تبحث عن الفروق فيما بينهم، كما بحثتْ عن الفروق بين مكّيّة وفتحية، بين أيّوب وبيني، وبين ذاك الخال الذي انتحر، وهي ما زالت طفلة وهلال أيضاً، وبين يونس وكيوم .. أنا لا أعرف هذه الأسرار، هل عرفتَها أنتَ في أحد الأيّام؟ طرب ذكرتْ ذلك خطفاً، لكنها بقيت ترسم بعض الفروقات بين الرجال جميعهم، فتضعهم بملامح مَمحوّة. وبما إن المرض لم يتركها على حالها، فظلّ يُلوِّح لها، فتضطرّ للوقوف والنظر جيّداً في وجوه المرضى، لكي تتقن الرسم، فعملت معارض عدّة من وحي المستشفيات والأدوية والممرّضات والثياب البيضاء وقنادر البلاستيك .. مَنْ نصدِّق، يا حكيم، الرسم؟ أم بيبي فاطم التي تحبّ أيّوب أكثر من مختار، وأنا أحبّ لقب - بيبي - أكثر من الوالدة؟ فكيف يُخطَف رجل في سنِّه، وندفع الفدية؟ نحوِّل بعض الوقفيات إلى دولارات .. لكنه لم يعد .. لم تصدق وحدها، ونحن كنّا نرى نهاية المدينة، كما هي نهاية أيّوب. قالت، وكان الاجتماع يوميّاً في بيت صميم:

لا. بلكي تزوّج على مكّيّة. ها، صميم، ابني، جاوبني، هذا مختار المطيور لا يعرف غير درب - الكلجية -. تقول كل شيء أمامي، ولا يرفّ لها جفن:

خلّي يروح، عيني صميم، لهناك، لا نقول لمكّيّة، شنو غير هي تفلة، بس أيّوب حتّى هذه بعد ما عنده حيلها .. أي زين خطفوه، وين الجثّة .. ابني؟ بعد ما أقدر على المشي والعصا هذه لا تنفع .. ها شوف جالسة على الحجار بالشارع وأنتظر .. بلكي ربّ العالمين يرحم بحالنا .. شرطة

الكريعات ما تعرف. زين ولدي إذا راح لدار الحقّ، وين الجثّة؟ بس خبّرني، صميم ابني، حتّى نصلّي عليها، وندفنها .. لا إله إلا الله .. أعوذ منكَ، يا لساني الزفر ..

دعني أُترجم لكَ ما قالته، فقد كان الكثير من المعارف موجوداً في الوقفيات التي كُتبت بالخطّ الكوفي والحبر الصّينيّ الثخين بكواغد سميكة، بهتت واصفرّ لونها وتمزّق بعضها، فوُضع داخل أكياس من البلاستيك، لكي تُحفظ من التلف. أخي أيّوب يعرف الطُّرُق التي تُكتب بها الوقفية ودرجة الثقة بمرجعياتها. وفتحية أيضاً كانت موضع ثقة أيّوب والجميع. ففي "الوقفية المؤرّخة 23 شوّال 1324 إشارة إلى زقاق الحاجّ عثمان من أزقّة محلّة "كوكنظر"، وفيها، أن هيبة خاتون بنت صالح أفندي .. وقفت دارها في الزقاق المذكور على ذرّيّته. وأشير إلى محلّة كوك نظر، بوصفها جزءاً من محلّة الميدان. هذه المحلّة كوكنظر، خفّف اسمها من اسم {كيورك مزرتيان} وهو من كبار رجال المدفعية في جيش السلطان مراد الرابع، تمكّن بما ناله من نفوذ عند السلطان، أن يقوم بإنشاء كنيسة لأبناء طائفته الأرمن في هذا الجزء من بغداد، فعرفت المنطقة به. ومن معالم هذه المحلّة ممّا تشير إليه الوقفيات، السقاية التي بدأتها نافعة بنت الباشا، جَدّة جَدّة بيبي فاطم، هي التي أوقفت السبيلخانة في محلّة كوكنظر، والتي أنشأتها نافعة لتأمين بذل الماء لأبناء السبيل وإرواء العطاشى "كما أنها أوقفت بستاناً وما يجاوره، حيث أوقفت داراً في شارع الصليخ الجوّانيّ، يحتوي على ثلاث غرف وشاهينشين {شناشيل} واحد، وطارمة، وثلاثة دكاكين". وحسب ما ذكر أخي أيّوب: كانت هناك ثلاثة منازل متلاصقة وطولة للحصن والحيوانات الداجنة وبعيدة عن الطريق العامّ كثيراً، أو لا وجود بعد لما يُسمّى بالطريق العامّ. فتحية هي التي أخبرتْني بتفاصيل كثيرة عبر ما تقرأ وتجمّع، فكانت تضيف قائلة: "الطابو

كان يحضّر الأملاك بالوَرَثَة لذرّيّة ذرّيّتها. أختكَ الكبرى زهرة راحت لدار حقّها، هي أكبر منكَ ومن أيّوب، ولا أحد يعرفها. وأختكَ أمّونة هي أيضاً لم أرها، لكنْ، سمعتُ أنها قضت تقريباً أكثر عمرها بمستشفى العزل. وهذه الوالدة بيبي، أوقفت نصف ثروتها لعمل الخير والإحسان.

أنشأت "علوة" تشبه السوق الكبير بسقفية لبيع محاصيل بساتينها والبساتين المجاورة. كما قامت وأوقفت عليكَ وعلى أيّوب بناء مسجد، وإتمام لوازمه في حَيّ راغبة خاتون .. أيّوب قال لبيبي عند خطبة مكّيّة: يمّه، هذه المنطقة تُذكِّر مكّيّة وأخواتها بالمرحوم. إي، ليش نسكن هنا والوقفية بها بيوت كثيرة أحسن بناء من هذا البيت، فهو عتيق، ويشبه الخرابة، ولازم نعيد بناءه من جديد، وهذا يحتاج إلى وقت وفلوس بين أيدينا، ليش تعاندين على السكن هنا؟ فكانت تجيبه بطريقة وكأنها تقرأ في كتاب، ولا أعرف أن لديها هذه المشاعر كلها: ما عرفت، يا أيّوب، يا قرّة عيني، آني وحدانيتي وقوتي هي الماي. آني أشبه موجات الماي. ابني، البشر موجات صاعدة نازلة. بس ربّك يعرف إذا صعدت وين تروح، وماذا تعمل بالناس، وإذا نزلت لا تبقي ولا تذر. مرتك وخواتها ما يكفي حزن على المرحوم. أي صار سنين لا تزوّجن وسنية ما كملت الكُلّيّة وهي شاطرة .. وأنا وأنتَ تلحّ، وهنّ عنيدات الله يسلّمهن.

عال دكتور، الآن لدينا كلمتان تعنيان بيوتاً خاصّة للدعارة، كانت كوكنظر كما شرحتُها لكَ قبل قليل، أمّا كلمة ومنطقة الكلجية، فتعني في أصلها ونعرِّف بها بهذا الاسم: "كله: رأس، وجي: أداة نسبة إلى حرفة، ووردت أخبارها في عهد الدولة المغولية الإيلخانية في العراق. وعقد الكلجية، بحسب قائمة محلّات بغداد لفيلكس جونز، التي أعدّت في منتصف القرن التاسع عشر للميلاد، من عقود محلّة كوك نظر، ويظهر أنها توسّعت في

المدّة اللّاحقة حتّى غدت محلّة قائمة بذاتها. وتكشف الوقفيات المتأخّرة عن الفئات الاجتماعية العالية التي كانت تسكن في هذه المحلّة في أواخر العصر العثماني، من ذلك خاتون بنت أحمد الساكنة في محلة الكله جية، وقد وقفت دارها على قراءة القرآن وأعمال برّ أخرى في وقفيتها التي تعود لأجداد أجداد توقّفت أسماؤها عند بعض الأعوام". بيبي كانت تُفضِّل مفردة القحاب، ربمّا أسهل على اللفظ، وقد تكون مرجعيتها الاجتماعية أدقّ، يعني كما هو حَيّ سانت دني في باريس الذي كانت تزوره عفاف كثيراً، وترسم نسوانه. بجانب هذا بيبي لم توافق على شرح طرب التي ظهرت أمامنا بالسروال والكنزة، وبيدها ما أطلقت عليه - آلة فتاح الفال - الموبيل. وهي تشرح لنا بصوت شديد الألم:

بيبي، أُزيلت تلك البيوت والحارات والنُّزُل منذ عقود، وتبدّلت أمكنتها، وانتقلت إلى أحياء راقية وجديدة من العاصمة، فإلى أين سنذهب معك، وخالة فتحية وأنا لا نعرف من أين نبدأ؟

فجأة، وبلا دموع، أزاحت عباءتها قليلاً، ووضعت سدارة أخي أيّوب السوداء في وجوهنا. رفعتها برأس العصا إلى أعلى، فسكتنا جميعاً. هكذا اختزل أخي بغطاء الرأس الذي أضاعه، أو سقط منه في الطريق. كان أخي شخصاً على حدة، لا يتبرّم، ولم يؤنّب أحداً منّا. لم يصبّ اللعنات على وَلَدَيْه قطّ، وهما يغيبان عن عَيْنَيْه، فيبلع ريقه ويشرب دوائيَ الضغط وداء السّكّريّ، وينظر إلينا بدون أمل، فنشعر جميعاً أنه محكوم بالأشغال الشَّاقَّة تنفيذاً لقصاص ربّانيّ. المرَّة الأولى حين فقد توأمَيْه، الثانية بعد هجرة هلال، ومنذ العام 1969، والثالثة بعد أن أخبره صميم: أن لا أخبار قطّ من فرنسا .. وعفاف .. وقبل أن يُكمِل قال همساً له:

عاد يمكن أحسن لها ولنا أن لا تعود، أي، أن لا تعود أبداً، وليش تعود؟.

طبوغرافيا الأسى

أيّوب يعرف كيف يرعى روح بغداد أكثر من الجلوس على المقهى والتّأمّل في القوانين والتشريعات والحيثيات والسهر والسُّكْر في الجرداغ. أنا أرصد ثمالتها وغيابها، وهو يقتفي آثارها في الماضي والحاضر. وها نحن، دكتور، تضمّنا المخطوطة هذه معاً. وها أنا لا أشعر وأنا أكتب إليكَ هذه الحيثيات جميعها التي لم أتوقّع أنني أمتلكها كلها، بأنني لستُ وحيداً، أتحصّن بالجميع الغائبين الموتى والمرضى الأحياء. والمدينة هي التي تعثر على المواليد الجدد الذين نراهم يوميّاً، أبدانهم طائفة فوق دجلة. أيّوب لم يتذكّر المدينة يوماً كما أكتبها لكَ الآن، دكتور، فهو ليس لديه سواها. كان يسمع نبضها، ويستيقظ على صمتها، ويحبّ لمسها في الفجر، فيذهب إلى الكورنيش، ويطلّ على النهر، لكي يفتتح يومه، ويأخذ حظّه منها. يعرف صورها الثابتة والمتغيّرة، أوصافها، ومن ألفها، وكيف يتمّ تفكيكها، رأسها وكعبها، وجهها وقفاها. ركبها وأفخاذ عوائلها وعشائرها، أَنَفَتها وحشمتها وأسرارها. شبابها ورتب وظائفها واحتضارها الطويل، فتختلط عليه صورهم وصور المدينة، هو وإيّاها، زمانهما ومشيتهما، شبابهما وشيخوختهما، فكان يتقلّب بين أحداثها منذ وصولهم شارع التانكي وملاقاتهم الفاذرية وطردهم الأوّل في العام 1969 إلى أن حضر الفاذرية الجدد، فوضع وجهه إلى الحائط، ولم يقدر على النظر إلى وجه أيّ أحد في شارع التانكي أو غيره من شوارعها. كانت كواغد القرون المتأخّرة وعلى ضوء الوقفيات والحجج الشّرعيّة المحفوظة في أرشيف وزارة الأوقاف، هي التي يستوعبها ويعيدها

يوميًّاً كنوع من المسلّمات، فيُعدِّد بلغة عربية سليمة وفصيحة وبليغة، مواقع حمّامات السوق والمساجد والمدارس والأسواق والخانات والعلاوي والمقاهي والأسوار والحصون والثكنات والسرايات والمنشآت العسكرية والبساتين والمراقد المقدّسة والقصور والمحلّات والقصبات والأبراج والقلاع والخنادق. وكان إذا سُئل عن: حركية الحياة الاجتماعية في هذه المدينة بغداد، يستطيع أن يمسك الفرجال والمسطرة وقلم الكوبيا الذي يضعه وراء أُذُنه، ويرسم خرائط وأسماء وأعلام بغداد، ويضع معلومات حقب تتجاوز القرون، لكنه كان يتجاشى الظهور بمظاهر الأفندية المتغطرسين الثرثارين، فبقي يرتدي العباية الوبر بلونها التّرابيّ، وتحتها الصاية واللباس الخام الطويل والجورب الطويل صيفاً وشتاء، فيظهر بكل هيبته ووقاره أمامنا جميعاً. لم أعمل منه شخصية روائية، كما يشاء صميم، فهو مركز الشَّخصيَّات، دكتور، لكنه كان صموتاً، لا يُفضِّل الثرثرة، ومتى ما احتجْنا إليه كان حاضراً. تقلّب بين أحداث عنيفة وإفلاسات شديدة ومصاعب قلّ نظيرها، لكنه كان يخرج منها، ويقوم بإعادة ترتيب الوقفيات لعائلة زوجته الآتية من الجنوب. فبعد وفاة والد الآنسات الثلاث: مكّيّة وفتحية وسنية، انتقلت تلك الذّرّيّة إلى الأعظمية قريباً من خال الأُمّ / الجَدّة. وعند وفاتها، انتظرنَ الوَرَثَة توزيع التركة على الوارثات الثلاث. حكايات شتّى لا نستطيع وضعها بدلاً عن هذه. فالسّيّد أيّوب آل، أخي، الموظّف المهذّب الرصين الثّلاثينيّ الأعزب، هو الذي كان جالساً في تلك الغرفة الصغيرة التي تشبه الفرن، في دائرة الطابو وراء المقبرة الملكية، والكائنة على شطّ دجلة. وبين أكداس المجلّدات والوثائق والسجلّات والصور الباهتة والكالحة الصفراء، كان السجلّ مفتوحاً وهو ينادي على الاسم هكذا:

فتحية محمّد الفضل وينها؟

نعم، حاضرة، سيّد.

مكّيّة محمّد الفضل ..؟

لم يتقدّم أحد. فعاد النداء ثانية، فردّت فتحية أيضاً:

أنا حاضرة بدلاً عنها وعن سنية أختي، سيّدي.

لا، الجميع يحضر أمامي غداً.

كما توضّحت الأحداث فيما بعد، صارت مكّيّة من نصيب أيّوب، وها هي تحضر وتفرض نفسها كشخصية، أنا أسمّيها حقوقية، ويمكن صميم يسمّيها فنّيَّة أو ما شابه ذلك، فهو يُغرم بطبخها، وهي الآن تجذبنا من فرشنا وأسِرّتنا ونومنا، فتقدر أن تهزّنا جميعاً كما تشاء، وهي تمسك بأنواع الطهي جميعها، فتدفع خيالنا إلى الأقصى من القصّة، يا دكتور. بكل أسف لن أقدر على دعوتكَ إلى بيتنا، لكي تذوق الزاد والنَّفَس الطّيّب لمكّيّة. فقد كانت منذ البدء امرأة بطيئة الحركة، ولا تستطيع الوقوف على قَدَمَيْها الغليظَتَيْن ولحمها المكتنز في الفخذَيْن والبطن والسَّاقَيْن. فكانت تسحب نَفْسَها سَحْباً إلى المطبخ. وما إن تكون في تلك البقعة حتّى يتحوّل الإلهام بها وبطبخها بطريقة لا تخطر على البال. أيّوب صنع لها كرسيَّاً منخفضاً وطاولة بالقياس ذاته، ووضع بجوارها عصا صقيلة للطوارئ. رتّبوا لها كل شيء، ليكون في متناول يدها ؛ أنواع من الأطايب في علب من الزجاج المصفوف، وفي حجوم واحدة من القَرَنْفُل والزَّعْفَرَان، الدَّارسِين والفلفل بأنواعه جميعها الحارّ والبارد، الأبيض والأسود والأحمر، الكركم والكمُّون المطحون حديثاً، والذي تعطّ رائحته في أرجاء الممرّات وصولاً إلى الطارمة حالما نصل البيت، فنبدأ بالعطاس ما إن نمرّ عليها. هذه السّيّدة كانت تتخيّل أطباقاً لا مثيل لها، ولم يطلبها أحد، ومن الجائز أشخاص ملوك، أو قادة يحضرون بعربات تجرّها الخيول، وتقف بالباب، هي تدور حول ما

تنوي من طهي تقوم على إعداده، ونحن ندور وراءها وحولها، فتضع تلك الأطباق أمامنا في أحد الأيّام على الطاولة، وبأسماء من اختراعها. هل تريد الصدق، دكتور؟ كنتُ أتمنّى لو كان بمقدوري مجرّد لمس جِلْدها البضّ، أعني ملمس كفّها ذات الطّيّات، وفي أصابعها أنواع من الخواتم، وفي زندها أساور وحلي وأفاع برؤوس مغروسة بالأحجار الكريمة، ومن داخل أظافرها، كانت تستقرّ بعض البهارات، فتبدو صفراء على حمراء، فكان هذا يثيرني جدَّاً .. كنتُ أتمنّى لو كان بمقدوري حضنها، كما تفعل عفاف وهلال، لكي أتشمشم ريحتها الغارقة بالأرزّ الأصفر والأحمر، أو البرغل بالشَّعْرِيَّة الذي كانت تدفع الجميع بعيداً عن الطناجر، وأنا واقف في حلق المطبخ وهي تصدّنا بلطف مازحة:

كل شيء يُطبَخ على نار هادئة، لا نشبع منه. ها عيني، شوية صبر. كانت صبورة وهادئة وراضية وهي تحبس الشكوى من نكد بيبي فاطم، أُمّي التي تحبّها، وتحبّ الجميع، لكنْ، تلك كانت طباعها العصبية. كانت غددي تتنمّل وأنا أشقّ طريقي للمطبخ عندما أعود ظهراً، أو حين أودّ الخروخ عصراً، فيلفحنا هواء طهيها وهي تقوم بتعديل أهرامات التوابل التي يجلبها أيّوب، لكي تسدّ نواقص العلب التي فرغتْ، وعندما لا يكون الطعام جاهزاً بعد، أتوجّه خارجاً إلى الحديقة. أمشي واضعاً يَدَيّ وراء ظهري، فيتراكم الجوع والكلام والنظر وأنا أبصر فتحية في الغرفة الزّجاجيّة وهي تُصغي لإذاعة بي بي سي. لا أخاطبها ولا أطيل النظر إليها، ولا أرى ما حولي جيّداً، أودّ الخروج حالاً، وكأن أحداً يقوم بمناداتي، فأُسرع في مشيتي، فما علي إلّا أن أُلبّي النداء.

أهو دي اللي صار

حضرت عفاف، دكتور، وأنا في طريقي للجرداغ، وصوتها يهبط عليّ في تلك البرّيّة ما بين البيت والطريق للجرداغ. هل يعقل، ولفرط الشوق لها، كانت تتركني التأتأة ولو لثوانٍ وأنا أردّد وراءها صوت سيّد درويش:

"أهو دي اللي صار. وادي اللي كان
مالكيش حقّ تلوم عليّ
تلوم عليّ إزّاي، يا سيدنا
وخير بلادنا موش بإيدنا
قلي عن أشياء تفيدنا
وبعدها تلوم عليّ"

صفقتُ كفًا بكفّ وأنا أسمع صوتي، وأعيد المقطع مَرَّة وراء مَرَّة، وأصيح:

آه، يا مختار أفندي، لو تسمعك عفاف خاتون لضمّتك لفرقتها وتختها، فَمَنْ يدري؟ أقول، قد تُفضِّل أن ندعوكَ إلى زيارة الجرداغ، دكتور، فهو يعادل الشاليه عندكم. كان موجوداً وموزّعاً على ضفاف دجلة في حَيّ السفينة أكثر من كعب شارع التانكي وكورنيش الصليخ، ربمّا لأنه هناك كان مُسوَّراً بأشجار كثيفة قبل الوصول إليه، وهنا تصله في الحال، فالأرض من حوله ما زالت خالية. نعم، هو عموماً، مخصّص للرجال، لسِحْر الأطايب

والخمرة، العَرَق العراقي بالذات، واللحوم المشوية والمازات على أنواعها، ولحاشية من الغجريات المتّقدات بالفتنة، وفي آخر الليل، يبدأ الرقص والغناء. آه، هو مكان ملجأ يصله البعض من العسكريّيْن والمخبرين والوزراء السابقين، من الشرطة ورؤساء المؤسّسات العامة، على الخصوص حين يكون القمر بدراً. وهو مكاني شبه الوحيد الذي أعيش فيه من أجل ليلي، فأبدو مرفوع الرأس وأنا أسكر، ونحن جميعاً، أصدقاء الليل والوحدة، فيطلقون أصواتهم بالغناء والصراخ، فبعضنا أصحاب صوت نشاز، والبعض يقول: لو كان بيدي أن أشاهد صوتي، أسحبه من جوفي، وأطلق هتافاً، وليس غناء .. نعم، دكتور، كلنا نمدّ أيدينا وألسنتنا للسياسة، ونريد الخوض بها، على الخصوص في تلك الأماكن البعيدة عن الأنظار، وكلنا ننتهي بالشجار والشتائم من العيار الثقيل، ولا ندري على مَنْ؟ ولمَ؟ نلتقي يومَي الخميس والجمعة من كل أسبوع، وفي الأيّام العادية، يظلّ خالياً ومغلقاً، فيقوم على نظافته وحراسته الحارس الأمين، الذي سبق أن قام ابنه الملتحي بتفتيشي قبل فترة. هندسيّاً نقوم بتشييده "من حصير البردي والقصب أسوة ببناء الأهوار العراقية، مع هيكل من جذوع {القوغ} مسقوف. وكنّا نشاهد بجواره مساحات واسعة من نبات الليف سريع النّموّ، والذي يكون على شكل الحرف الإنكليزي.U، وهو بناء مفتوح على الشّطّ فقط كنوع من الحشمة، ويشبه اعتياديّاً قد شيد {للفستوكيات}، بالتأكيد سوف تبتسم، دكتور، وأنتَ تقرأ الكلمة الأخيرة، فلا ترجمة لها، فتصوّرها سومرية أو بابلية من بلاد ما بين النهرَيْن، فأولئك القوم كانوا يشرفون على الدنيا من بابيَ الحرب والحبّ .. وها أنا أنطق الكلمة إيّاها، فهي تحمل شحنة من الفسق والفنتازيا .. ولمّا ذكرتُها أمام صميم، ضحكنا طويلاً، على الخصوص ونحن نتذكّر الوالدة وهي تجري ورائي، تعيّرني وتوبّخني على ذهابي للجرداغ. يومها ذكر عرضاً صميم اسم افتخار. لم ينجُ

أحد من الاستسلام والتّلذّذ بما تمثّله لنا جميعاً، للنساء والرجال معاً. أنا شخصيّاً لم أرها، فلها رجال من الحرس، وإضاءة خانسة في مدخل قصرها في آخر شارع التانكي، في البقعة التي ليس وراءها أيّ بناء. فلا نعرف مَنْ كان ينتظر دوره، ومَنْ يوفّر لها النفوذ والمجوهرات. وفي إحدى الليالي تسرّبت للشارع والحَيّ ولباقي القصور قصص انتشرت بصورة صاعقة، أنها قُتلت، أو تزوّجت، أو انتقلت إلى حَيّ آخر .. أو .. أو .. كانت هناك بعض أعمال من العنف والاضطرابات .. أنا لم أرَ أيّ شيء .. الشائعات تُعزِّز الشهية كثيراً، ودكتور، هذه مجرّد حكايات من شارع التانكي، أنا فعلت ما طلبه منّي معاذ وصميم وطرب، كم هي القصص قديمة، وتستطيع أن تصمد أمامكَ! أو هي ركيكة! فغيري سوف يعاود المحاولة .. فأنا على استعداد أن أردّد اسم عفاف أمامكَ، وأظلّ أسألكَ:

دكتور، أين اختفت عفاف؟

متى ستعود عفاف؟

هل هناك أيّ أمل بعودتها؟

فتحية، جزاها الله خيراً، هي التي كانت تنقل لي أخبار الحرب، فسألتُها أيّ حرب، فكانت تصمت، ولا تجيب. لستُ أدري كيف تدبّر الحرب أمرها عندنا؟ ولا أعلم ما إذا كان الله قد اعتبرها أمراً لائقاً بنا؟ أعني، قد تكون هي الأمر الوحيد الذي يلائمنا من دون باقي المهن. فالأرض منبسطة جدّاً، والغارات والراجمات تصل مثل التّأوّهات التي كنّا نطلقها نحن أصحاب البيت. أنا، يا عزيزي الدكتور، وصلتُ تقريباً لختام هذا الخطاب، وما زلتُ مصرّاً، إنني أخاف من الكلام والمحادثة، فالحديث يسبّب ضيقاً في التّنفّس. أُمّي وحدها تعرف كيف تغذّي ضعفي وهشاشتي. أي صحيح،

لا أستطيع التواصل مع النسوان، على الخصوص. وصحيح أشتهي النساء جميعهنّ، فتحية ومكّيّة وسنية والنساء في الحافلات والشوارع، مفرّعات أو يلبسنَ العباءات. فتحية أكثر امرأة اشتهيتها، لكنها كانت أقوى منّي، لا أعرف كيف، ربّما هي ليست في حاجة إليّ، فتركتُها، وتابعتُ طريقي. سنية عاشت تجارب مستعصية وسرِّيَّة، بعضنا يسمّيها شرَّاً محظوراً في القضاء والقانون .. قصّتها يعرفها صميم أفضل منّي وأخي أيّوب. تريد الصدق، دكتور؟ أنا أحبّ العاهرات، فهنّ لا يبحنَ بالأسرار، ولا يُحرّمنَ أي شيء، ولسنَ ذوات مزاج متقلّب .. في أيّ وقت تجلبهنّ يبدينَ متساهلات، فلا يتبادلنَ الكلام، ولا يُسبِّبنَ الصداع، فأراهنَّ على شاكلتي، بل أحسن منّي، فأنا أُونون وأشتكي وأئنّ وأتوجّع .. لأنني أخاف .. معاذ يراني أكرع الكأس بسرعة، وهذا صحيح، هكذا أريد أن يخلص القدح، لكي أبدأ بالثاني والرابع، لكي تخلص الساعة واليوم والأسبوع والعام .. دكتور، لماذا تختفي عفاف وأيّوب؟ ها، لا أحد يجيبني .. هل فكّروا بالبطولة مثلاً؟ أنا لا أحبّ الأبطال، دكتور، فهم يموتون بسرعة .. هل تعتقد وحسب رأيكَ أن أخي أيّوب اختُطف، فصار بطلاً؟ وعفاف غيابها لا يعجبني .. وأنا تعبتُ من الكتابة إليكَ، فهذا الأمر يدفع بي إلى الغلط، أو اختلاق أشياء لا وجود لها .. هذه كلها أمور تافهة، نكرّرها مراراً، وبدون أيّ تسلسل في المشاهد والأمكنة، فقد يكمن هنا سِحْر الدماغ البشري، دكتور، جلب الأزمنة جميعها، وتشابك المستقبل بالماضي وغموض الحاضر برمّته. ما هذه التفاهة التي أتخبّط بها؟ سأقول لك الحقّ، أنا في التفاهة أقابل نفسي، وأضعها أمامي على الطاولة، فأراها الأكثر دسماً، فهي تُغني عن وجبات كثيرة، وفي الأصل، وجدت التفاهة لفتح الشهية في المقام الأوّل على كل ما يتمنّاه المرء لنفسه. خذْ عندكَ مثلاً، أستطيع أن أُميّز رائحة التافه من على مسافة سنة، فأختاره بغريزة الصّيّاد التافه. إن ما يُسمّى بالأمد الطويل

يُرعبُني، دكتور، ومثل هذه العلاقات تكون مُفرَّغة، ولا تُشكِّل خطراً، ولسنا في حاجة ماسّة لأحد يُربِّت على أكتافنا. عفاف، من الجائز لم توافق على علاجكم، ليس أنتَ، فكما أخبرتْني طرب وصميم أنتَ الوحيد الذي كانت تبثّه أسرارها الحميمة. كانت ترفض تذكُّرنا جميعاً، نحن والبلد والتفاهة كلها، فبقيتْ كما هلال تُقلِّب شَفَتَيْهَا في تلك الحركة التي لا أعرف نعتاً لها. وها أنا أدندن ببعض الأغاني المفضَّلة لها، وأفتح غرفتي إلى آخرها، فلا أسمع سعالاً، لا من مكّيّة ولا فتحية، فكل واحدة منهما لم تعد تتودّد، ليس لي، ولكنْ، للأخرى. كيف تختفي اللغة، فلا نميل للاعتراض على أيّ واحد منّا إلا بالتجاهل الهادي الذي يرسّخ فكرة انتفاء المبادرات كشركاء في مكان واحد؟ لم أدرك إلاّ للتّوّ، أن المحادثة نوع من الحبّ، أو الوقوع في الحبّ، حتّى المشاجرات بيني وبين بيبي كانت أعلى مراحل المحبّة بين اثنَيْن، وإذا ما توقّف الكلام بيننا كبالغين ومُسنِّين جدّاً، فهذا هو الدافع الوحيد للموت. وأنا، يا عزيزي الدكتور، لا أريد أن أموت، فالأمر مختلف لي من حيث المبدأ، فوجودي وحده هو انتقامي الضعيف من المارينز، وهذا أمر مضحك، لكنه حقيقي، علينا البقاء كما نحن، وفي الأماكن ذاتها في المقام الأوّل، وهذا يكفي. نعود للخمرة التي أراها الأنثى الوحيدة التي بقيت تقدّم لي غنجها المختلط بدعوة مبيّتة للبقاء على قيد الحياة، فهي السائل الذي يشبعني بعدما توقّفت خصوبتي، فبدأت بنشر سوائلي على حبال لا تُرى بالعين، وأنا أقوم بارتداء ثياب مضحكة وطريفة، ولا تليق بعمري. تُرى، ما هو الشيء الملهَم الذي يليق بأعمارنا، دكتور، ونحن نعيش في ... طز بالرَّقْم الذي لولاي لصار صفراً، فَمَنْ يتذكّر سنّي وسنّ غيري؟ وعليه، غيّرتُ رأيي، وسوف أترك سحّاب سروالي مفتوحاً، كما في الأيّام الخوالي. اليوم عن عمد وتصميم .. هكذا، فلديّ الوقت والأسباب، لكي يغادر عضوي المكرمش مصنعه الفارغ، كما غادرتنا عفاف وهلال، كما

غادر أيّوب وباقي الأهل والأولاد والبنات والجيران والمُدُن وباقي السّكّان، والمحفّزات الجنسية كلها التي توقّفت عن شغلها معي. غريب، يادكتور، واحمد الله أنكَ رجلاً، ولست الطبيبة المغربية مليكة إدريس، لكنتَ تأتأتَ أمامها كثيراً. فلماذا لا يغادرني عضوي، وهو لم يلتقِ بامرأة تحبّه وترعاه وتداعبه كما يجب، فما عليّ والحالة هذه إلا أن أقوم بالشغل بدلاً عنهنّ. أقسم أمامكَ، يا دكتور، نحن نحتاج وأعضاؤنا كذلك، مَنْ يُزيِّتنا جيّداً، أي نعم، صميم ومعاذ ويونس .. هل ذكرتُ أمامكَ اسمه؟ المشكلة أنه ليس تافهاً، ولذلك لم نتفاهم جيّداً. بالطبع صميم، لديه بعض التفاهة في مكان ما، ربمّا، لا أعرف بالضبط .. غافلت الجميع، دكتور، وزرت المكعّب، لكي أشاهد مدى التحضيرات اللّازمة لاستقبالكَ. بالطبع، قام الفاذرية الجدد بالواجب. هذا اللقب الجديد للمارينز، أحبّته طرب كثيراً، فصارت تقول هذا من اختراعي، ألم ترَ مبلغ التفاهة التي وصلنا إليها؟ قام هؤلاء بسلب العديد من اللوحات، وتخريب الـ - البقجة - التي كانت مزهِرة بأنواع لا نظير لها من الزهور، فتحوّلت إلى حطام. نعم، دكتور، كانت الحياة الجديدة تفتح الستارة عنهم وعنّا، وعلى الأرجح، الأستاذ معاذ الألوسي، كتابه التالي عن طبوغرافيا الليل والنهار التي مرّت على المكعّب هو قيد الطباعة أو النشر، لا أعلم .. وهذا لا نقول عنه حسن الختام .. فالحيثيات موجودة فقط في القنّينة التي لم يبقَ منها إلا بضع قطرات .. وأنا تعبتُ كثيراً .. والله، أستحي منكَ، دكتور، فلم يبقَ في القنّينة إلا بضع قطرات، فلا يجوز أن أشربها إلاّ في نخب بغداد الفاسقة التي لم تجفّ خمرتها منذ بني مروان حتّى بني العبّاس ..

الفصل الرابع
هلال أيّوب آل

ماكيت الغائب

قبل بدء الكتابة إليكَ، دكتور، أودّ التبليغ عن غائبَيْن اثنَيْن، لا أستطيع إلّا البدء به قبل أختي عفاف. خالي سامي، الغائب الأكبر. وضعته تحت عنوان -: ماكيت الغائب - ففي "الإشباع الذي يحسّ به المرء وهو يتأمّل جثّة ميت شيء مهدّئ وممتع. فالحَيّ الذي يشاهد ميتاً يحسّ بأنه متفوّق، وهذا صحيح، لأنه فعلاً متفوّق". كلّما أنصح حالي بتغيير هذا الترتيب سَرْدِيَّاً، كأن أبدأ بـ عزيزي الدكتور فالينو، كما تقتضي الشياكة الفرنسية أعود إلى الحكاية وأواصل، فعليّ أن أشارك في موكب العزاء والتّأمّل بالقصّة لعشرات من السنين، هل كان ذاك الذي حصل هو القتل؟ أم الانتحار؟ فذلك الغائب كان أكثر رسوخاً وإقامة في ذلك البيت، وفي عقول أصحابه من النساء، وتحديداً، هو الأكثر حياة منّا ومنهنّ مجتمعات، فلا أنا ولا عفاف نعرف سيرته الذاتية، كما يقال، وبالتأكيد هو أكثر أهمّيّة منّي ومن أختي، بل أكثر استمرارية من مواطني هذا الحَيّ، بل هو دائم، أو خالد مثل ذلك النهر وهو يتجلّى لنا ولا يتلاشى، ولنساء البيت، كان يشكّل واقعهنّ، أو يُكملنَ حياتهنّ معه، ومن دون أيّة غضاضة، على أن لا تضطرّ إحداهنّ التّفوّه بالقصّة أمامنا أنا وعفاف. بَغْتَةً كنّا نرى الدموع بعد الضحك المكتوم تُبلِّل خدَّ وعنق إحداهنّ، وهنّ في مواجهة بعضهنّ بعضاً، ودون كلام. فنستغرب ونصمت، أو ندخل معهنّ في نوبة بكاء عمومي، لا نعرف أسبابه، فالسرور يعدي، وعكسه أيضاً. بدت لي دموعنا الصامتة نوعاً من الرفعة، ربمّا، ثمّة هناك مرض على مبعدة نصف متر من الطفولة،

ومستمرّ إلى الشباب، وها هو يتعرّف علينا بطريقة أو أخرى، وبالوكالة عن الميتين جميعهم، فتصبح ارتباطاته هي الأقوى. هكذا أعددتُ نفسي لتقبُّل فكرة ذلك الرجل وهو محاط بأولئك النسوة كلهنّ، فهنّ في الغالب لا يُنكرنَ اسمه، فهو يملك أسماء الغائبين والحاضرين، فيردّدن دائماً:

أي هو .. ويسكتنَ.

وللأمانة، هم لا يتهرّبون من بقية الأجزاء من القصّة، لكنهم لا يجيبون بلا أو نعم. وهذا الأمر بلا شكّ يدع الذهن شارداً، ولا يتوقّف عن التفكير المضطرب. مَنْ هو؟ أريد أن أراه الآن، اليوم، هذه الساعة. أحدس أنه موجود وهو يجلس في غرف الخالَتَيْن وبين خصلات شعورهنّ، ويتجوّل ليلاً في أرجاء البيت وصولاً إلى غرفة الوالدَيْن، لكي يطلّ على وجه أُمّي. هنّ الثلاثة يلقينَ عليه نظرات شديدة الدّقّة، ويتواصلنَ معه، كأنه غاب البارحة، على أن لا يقع أيّ أحد غريب في هواه بعد اليوم. فقد سخر منّا بعدما أنجز عمله على أتمّ وجه.

لا يعرّفنَ به ولا يضفنَ كلمة خالي. بدون اتّفاق، ومن أهل البيت جميعهم: بيبي فاطم، وفي بعض الأوقات، ينشط معها عمّي مختار، وبدون ضجّة، ينقلون القصص عنه بسلامة نِيّة، وهم يردّدون صدى الأصوات التي تسمع كل يوم في المنام والاستيقاظ، فتسيل الدموع بصمت عجيب، وأنا الشاطر في الرياضيات مثل عفاف لم نستطع التأكّد من حساب أعدادها من كل عين. فلا تتهرّب أيّة واحدة من سكّان البيت عن ذلك أبداً. تُقفل عليه الأبواب، أو يترك بعضها مواراً، أو تقدّم له السيجارة الأولى، أو كأس خمرة، فيمتلئ جوّ البيت برائحة المستكي. كنتُ أرى الجميع سكارى وخالي تحوّل إلى شخصية يصرفون عليها المبالغ الكبيرة، فيتصرّف بالوقت والمال معاً، وتبدأ ألغاز شخصيته تزداد خطراً وحبكات روايته تتضاعف

إثارة، وبقي السؤال على الأقلّ بالنسبة إليّ: لماذا يعملنَ لحساب ذلك الغائب، ويمكثنَ طويلاً عنده، فيطول الصمت في حشمة وأَنَفَة، ولا يقدرنَ على تبادُل الحديث. حتّى بيبي الثرثارة كانت تُدمدم وتعوفنا وحدنا، وتفرّ إلى الحديقة الجوَّانيَّة. نساء البيت كلّ واحدة منهنّ تبتكر طريقة في إخفاء شكل الخال. اللحم والعظام، التقاطيع والسحنة، الطول والارتفاع. هل هو جميل كخالتي سنية؟ أم جذَّاب كفتحية؟ هل كان غليظاً مثل أُمّي مكّيّة؟ أم نحيلاً مثلي؟ أم كان يتأرجح على الميزان مثل عفاف؟ عندما ندخل فجأة أنا أو عفاف على إحدى الخالتَيْن ألحظ أن هناك مَنْ تقوم بإزاحته بعيداً عنّي وعن عفاف، لكي لا نقاسمهنّ الحبّ، أو ربمّا لكي لا نشغلهنّ عنه، كأنني أقطع عليهنّ الحديث، فيعدنَ بالرغم منهنّ إلى هذا البيت والغرف والشوارع والكورنيش والشراشف والثياب والأخبار والسخافات والتبغ والخمرة، ولكنْ، بصورة طائشة. من هنا، وكل واحدة تروي قصة الخال، وتريد سحبها من بلعومها، لكي تستطيع التّنفّس الصحيح. الصوت يأتي من جنبات وحديقة كُلّيّتي، كُلّيّة بغداد إيّاها .. فكنتُ أصطدم بوجه وجسد وتصرّفات خالي عندما أشاهد ملامحي وتصرّفاتي وطول قامتي، حتّى لو لم يتركو لنا صورة شمسية واحدة له. كنّا نحدس أنا وعفاف ونحن الذين عشنا زمناً طويلاً مع الغائب: لا يجوز أن نُفسد ملامحه وهو يمرّ بين أهداب وعيون خالتي وأُمّي، فكل واحدة منهنّ كانت تسوقه إليها، وتقفز إلى عناقه. أظنّ عفاف كانت أسرعنا إليه وهي تنفّذ التعليمات بطريقتها الخاصّة، فتجمع قواها، وتقوم برسم قسمات وجهه الذي لا تعرفه، ولا تتذكّره قطّ مثلي، فقد قامت بتخزين عيّنات من العيون والأنوف والحواجب والشفاه والآذان. وكدّست حفنة من الابتسامات والكآبات والضجر والأسى. عفاف تملك الوسائل جميعها أفضل منّا جميعاً، فقد ظلّت تخاطبه وتُحدِّق في عَيْنَيْه، وتندفع في عناقه، وتضغط على ضلوعه وثيابه الخفيفة؛

الفانيلا واللباس القطني اللَّذَيْن وصل بهما إلينا، وهو محمول على الأكفّ. كانت تضع شارباً خفيفاً على مُحيّاه، لكي تجعل سنّه أكبر قليلاً. وكانت تخاطبه مَرَّة بضمير المخاطب، وأكثر الأحيان بـ الغائب، وهذا كان الأشدّ إيلاماً عليّ وعليها معاً، فكل واحد منّا كان يردّد ونحن نرى التصاوير: إن لديه إضافة ما في المظهر أو لون البشرة أو شكل العين، لكن أبي قال كلمة صاعقة، لم نتوقّعها شخصيّاً، بعدما شاهد بعض اللوحات بالمصادفة:

كانت عيناه زرقاوَيْن، كما عينَي جدّتك لأُمّك. لم تأخذ أيّة واحدة من الخالات ولا الوالدة ذلك اللون. وعندما وُلد التوأم، كانت عيناهما زرقاء وعسلية.

كان خالي يبسط جناحَيْه علينا جميعاً، وكان الحبّ يتبعنا واحداً بعد الآخر. أمّا الموت، فلم يُغيّر عاداته. في إحدى المرّات، زلّ لسان فتحية، ونحن في شارع التانكي، فقالت:

أي عيني، هو قَدَر غاشم، حصل منذ سنين، كأنه وقع بالأمس.

كانت عفاف أكثرنا تعباً ظاهراً من غيابه، فتقوم بدفعه في عبّها، فأرى صدرها يتضخّم وهي تضع يدها عليه، لكي تغطّيه دافعة بموته عميقاً، لكي لا يزعج الناظرين إليها، فصارت تقول: أنا هو؛ "إن المحبّة بحاجة إلى موت". كنّا جميعاً لدينا حواجز في تعريف القدر الغاشم، فلا نعرف هل سنقدر على كسر حاجز القدر ذاك، إذا قلنا كلاماً عربيّاً فصيحاً؟ أم إذا ذكرته بيبي بالعامّيّة؟ وبهذه الصورة كان شديد الدّقّة:

إي، الله وأكبر، أي شلون شنق نفسه وهو بعده جِلْد على عظم. مَنْ شدّ الحبل؟ ومَنْ دفعه في الهواء؟ زين من أين جلب الحبل؟ وشلون صعد للنخلة العالية؟ ياربّ العالمين. ولد بعد شواربه، يا دوب خطت

على شفته، والله، ما أدري كمل السبعتشر سنة، لو أقلّ. شلون صخى بروحه؟ اللهمّ لا اعتراض على حكمك، يا أرحم الراحمين ..

حملته عربة الشرطة من كُلّيّة بغداد إلى حيث نسكن في الطرف الآخر من الأعظمية، وكانت المسافة بعيدة بين الموقعَيْن. ظهر أمامنا، دكتور، محمولاً على الأكتاف من قبَل رجال أشدّاء، يرتدون ثياب البوليس والبعض يرتدي الدشاديش، وهم يقولون بصوت واحد:

خالة، وين نخلي ابنكم؟

لم يعرفه أيّ واحد في البيت. اعتقد الجميع أنه أحد المارّة بلا مأوى، فشاهدوا باب حوشنا مفتوحاً، فدخل الجميع وهو معهم. وضع على الأريكية الموجودة في صدر غرفة المعيشة. مدّدوه، ووضعوا الذّراعَيْن بجنبه. كانت الغرفة التي نقضي فيها جميع الأُمسيَّات حارّة، فالوقت كان تشرين الأوّل والشبابيك مفتوحة إلى آخرها، فالهواء في تلك الأوقات كان يصلنا من النهر، ويحرّك الستائر، توقّف. لم نعثر على ذرّة واحدة منه في الحجرة. أخذ النائم أمامنا الهواء دوننا، فبدأت خصلات شَعْره الكستنائي الناعم تتحرّك. خالتي فتحية صارت فوق رأسه، وهي تحضّره للقدوم إلينا. لا أعرف لمَ شعرت أن ذلك كان ممكناً، فقد بدا لي أنه يبتسم، كلّا، أنه يضحك. وفتحية تتلكّأ في إطباق جفنَيْه. كانت أهدابه شديدة الكثافة، فبدأت تمسّد على جبينه، تصوّرت، والحقّ معها، أنه موجوع في الرأس. وهو نائم بهدوء، لا يشبه الغلام ولا الرجل، لا يشبه أحداً آخر، لكنه يُدعى سامي.

ونحن لم ننظر إلى الساعة، فقد كان الوقت يُتعبنا. عادت خالتي، ونزلتْ إلى أصابع قَدَمَيْه. كانت تلمسها وتطويها إلى أعلى وأسفل، وحين قاربتها سنية، بدأت من الذّراعَيْن، فهبطت عليه، وعانقته. كانت تشمّه

من رقبته، وتتوقّف عند تفّاحة آدم المزرقّة التي غلظت كثيراً، وتبدّل لونها إلى بنفسجي ضارب إلى نيلي. كان يرتدي سروالاً قصيراً خاصّاً بطلَبَة كُلّيّة بغداد. وأنا أقف بجوار أُمّي، أجرّ ثوبها، أجرّه إلى أسفل، ولا أتكلّم، فأسمع قطرات من البول تتساقط من لباسي على فخذي نازلة إلى ساقي، ثمّ هابطْة حرّة إلى بلاط الغرفة، فتبدأ السَّيْر إلى أمام. دكتور، لو كنت كاتب روايات مثل الأستاذ صميم، لتصوّرت تلك اللحظة ذروة الجواب الفلسفي عمّا يحصل وحاصل لنا، أمّا الدموع، فقد بدت مجرّد بهرجة بعد تلك السنين. أُمّي مكّيّة لم تقدر على الانحناء والبدء بعناقه براحة تامّة، فإذا فعلت ذلك، فلن تقوى القيام ثانية من سمنتها الشديدة، ارتفع وعلا، فصار نحيباً عالياً. أنا بركت بجوار سنية والبول حولي، فلمست اليد الممدودة وأنا أنظر إليها طويلاً. نزلت برأسي وبدأت أبوس وأنظر إليه بصورة لا رجعة فيها، للخدَّيْن الخاسفَيْن والفم المسدود والشفاه الناشفة. وأمواج دجلة على الأغلب تسمع بصورة جيّدة ما كان يدور بين أفراد هذا البيت في تلك الليلة وهم لا يتبادلون النظرات ولا يتمخّطون، فيزداد الاقتراب من النائم. هناك في تلك المدينة تصوّرت انتحاره مجرّد ميتة تنكّريّة، إنه مقتول، يا سيّدي الدكتور، قتل فأفرط أهله في التسابق على النكران. أبي في عمله، وعمّي مختار لا نعرف متى يعود، وتخطيطات عفاف التي كنتُ أراها في يدها، ورأسها لا صوت له، فكان الجميع يستأنف السكوت، ولا يقاطع الموت، وهم يشاهدونه أمامهم. لم يتأخّر في زيارة ذلك البيت، أوّل بيت يُزيِّت اللوحات بزيت كثيف وغامق، فالأعضاء تخشّبت، والبلعلوم تيبّس، لكنْ، لا أحد من الأهل فَقَدَ عقله، فلا جروح ولا حروق ولا نزيف في المسجى. ينظرون ولا يخفضون أبصارهم عنه. لوقت طويل، بقي الحال على ما عليه حتّى دخلت أُمّ ياسين وهي تُوَلْوِل وتلطم على شباب سامي المكرود.

الأبطال يتوافدون

لم نرَ وجه ياسين في تلك الليلة، ونحن نُبلِّل وجوهنا بالدموع. وكانت فتحية تحاول أن تتكفّل بالجميع، فسنية ظلّت تمرّغ وجهها بقماش الأريكة، وبقميصه، ثمّ تنتبه لوجه سامي، فتقوم بنصف قامتها، وتشير بأصبعها إلى بلعومها وفمها، وهي تُخرج لسانها أمامنا، ودون أن تنبس بكلمة واحدة. لم ينشغلوا بها، ولا بصوتها الذي بقي مختفياً في جوفها لأسابيع عدّة، فكانت تتوجّه إلينا بالإشارات. وأُمِّي من جانبها كانت تستحي، إذا اضطرّت لأمر ما، وارتفع صوتها، فاجتهدت هي الثانية لطَمْس صوتها بعيداً، ربمّا، هذا أعطى الاثنَيْن معنى وقيمة ما، فترك لفتحية في النهاية القدرة على إدارة أحزان هؤلاء النسوة، فكانت المواجهة، ولم تسمح للذهول أن يتملّكها. صحيح بقيت تنتحب بدون خطأ واحد، وأقسم اليوم أمامكَ دكتور، كنّ ينشطرنَ إلى شخصيات عدّة، لم نلتقِ بها من قبل. أبي، الحزن كان ينهش عظامه، فانحنى على النائم، وقّبل جبينه، ومسّد على رأسه، ثمّ أمسك بي بطريقة تكاد تكسر عظامي، وتخفيني في عبّه، عانقني فترة طويلة، ولاحظ أن ثيابي رطبة. عمّي مختار حين عاد على غير عادته، توقّف وسطنا، واقترب من النائم، وبرك بجواره. مرّت ساعات على الموت. وكان مختار صامتاً لا يعرف مَنْ يخاطب:

كان ابني الذي لم ألده من صلبي .. يا صغيري .. يا حبيبي .. وبدا بالانتحاب البطيء.

سقطت عويناته الطّبّيّة السميكة على الأرض بجوار البول. بدأ يمسح الوجه والرأس والشَّعْر والعينَيْن نازلاً إلى الرقبة، فتحسّس بيده مكان الحبل. لم يكن يرى تماماً، ولا كان يريد أن يشاهد المكان. كان يقيس المساحة بين الحنك والرقبة، وكانت هذه الأخيرة رفيعة جدًّاً. ووجه سامي، ووضعية نومه كانت مستقيمة، وفي وضع مرتاح، والعيون والآذان كلها تتّجه نحو صوت أُمّ ياسين وهي تتّجه إلينا مُوَلْوِلَة، وتبدأ بالصراخ بصوت مسموع، فتفتح باب الحوش على مصراعَيْه، لدخول النسوة من الجيران. كانت أصواتهنّ شديدة الوَقْع على الجميع، وبسرعة خارقة، أزاحوا الجميع من حوله، ورفعوه من على الأريكة في طريقهم إلى الحمّام. كان أكبر من ياسين وهلال، في الثامنة عشرة. أنا كنتُ في السادسة وعفاف في الرابعة.

Don’t believe yesterday

دائماً شاهدت عدوانية الأمس، حتّى كلمة الماضي لا أستخدمه، أعبره بَغْتَةً إلى الحاضر، فهل ندخل عفاف في أرشيف ذلك الأمس البغيض؟ أم الغد المريض، هٰا، ما رأيكَ، دكتور؟

والقوم هناك في دولة البارحة، يكتبون لي قائلين: هيّا، تعال معنا، هؤلاء أصدقاؤها الأساتذة. لا أفضل أن ترفع الكلفة في ما بيننا، فليبقَ اسمي هلالاً، ولتبقَ لهم الألقاب جميعها. تطوّر اسمها كما تعلم، أوّلاً من اسم التدليل: عفّو - إلى اسم عفاف. ثمّ جرى التساؤل عمّا ينبغي عمله بالأسماء فيما إذا تقدّمت بنا الأعوام، وظلّت الأسماء ذاتها واقفة في خانات الأرشيف، ولدى مديرية البوليس، وإدارة المطارات والجامعات والمصحّات والمستشفيات والسجون. تبقى تلك الأسماء كاملة غير منقوصة، تبقى دون جدوى.

معاذ الألوسي، صميم، الذي لم نتعرّف على بقية لقبه حتّى اليوم، المصادف العاشر من ديسمبر / كانون الأوّل من العام 2011. وأنا في لندن، والسّيّدة طرب الفيصل زوجته وصديقة عفاف. من هؤلاء وصلتْني ملفات مرتّبة منسّقة معنونة ومرقّمة، كل واحد منهم يملك اسمه وعنوانه، إلخ، وكأنها الفصول الأربعة، منتظرين بأن أُوثّق لهم فصلي الجديد. هو خطاب رجاء، بإعادة قراءة الملفّات أو الفصول، ليس لكي أصحّحها، على العكس، مهمّتي وضع قَدَمَيّ، إن أمكن، أفضل من قَدَم واحدة، والتّورّط بتدشين

الفصل الذي لا أعرف ترتيبه، وبعد مَنْ سيكون، وقبل مَنْ سيضعونني، كَمَنْ يُقدِم على إعادة تعلّم لغته من جديد، فعربيتي لا تمتلك أقمصة وسراويل وجاكيتات حديثة، لغتي، لم يبقَ منها، ومنذ عقود إلا فانيلا ممزّقة، ولباس داخلي خبّأته في جانب ما من الخزانة، بسبب لونه المصفرّ في كل نسيجه. كنتُ أتصيّد بعض الجمل العربية كما هي، كما لو كانت نشازاً أو مرخّمة بموسيقى تعلو وتنخفض، أو صراخاً هستيرياً أشتهي توجيهه للقنّاصين المارينز، وها أنا أدور بلا هوادة، وبكل ما يقتضيه الإتيكيت والذوق، حتّى لو كان الأمر يخالف قرار ابتعادي وصمتي، وأوافق من حيث المبدأ على إعادة النظر بتلك الفصول. هم لم يشيروا لأسباب، الأخوّة الموجِعة بين الأشقّاء على سبيل المثال. فما زلتُ أراها تلهث، وريقها ناشف وشفتاها يابستان، وهي تحاول أن تُحرِّك النار من حولها. صرختُ للتّوّ باسمها عالياً، وأنا أجادل في شروط وكتابة هذا الفصل، في درجة الحبّ الذي يهطل على الرأس والوجه، فيجعل من تلك الفتاة، وكأنها تمسك بالسوط، وتضرب كل واحد منّا، من هؤلاء، وأولئك، لتلك العائلة، ومَنْ تعرف في تلك المدينة. فوجوه شارع تانكي الماي، وصور الآباء اليسوعيّين، لا أستخلصها كاملة وصحيحة، فكل شيء لا يلبث يعلو في شارعنا ذاك، الذي لا أعرف ترجمته إليكَ. سامحني، دكتور، لم أبدأ بالديباجة: بـ عزيزي الدكتور فالينو، فأنا مستثار جدّاً، وعفاف هي التي تقودني من ذراعها. هل راقبتَ تلك الذراع؟ كانت تعمل كأفضل ما تكون أذرع الفنّانين والنّحّاتين والموسيقيّين، والآباء المعلّمين. تلك الذراع كانت وثيقتها الأولى للقفز عالياً، لكي تبقى هناك بين ذراعَي فنّاني العالم جميعهم. فتلتقط أصواتاً بعيدة، وتغنّي لها، ثمّ تُحوِّلها إلى أثر فنّيٍّ. هي الذراع ذاتها، ذراعها وذراعي ونحن نصل أوّل شارع التانكي، فنحضن بصدورنا الضعيفة النحيلة والصغيرة وأذرعنا الهشّة محيط التانكي المعدني، ولا نصل إلى ضلع واحد من أضلاعه.

كان لونه فضّيّاً مُغبرّاً ورابضاً في آخر الشارع كمركبة فضائية، انطلقت بالفعل في إحدى السنين الضّوئيّة من نقطة في السماء، فحملت لكل واحد من سكّانه ما لم يكن بانتظاره. فخالتي فتحية كالشيخة الصّوفيّة المتعالية، دائماً حزينة، وفي صوتها مرارة، فلم نرها يوماً في ثياب ملوّنة أبداً. إذا ابتسمت سرعان ما تزمّ شَفَتَيْهَا وتُسوِّي شَعْرها الكَثّ دافعة به وراء أُذُنَيْها. كان يبدو أن هناك شيئاً مقيماً يحاصرها ويطاردها، وعندما تدخّن كانت تمضغ التبغ بين أسنانها. بيبي فاطم لا تقدر أن تنكّد عليها، كما علينا، فأطلقنا عليها لقب مديرية للإعلام والمخابرات وحيازة الأسرار الخاصّة والعامّة والتصاوير الحارقة التي تخاف عليها سرعة الزوال، فتعيد وتكرّر وتنسى ما أخبرتْنا عنه قبل ساعة على سبيل المثال .. لكنها، والحقّ يقال، كتومة. نضع في حجرها سرّنا، فتصونه إلى يوم الدين. بقيت تجمع الأدلّة حال وصولنا إلى شارع التانكي عن مواقع وأفخاذ وعلاقات وأسماء وصلات القربى والجيران، وعوائل وطلّاب كُلّيّة بغداد أصحاب الحسب والنسب، للزوجات التركيات، الإيرانيات، واللّبنانيّات أو البريطانيات. ترتّب الخرائط، وتضع الألوان الأحمر أو الأخضر وهي تعدّد الألقاب لا الأسماء ذاتها، كأن تقول: ابن الجلبي، ابن الألوسي، ابن مكّيّة، ابن بنية، ابن ثنيان، ابن الزهاوي، ابن الخضيري. ولمّا تتأكّد من حالة وفاة أو فرار أو اغتيال، أو عمل فضيحة ما، تضع علامات كل واحدة بلون، وحسب الحالة، ثمّ تلجأ للراديو الموجود دائماً بجوارها، تفتحه على صوت المقرئ عبد الفتاح الشعشاعي، تتعوّذ من الشيطان وتردّد:

الموت ثقيل على القلب.

فيُمحى فلان، ويوثّق علّان على القائمة المستحدَثة بقدومه إلى الشارع. أرشيفها الآخر تقلبه من إذاعة البي بي سي، وهي جالسة على

كرسيّها الذي ينجد كل فترة، ويحدث قطنه وقماشه الخارجي من بعض الثقوب، بفعل شرار يتطاير من سجاير البلايرز التي تدخّنها، وما أن ترى أختى أمامها، أو تسمع مجرّد وقع قَدَمَيْها، حتّى تنادي عليها. تستمتع بالمناداة، وتمسك بالحروف جيّداً خوفاً من فرار أيّ واحد منها. فتمطّ لسانها على هذه الصورة:

عفّووووووووووو

تشدّ على حروف اسمي أيضاً ببطء:

هلولولللل ..

تضع عفاف في حضنها وهي تسمع الأخبار، وتبدأ بتمسيد شَعْرها الكثيف والغزير. تضع أصابعها بين خصلاتها، ثمّ تسحبه، وكأنها تريد أن تضع تاجاً فوق رأسها. فتقول لها:

أنتِ مليكتي، وأنا أنصّبكِ ملكة على عرش قلبي وهذا الشارع والبيت.

كان صوتها يختلج، فتبدأ بلثمها من بين حنكها ورقبتها. تصير الخالة على وشك التلاشي. خالتي لا تتوقّف حتّى تزهق عفاف من هذا السلوك، فتجري بعيداً عنها. أنا كنتُ أشبك يَدَيّ على صدري، وأبدأ بترديد هذا القول:

لماذا خالتي على وشك الموت وهي تُقبّل كل واحد منّا؟

نعم، أنا أيضاً حين كنتُ في سنّها. فأنا أكبر منها بعامَيْن، وخالتي على وشك أن تكسر عظام صدري، وبما أن شَعْري كان قصيراً جدًّاً، فكانت تردّد وهي تحضن رأسي:

هذا الرأس العنيد، أنت، يابهجة حياتي.

ثمّ تدخل في الصمت الطويل، وتشيح النظر بعد قليل عنّي. تعود إلى حالها الأوّل. فأُحدِّق فيها طويلاً، وأصمت، وأبتعد حتّى وقت العشاء حينما يتناهى لسمعنا أنا وعفاف أصوات خالتي سنية وفتحية، وأمي تدخل هذه المرَّة. أصواتهنّ لا تُسمَع، فما إن ينتهينَ من العشاء، يبقينَ بعض الوقت حول الطاولة. يتقاربنَ جدًّاً، فتقوم بيبي وتبتعد بحركة عجيبة من بدنها النحيل، وهي تتعوّذ من الشيطان الرجيم:

أوي قلبي خلص من القهر. راح يفتحون ويعيدون القصّة نفسها. إي عجب، ما تعبتوا؟! الغايب صارت عظامه مكاحل. كافي عاد.

الغياب

أتمنّى، دكتور، لو أستطيع أن أجذبكَ لموضوع هذا الفصل، أعني - الماكيت .. فأنا أراها جريمة، وهذا ليس تقريراً عن تفاصيل تلك الجريمة، فأنا فكّرتُ فيها منذ غادرت المدينة في العام 1969. ألّفتُ حوله أغانٍ، وعزفتُ له الموسيقى، وشاهدتُ القاع، قاعي دكتور. هي الجريمة التي بلغت حدود حياتي أنا شخصيّاً، ولم تتوقّف نارها بعد، ولم أعمل أيّ شعائر لها حتّى الآن، فربمّا هذا الفصل هو الذي بمستطاعي اللقاء بالغائبين، وبالتدريج. أنا مسوق، وبعد تلك السنين كلها، وبعد الضرر كله الذي ألحق بي، فها نحن هنا، وقد التقينا ثانية، وبفضلكَ أنتَ. نعم، فرض عليّ هذا الخيار، كما فرض عليّ خيار الاختفاء من الشارع والمدينة والبلد بأسره، رضيتُ أم كرهتُ. وصلت الأمور بنا، أنا وعفاف كعائلة وجوهر، أن نبدو بلا مُسمّيات. أن تبقى تلك الأسماء في القاع، هلامية، وتسير بمفردها، لكنها ما زالت تطلق لهباً. وها أنا ذا أستخرج من أعماقي السحيقة خالي في البداية، فأنا معطوب مثله، فتتفجّر البراكين على غير توقّع لمرأى التدمير. حسناً، ما هَمَّ، مَنْ سيحضر بعدي؟ مَنْ بقي، يا ترى، دكتور؟ أنتَ على سبيل الحصر، هل تمّ الرجاء منكَ للإدلاء بشهادتكَ؟ إذاً، وَاجِهْنا بالاتّهامات .. الطمْنا بما تملك من أدلّة، ولا تتوقّف .. على أيّ حال، الأثقال جسام فوق أكتافنا جميعاً، فلنطرحها عنّا، وأمامكَ، فنحن نضع استفهامات، فابقَ معنا، أرجوكَ:

هل بقي لدينا كثير من الوقت؟ كلا، كم بقي لنا من الوقت، لكي نبدأ بالبحث عنها مجدّداً؟

هل شاهدتها في الفترة الأخيرة، أو سمعت أيّ خبر عنها؟ أعني متى كان ذلك؟ وأين؟

يُستحسن أن لا تطمس علينا الأشياء كلها، نقبل بعضها. يُستحسن لو تجيبني بالدرجة الأولى ؛ هل عفاف ما زالت موجودة؟ هل اختفت وسوف نعثر عليها بعد تلك السنين كلها؟ لا نعرف بالضبط ما هو الأمر الحسن وعكسه في مثل هذه الأحوال؟ ما زلتُ على يقين أنكَ سمعتَ شيئاً عن أمرها، خبراً ما مثلاً، أيّ شيء ؛ فهذا يسمح لنا بطلب التحقيق في شأنها. نعم، أسرفنا في الابتعاد والإهمال، وتقدر أن تقول وتضيف ما شاء لكَ من نعوت، وجميعها صحيحة، لكني لا أبالي وأنا أكتب لكَ، فأحدس كأيّ شرقي، أنها موجودة في مكان ما، وهناك مَنْ سيُمهّد الطريق لظهورها ثانية، وهذا أمر معقول. علمتُ من الأستاذ صميم بالخطابات الرّسميّة التي وصلتْهم من المستشفيات التي ظلّت نزيلة بعضها لسنين، وبعضها لشهور. الخطابات كانت مبتسرة ومحايدة، فبدت غير حقيقية. كان الأهل يبحثون خلف المفردات الطّبّيّة والتعابير العلمية، ولا أحد يعرف ترجمتها حرفيّاً .. كما علمتُ أن بعض الرسائل لم تصلْ بسبب البريد الذي أُغلق، وربمّا بسبب الأغلاط في لفظ الأسماء وكتابة حروفها متقاربة، مَرَّة قلتُ لحالي، ربمّا، بسب أيّام الجمعة والسبت والأحد، فتلك الأيّام كانت تنام، لم يخطر ببال أيّ واحد منّا أن لا تصل بسبب الحروب، فإلى أين كانت تذهب خطاباتك، دكتور؟

سيّدي دكتور فالينو،

بقيتَ أنتَ الزائر المنفرد الوحيد الذي ننتظره جميعاً. ونحن، وبدون مبالغة، هدية من السماء، نحن أفراد هذه العائلة، فالذي غاب، نحن سنخوض عميقاً، ونجلب لكَ أسراره، ومَنْ بقي أنا الكفيل بالرّدّ على ما تشاء من الاستجوابات. وهذه فرصة ثمينة لختام سجلّكَ المهني والعلمي والإنساني. ومَنْ غيرك ستفتح أمامه خزائن العقول؟ قرأت في أحد الأعوام: "إن المرضى عادة لا يكونون سعداء، وتبيّن أن درجة السعادة لم يكن لها أيّ تأثير على احتمالات الوفاة. صحيح المرض يجعلكَ غير سعيد، لكن الحزن لا يجعلكَ تمرض."

فهل يتوجّب عليّ الحضور بنفسي وأنا أحمل بيدي وكالة ممّنْ بقي من أفراد العائلة؟ وهذا يعني ما يعني هو الذهاب إلى هناك، وأنا منذ لوّحتُ بيدي في ليلة ينيرها القمر من ذلك العام القديم جدًّاً، من القرن الماضي، بقيتُ أرى كل شيء كالبِرَك الموحِلة هناك قربي، ولم تغادرني، لكني أنا غادرتُها نهائياً، حتّى وصل المارنيز. حفظتُ صوراً كثيرة، ومزّقتُ كلاماً به بلاغة تافهة، ونسيتُ كلاماً جديراً بالنقل فعلاً، إلا تلك الواقعة التي نقلت في لقطة واحدة، ولم تتكرّر قطّ: "نشرت في فيلم يصوّر، ما يشبه معركة، تضمّ كائنات بشرية. جنّ جنون المراقبين العسكريّيْن الأمريكان عندما سمح أحد القادة الميدانيّيْن للمراسلين بمشاهدة فيديو رشّاش إحدى طائرات الأباشي، وقد سجّل سرًّاً في إحدى القرى العراقية، وكان على ما أذكر في نهاية 2003. وبدا في الشريط مراهقون - كانوا بعمري يوم تركتُ البلد - وهم يهربون في كل الاتّجاهات وقد استبدّ بهم الرعب، فيما تشطر رصاصات الهيليكوبتر، التي لا تُمكنهم رؤيتها، كل جسد من أجسادهم نصفَيْن".

بيبي فاطم، أليس كذلك؟

ماذا فعلت تلك الدولة العظمى؟ ونحن، بذلنا ما في وسعنا لمساعدتها، وكنّا نردّ عليها بالإيجاب في جميع ما طلبت. ماذا فعلتْ بمَنْ بقي فيها، أو غادرها، أو أضرم النار في جمجمته، وأحرق ما بقي من تصاوير، وقصص تضلّله، نعم، تضلّلنا جميعاً؟

نعم، وأنتَ عزيزي الدكتور، ستلبّي النداء، وسوف نتطرّق، برغم الكهولة والشيخوخة إلى المواضيع الطريفة، ونعرج قليلاً على الروايات الجدّيّة، أليس كذلك؟

إذاً ما عدنا للخال الغائب. سيّدي، هل ما حصل هو القتل؟ أم الانتحار؟ لم نعرف سيرة الغائب الذاتية كما يقال. عفاف قامت بتشكيله، وأنا ألّفتُ الأغاني في حبّه، فأنشدها لوحدي مع الكيتار الذي تعلّمتُ العزف عليه. نعم، هو الأكثر أهمّيّة منّي. عندما غادرت فكّرت بالشَّخصيَّات التي مرّت عليّ، وأنتَ هل تتذكّر، دكتور، كم شخصية عالجتَها، أو جنّنتَها؟ أو قضت بسبب أدويتكَ؟ نعم: المقتولين، المنتحرين، المختفين، المهجّرين دائماً نراهم ونريد تتبّعهم في عدّة خطوات أو أعوام أو صفحات .. آه، وبالطبع، لا يقبض على القاتل، هل سمعتَ في السنين الأخيرة، أنه قبض على قاتل، أيّ قاتل؟ حسناً، أخبِرْني الآن مَنْ هو القاتل؟ إننا نقبض على القَتَلَة في الأعمال الرّوائيّة، وهذه التي بين يَدَيْكَ مازالت مخطوطة عادية، قد تُرفَض من دُور النشر كما أخبرني معاذ، بسبب الأمريكان والخمرة، وهو

يقهقه عالياً، وأنا لا أفهم العالم العربي، فقد تحرّرتُ منه.. وهكذا، أعددتُ نفسي لتقبّل فكرة الرجل /خالي، وهو محاط بالنساء مثل عمّي مختار، في الغالب، هنّ لا يذكرنَ اسمه، لكنه يمتلك أسماء الغائبين جميعاً.

هل هنّ القَتَلَة، دكتور، خالاتي وأُمّي وأبي؟ أم نحن؟ أم أنتم؟ ولمَ لا؟

هنّ متعدّدات المظاهر والصور. خالتي سنية، أتعثّر وأكبو وأنا أنادي عليها، وها أنا أستبق الأحداث، وهي فظيعة، ونحن نتمرّغ فوقها وتحتها، وللأمانة، هنّ النساء وأنا بمجرّد ما أذكر عبارة:

نساء ..

حتّى أدفع الباب قليلاً، فأسمع الرعب يلتهمني، ولكن الفكاهة تلاحقني أيضاً. هل أستدعي لكَ العمّ مختار أوّلاً؟ أم بيبي فاطم وباقي الربع؟ مَنْ تريد أن تكون النزهة بصحبته بعدما مررت على الغائب الأوّل وجلبته لرأسكَ؟ لن أنسى ما عشتُ زفير وشهيق عمّي مختار وهو خارج من الحمّام والمنشفة مشدودة بصورة مضحكة على خصره، وقطرات المياه تظلّ تتضاعف وهو يمشي، وبيبي تكفّ في تلك اللحظات أن تكون الوالدة. تلاحقه وتمشي وراءه قائلة:

أي صاروا مئة وعشرين قطرة ماء. الله وأكبر عليك وعلى بطني التي نفضتك. كل يوم نعيد الأسطوانة. نشّفْ روحَك زين قبل ما تطلع من المهجوم الحمّام. بس شنو نفع الكلام. اللهم أعوذ منك، يا لساني الزفر.

هذا الرجل الوحيد القادر على تفتيت قلب بيبي، تموت وتقوم وهي تعلّي من شأن النظافة. طويل القامة مستقيم الجسد، وكل شيء فيه مشدود بدءاً من الأعصاب إلى حزام المنشفة. يستمتع بأيّة حركة تشغله

عن أمر اهتزاز يده اليسرى، ففكّرت خالتي فتحية بحياكة كفّ من الصوف شتاء، تربطه على الرُّسْغ، لكي تُقلّل بعض الاهتزازات، وفي الصيف، خاطت له من الكتّان الأسمر عدّة كفوف، يستطيع تغييرها كلّما لزم الأمر. تضايق في البداية وكاد يبكي وهو يدخل غرفته عندما شاهد البقجة الساتان الضغيرة مفتوحة بطريقة أنيقة، وموضوعة فوق سريره. عفاف تقول، هو خاف كأن يده سوف تترك جسده، وتبدأ تطارده، وهو نائم وهو مستيقظ، وأن تلك اليد لن تعود إليه. لكن عمّي وبعد أسابيع فُتن بذلك الاكتشاف، فصار يسابق الفصول لارتدائه. يضع الكفّ في جيبه عندما يكون في الباص في طريقه للعمل، يتأفّف وهو يدفع بإحداهنّ قائلاً:

هيّا، ابتعدوا شوية، سأنزل هنا.

لكنه لا ينزل.

وبيبي هي هكذا، منذ وعينا، وهي تمشي وراءنا فرداً فرداً، ونحن نبتعد عن مرمى لسانها. بقي العمّ بالرغم من عبوسه والونونة العدوانية في صوته والاستعداد الدائم للشجار معها، فلا يهتمّ وهو يؤدّي حالات الترك جميعها: ترك الزوجة الأولى السّيّدة ناهدة ابنة الحسب والنسب التي كانت تزعجها فجاجة وفظاظة بيبي، فطلبت الطلاق. ترك الزوجة الثانية فضيلة مديرة متوسّطة النعمان، ذات الشخصية القوية. لقد تمّ الاتّفاق على العيش في بيتها ومع والدتها، وافق في بادئ الأمر، وبعد أسبوع، حصل الفرار والطلاق. الثالثة ناجية، ذات الأصول العثمانية، والرائحة الزّكيّة، فمنذ أن تدخل الطارمة الخارجية مروراً بالحديقة تستقبلكَ الرائحة، مثل حليب الأطفال، وهي تشبههم في تقاطيعها وتصرّفاتها، لكن والدتها أرادت تعظيم شأنها وسنّها، فجعلتها تشبه السفينة الحربية في ثيابها الغريبة ذات القصات المعقّدة بالشرائط النازلة للذيل، وهذا مَحشوّ بالكركش،

فلربّما يدعها أقلّ نحافة ممّا عليه. وما أن تبدأ بالجلوس وأُمّها في صدر الصالون، حتّى نسمع أصوات الخشخشة من عقود الذهب التي تتحرّك على صدرها، فما إن ترفع يدها لكي تشرب الشاي حتّى يوشك صوت المعادن على ضرب رأس وأُذُن عمّي الذي يقوم من أمام الجميع كالبرق عائداً إلى غرفته، بعدما يغلق الباب وراءه بشيء من العصبية.

فتشير عليّ بيبي بالقيام ودعوته لاحتساء الشاي وأكل الكيك. أطرق الباب، وأسمع الزفير والشهيق واللُّهاث العنيف ذواتهم، فأمدّ رأسي فقط، فأراه واقفاً وآثار الاستمناء بين يَدَيْه. تزوّج تلك الصبية، لكنها لم تنج من لسان وأعمال بيبي، فتمرّضت بمرض جِلْدي بشع بسبب المطهّرات التي كانت تضعها في مياه الشطف وغسيل الشراشف والوسائد. تقرّحت بعض أجزاء من جسدها، وبدت بشرتها الجميلة الصافية مليئة بالبثور، فاعتبرت ذلك هي وعائلتها الجليلة أمراً شديد المهانة وطالعاً سيِّئاً.

بيبي لها وظيفة، هكذا تردّد خالتي فتحية:

أن لا تدع أيّ أحد، أو أيّ شيء يهدّد حياة مختار، فهو هشّ ومريض في نظرها. يعني الرجال في هذا البيت من حصّتها، وإذا ما فقدت سلطتها على أيّ واحد، ستنبعث مخاوف ومصاعب لا تُحمد عاقبتها.

كنتُ الوحيد الذي تسمح لي أن أداعبها من خصرها، فتركض ورائي في الحديقة، وبيدها خرطوم الماء، فتبدأ برشّي كما تشاء كما ترشّ بعض المارّين فجراً في الشارع وهي تضحك ولا تعتذر. أظنّ أن بيبي كانت تريد أحداً يلاعبها، فلم تفعل أيّة زوجة من أولئك الزوجات ما كانت ترغب فيه؛ بقاء العمّ في مجال بصرها ووحدها. جدّتي امرأة حرّة بالمعنى الفعلي للكلمة، فلا تعرف كيف تخفي الغضب، ولا تقوم بحجب الأكاذيب، ورغم

الشجارات الفجّة، لكننا نحبّها كثيراً، وهي قادرة على صنع الاحتفالات الشّعبيّة حتّى لو استغرقت بضع دقائق، فنداعبها أنا وعفاف، أنا أراقصها على وقع الأغاني الأجنبية، فتفرّ من بين يَدَي، فألحق متوسِّلاً بها وبالبستاني على لَمِّ التمر والخلال المتساقط من أجل عمل الخلّ الأصلي، فنقوم باستفزازها، ونحن نجري وراءها قائلين بصوت وضحك عالِيَيْن:

بيبي، الله يخلّيك، يا ريت تساعدين عمّي على تقطير كل هذا التمر لصنع الخمرة العراقية المضبوطة .. ها، وفي صوت يضعف ويبتعد قليلاً:

ومن أجلك بيبي، وأجلنا.

تركض وراءنا وهي تشتم أبي وعمّي والأوّلين والأقدمين .. عفاف كانت تمسكها من كَتِفَيْهَا، وتبدأ بعناقها قائلة:

بيبي الله يخلّيك، خلّينا نفتح صناديق عرسك وثيابك العتيقة، إي، ونشوف صور الزفاف والقنادر. هل كانت مرتفعة عن الأرض كما في أيّامنا، وكم كان عُلُوّها؟ والبابوج القطيفة الأسود أبو الفرو في وجهه قياس خمسة وثلاثين، ها بيبي بعده يميل على جهة اليمين أكثر من اليسار؟

خالتي تقول، الفرو طار، والكعب انكسر ...

في كثير من الأحيان وأنا عائد من كُلّيّة بغداد عصراً أراها كعادتها في غرفتها وبابها موارب. لم تغلق بابها يوماً. تعرف حركة أقدامنا، فتنادي على كل واحد باسمه، كانت واقفة أمام زجاج النافذة اللّامع، تمشّط شَعْرها الخفيف، وتُحدّث نفسها:

إي البنات راحوا للقبولات والزيارات وآني بقيت وحدي. فتحية تقول: أنتِ تسوين فضايح. يمكن صحيح. بس شنو فضايح. آني تعبانة وما بقى

عندي حوصلة، وأريد مختار يصير عنده ولد وأشيلهم. بس هو عينه على الكَحاب. يمكن هذوله النسوان يرتاح وياهن أكثر .. زين، وآني هناك والناس والشاي ونحن نأكل الكيك، بس أتذكّر مختار وولد مختار، أصيح والعباية تصير على رأسي. أبقى أصيح اسمه كل الطريق ..

لكنْ، ما إن تلمح عمّي وهو قادم، فتبدأ صفّارات إنذارها في وجهه وهو بكامل قيافته.كانت الأرض نظيفة وناشفة، وما إن يمرّ بجوارها حتّى تصيح:

ريحة المستكي طالعة من هدومك، والله قمصانك من أعلّقها على الحبل تفوح منها ريحة العَرَقْ. شنو هذا؟ الله هم ما يقبل على كل هذا السكر. أقول ليش ما تتزوّج من جديد؟ إي، بس منو ترضى بواحد سكرجي مثلك؟

لا أعرف هل ينبغي أن أفكّر في الخال الغائب فقط؟ أم في هلال الذي لم تبقَ ريشة في بدنه لم تنتف؟ أم في تلك التي لم تأبه بنا ولا بحياتها؟ ولكنْ مَنْ هو ذلك الرجل الغائب؟ فجميع الأسئلة صالحة عنّا فرداً فرداً دكتور. فليس السؤال:

لماذا اختفت عفاف؟

متى ستعود؟

اليوم أقول أمامكَ، كانت أختي محظوظة، وذات بأس أكثر منّي حين واصلت المرض، فَمَنْ يتعافى ويتشاوف بعافيته اليوم، دكتور؟ أنت، أو أنا، أو مَنْ؟ أخبرني، أرجوكَ. أظنّ اليوم، دكتور، أن عفاف ومنذ حادثة خالي سامي، لم تعد يدها تلك إلا لرسم الجريمة. كان مشروعها أن تهتدي للقاتل، فتحسب في كل لوحة أنجزتها أنها عثرت عليه، فتصل إلى ذلك

التّميّز والإلحاح على التّوهّج في كل معرض من معارضها، لكنها تبهت وتخفق همّتها بعد قليل، هكذا كان يُخبرني الأستاذ صميم. لكنها، وبعد عدّة معارض، كان المحقّقون يتناقصون، والمجرمون يتضاعفون.

دهاء الموت

لا أدري، هكذا شعرتُ وأنا أُبصرها ونحن أطفال. كانت والمدينة والسّكّان والهواء والماء واليابسة، والنوم والحُلْم، كلها تتناوب عليها، فيتكاثر المرض، وتتجمّع الكآبات. كنّا وحدنا ننظر للنائم.

أوّل مَرَّة نُبصر موتاً. ونشاهد ميتاً.

كنّا نسمع به، وهو يتكوّن من مقطع واحد. نحن جميعاً مجتمعون، وهو وحيد، ويريد مَنْ يمدّ إليه يداً مصافحاً، ومتمنّياً له ليلة هانئة. بعد ذلك دخلت خالتي سنية منذ تلك الواقعة، وتدرّبت معي وقتذاك على تنظيفي وتغيير ثيابي. ذكرت لي عفاف في أحد الأيّام بعدما انتقلنا لشارع التانكي كلاماً عن خالتي:

فتحية:

قالت لي ومنذ تلك الحادثة، بأن عيني أصابها الحَوَل. ربمّا، كانت تواسيني وأنا لا أفهم، بس ميخالف، يا نور عيني، هذه تُسمّى حُولة حسنْ.

يومها، هي وأنا، كنّا نرى خالي الوسيم، ونحن في تلك السّنّ، وبقينا نُبصره ونحن في العشرين والأربعين والخمسين .. ولم ينهض من مكانه ويغتسل، لكي يقاسمنا المرض .. وها أنا أقاسمه في كل شيء، ونروي لكَ بعض التفاصيل، لكي ينتشر الخبر، ونبدأ بالتحقيق، ويتحتّم عليّ فيما بعد،

طلبكَ للشهادة، دكتور، أنت أيضاً، ولمَ لا؟ كل فرد مسّ واحداً منّا نطلبه للشهادة، وهذا الخطاب لم ينته بعد، لكن تقريرنا، أنتَ وأنا، لندعه ليس مضجراً، وحين ينادون عليكَ، سنرى الغائبين خلف عينَيْك. ستقول، لا شأن لكَ بأيّ واحد منهما، وأخشى أن أجيبكَ، أن لكَ شأناً بكل واحد منّا، نحن أفراد هذه العائلة. فأنا بقيتُ الفتى الصموت أحيانا والمشاكس جدًّاً. أختفي في غرفتي وأنا أحفظ أغاني جماعة "وود ستوك" وأترجم قصائد لبوب ديلان وتيم هاردين. كنتُ أفكّر بإقامة خيمة داخل فضاء منطقة الكريعات ذات المساحة المضاءة، الشاسعة والممتلئة بأشجار منوّعة معمّرة ومتباعدة كالنخيل، وأبنية ما زالت قليلة. نعم، دكتور، كانت لدينا في تلك المرحلة أحلام "الكومونة المؤقّتة" التي تسمح لنا بما نشاء من ترديد الأغاني الأجنبية، وأولئك الشعراء الصعاليك الأحرار الذين نستلهم منهم الحرّيّة، يعيشون في الجانب الآخر من العالم: الولايات المتّحدة وبريطانيا. كان ذلك في العام 1969، وكانت تلك الأغاني في لهجتها البسيطة والواضحة والمحرّضة ضدّ المظالم، هي التي نعترض بها وباسمها على كل شيء، في البيت والشارع والكُلّيّة. كان عمري من عمر خالي سامي عندما حصل القَدَر الغاشم. ها أنتَ ترى، وأنا أقوم، وبعد تلك السنين كلها، وأمامكَ وأقف مثل المحقّقين، فنعيد هذا الشخص إلى منزله في شارع التانكي، حيث هناك الوالدان والخالات والأخت، وهناك بيبي فاطم التي يقيم لها المقالب، فيجري وراءه العمّ مختار، ويفرّ منه ذاهباً إلى الشّطّ .. نعم، دكتور، أتحدّث باسم هلال كقرين، ولو لفترة قصيرة، كما في السينما، وهذه الفصول تتداخل فيها اللقطات القريبة والبعيدة كأننا موتى، فمَرَّة يتحوّل هلال لضمير الغائب، فهو غائب عن الجميع، ويعيش في بريطانيا، وطوراً يعود عبر الأوراق من أجل عفاف وسامي، ومن أجلي أنا أيضاً .. فلندعه في ضمير الغائب، ولو لدقائق، ونشرح العلاقة بينه وخالته

سنية. كانت شديدة الصعوبة والخطورة. هذا كان في الربع الأوّل من عمره. فلا أحد لاحظ سريره إلا هي، ولا أبصر فراشه المبقّع بالسائل الأصفر ذي الرائحة الكريهة كما هي. فكانت تزيحه بسرعة، وتبدأ بتغيير ثيابه، فيقف أمامها عارياً، وهي تشتغل عليه، تُدخله الحمّام، وتبدأ مرحلة الاستحمام. فكان يتمارض، لكي تشرف عليه سنية. بدأ يكبر ويشتدّ عوده، ولم تسمح سنية لأيّ فرد من العائلة التّدخّل بشؤون هلال. بقي في عهدتها، فتنادي على عفاف، لكي تقوم برسمه والغناء له، أمّا هلال، فقد بدا كالطيف وهو يمشي في الطريق العامّ. تهدّل كَتِفَاه، وصار يتضايق من الذهاب لكُلّيّة بغداد إلا تحت ضغط الوالد. صار مهزوماً، وعلى وشك الانكسار أمام الجميع، إلا سنية بقيت تمدّه بالعزيمة. عافت روحه الأغاني الأجنبية، وفي بعض الليالي، كان يسمع صوت الانتحاب من غرفَتَيْن متجاورَتَيْن.

هذا ليس اعترافي كله، دكتور، ولكنْ، هل تعتقد أن تبوّلي الليلي الذي استمرّ منذ القَدَر الغاشم وإلى مرحلة البلوغ، هو تفصيل أساسي ومهمّ للتحقيق في تشريح ظروف هذا الكائن الذي يرى، أن البول الآدمي، وهو يتساقط من أعضاء الأطفال والشباب والرجال ودون إرادتهم، فما علينا إلا التّوقّف أمام هؤلاء الغرقى كأحد الشهود لما جرى عليهم من أهوال وصعوبات.

البول العراقي

نحتاج إلى أمر آخر بجانب التّبوّل اللّيليّ الذي لا أُدوِّنهُ لكَ من باب الفرجة والفكاهة، وقد بدأ لي، أنا هلال أيّوب وفيما بعد، وأنا أشاهد حمولة الراجمات والصواريخ الأمريكية، أرى وأقرأ وأترجم ما أسقط في الحرب الأولى علينا التي استمرّت 42 يوماً "وألقيت،500، 88، طناً من الذخائر، ما يعادل سبع قنابل ذرّيّة من حجم هيروشيما، أي ما يعادل قنبلة ذرّيّة في كل أسبوع". كان الهوان يتجمّع ويتكاثر ويلتئم في اليقظة، فيصير الجبين لا يهتدي لمكانه، فلا أرفع رأسي، ولا يطلع صوتي، ولا يقبل أحد بالنظر إليّ، فيضحك البول عليّ أوّل ما يبدأ الليل، وعندما تكون الأشياء عارية، والشراشف وحيدة مكرمشة على جنب واحد. كانوا يُسمّونه تدمير العراق، قالوا محوه، لكي لا يهتدي إليه أيّ أحد من أبنائه، ويراه العميان. كانت أموري تستقيم في البول الذي يقاربني من سنّ بلدي، فأشتري أنواعاً من مزيل الرائحة، لكن الأمر لا يستقيم فيما بيننا. في بريطانيا الوجوه نضرة، بعضها بالطبع، لكننا كالنوارس خرجنا في التظاهرات، وكتبتُ ووثّقتُ ذلك في يومياتي وأرشيفي: "ليس ما يوازيها في تاريخ الحروب. فالدمار الذي أُنزل بالعراق - سمّيناه "إبادة المجتمع" أو تدمير طريقة حياة بكاملها". عال، دكتور، فأذنت لطريقة بولي أن تتكلّم، وتصير طريقة حياة، حتّى لا أبقى وحدي معكم، ومع ملابسي الدّاخليّة ... ذلك الذي لم يمضِ بعيداً أيضاً، ولم يبرح نومي ومعطفي ووسادتي كما حصل معي في العام 1969 أيضاً .. عندما يبتدع مخبرو الحزب الحاكم والرفاق الأشدّاء خارج كُلّيّة بغداد،

وهم يلاحقوننا وبأسماء شتّى، وتحت طائلة التهديد والوعيد، وكلها ممكنة ومعقولة، عبر مانشيتات الصحف، وعلى الصورة التالية كنوع من المزحة:

اِنْتَسِبُوا إلى الحزب، تصحّوا.

من الجائز، دكتور، وفي مثل هذه الحالات، إمّا أن تسفك الدماء، أو يقتصر الأمر أن نبول على أنفسنا، فهذا الأمر لا نندم عليه، وهو يجعلنا سعداء في تلك المدينة. فاللباس الدّاخليّ نجعله يعيش في عتمته، والعام الدراسي طويل، وحقدنا على البول يُغلق أفواهنا. أرجوكَ، لا تقاطعني، دكتور. فأنا بقيتُ أدور بالدّرّاجة الهوائية، أو مشياً على الأقدام مئات الدقائق، تحت حرارة الشمس، ولا أمكث في الكُلّيّة، ولا أعود إلى البيت. كنتُ أرى المهانة منذ الصباح إلى المساء. هادئ الآن بلا شكّ، أعيد الاعتبار للبول، وأجعله عملا سَرْدِيَّاً، وأترك له عنواناً معقولاً. فالبول العراقي ومنذ اللحظات الأولى، وهذا كلام بلا تواريخ، وإلى يوم بلا تاريخ أيضاً، هو الذي يستردّ مكانته الشاهقة، كما لو كنّا نروي ملاذات النفط الآمنة مثلاً، فالاثنان لا يرويان العطش، والاثنان لا ينتشلانني من الغرق.

في تلك الساعات المتأخّرة كثيراً، شاهدتُ بمحض المصادفة السّيّد الوالد. نعم، أيّوب آل. آه، هنا صارت القصّة معقولة ربمّا. فجميع ما قلتُهُ من قبل كان به شيء من الحَيْرة والكثير من الوحشة، إلا هذا السّيّد، وهو يتلفلف بالعباءة الوبر القهوائية الغالية التي كانت بيبي فاطم تمازحه حين يرتديها:

ما هذا، يا أيّوب؟ أوّل مَرَّة وأنتَ تلبسها، كأنكَ تُخبِّئ فرخاً لو فرخين تحتها.

من مزايا جَدَّتي القوية، لا أحد يقاطعها، وهي تتقدّم منه، وكأنها تريد

الإبصار تحت العباءة. ما هذه السّيّدة العجيبة؟ لم أقابل مثلها طوال حياتي.

لم تسمع، دكتور، بهذا من قبل كما أظنّ، أعني به اسم الفرخ، أو الفروخ. كلا، هي عندنا مثل الطعام والشراب والمحادثة. فحالما تحضر ريحها، نقف على باب الاضطراب. تستطيع أن تسمع رنين إيقاعها بين الحانات والشوارع الضّيّقة، والملاهي الرخيصة، وفي الفنادق الراقية، والقصور المُسوَّرة بالأسلاك الشائكة وداخل الثكنات العسكرية. وتسبق ألقاب بعض العائلات العراقية العريقة. تعرف، دكتور، نعت المفردة هذه وهي تنهض من نومها في هذا الوقت، وكأنها تمزح معنا، أعني مع بعضنا. فهي تحمل جلبة ما من الخزي الذي يظلّ ملتصقاً ببعضنا وبنا، فنبقى صامتين أو خرساً تماماً أمامها، عندما يغمغم فلان عن فلان قائلاً: هذا فرخ سري لفلان صاحب الوجاهة والمركز والسعادة، إلخ ..

لم يكن أبي يجرؤ على الرّدّ، ولا كان يعرف هل هذا سؤال؟ أم ماذا؟

هل كان لوالدي فرخ ما؟ هل صار هو الفرخ؟ وها أنا أراه يواصل حياته سرّاً قريباً من البساتين على شكل حرامي.

كان واقفاً يتحادث بهمس أمام باب السّيّدة افتخار. خالتي فتحية تقول عنها:

أي هيّ مو زينة، مو راحة شوية.

بيبي فاطم تفجّ الرأس كلماتها وهي تقول كما لو تعلن عن اسم فاكهة:

أيّ هي قحبة. اللّهمّ الستر.

العمّ مختار كان من زوارها، ولا يخفي ذلك.

لكن أبي كيف؟كيف؟ ونحن، وأُمّي ..؟

كانت تُعرَف بعاهرة الحَيّ الراقي هذا، والشوارع الخلفية والجرداغ. الوحيد أنا كنتُ أراها تجتاز القصص كلها، وتسكن قصر الجنرال الذي كان يعبر إليها ليلاً مجتازاً البساتين والكلاب، ومعه أحد المرافقين. ترى هل هي شقراء؟ أم سمراء؟ عمّي لا يحبّ الشقراوات .. ونحن لم نكن نُبصرها حقيقة، لكن وجودها يشيع فينا نوعاً من أخيلة لم نعهدها من قبل. تتجوّل في رؤوسنا، ولا أحد يستطيع الإمساك بها. وها أنا أتذكّرها اليوم، فيتنمّل جسمي. الوحيد الذي أخشى أن يعرض نفسه للهوان هو عمّي، بسبب الحَوَل في عينه، فكنّا نتهامس أنا وعفاف ونحن نضحك. فمن الجائز، بدلاً من أن يطرق عليها بابها الأصلي، يغلط ويذهب رأساً لفيلّا الجنرال، يسأل عنها، فتجيبه زوجته التّركيّة.

الضوء الخانس والعباءة الوبر والرأس المشدود بغطاء، لم يظهر منه إلا نصف وجهه، وهو يودّعها في ساعة متأخّرة من الليل قبل أن يكشفه هلال ابنه أو أحد سكّان الشارع والحَيّ. نباح كلاب الكُلّيّة كان بطل تلك الليلة، دكتور .. فلا أحد يتحاشى ظهور الأبطال. من الجائز، كان منظر السّيّد أيّوب قد أخافهم، فاستجابت كلاب البيوت والشوارع الفرعية والقصور والفيلات لهذا الحَيّ، والأحياء المجاورة وبصورة لا تُطاق، فتحولت الحالة إلى نوع من الرعب، وأحدثت اضطراباً ممّا جعل سكّان البيوت ينيرون الشبابيك والطارمات، والطوابق العليا كلها، بغرفها كلها وصولاً حتّى للحدائق الجوّانيّة، فخرج بعضهم وبأيديهم كشّافات للضوء بأحجام مختلفة. وعلى مرّ الدقائق، تحوّل النُّباح إلى نوع من العُواء الذليل والمريض، كأنه وباء يتقدم ويمشي في الطريق العامّ من شارع التانكي إلى .. باقي الفروع ..

فهذا الحَيّ مكان يجمع شخصيات ومسؤولين وعسكريّين وأطباء ومهندسين وقادة من الحزب ووزراء، وفاذرية ما زال مقرّ سكنهم في كُلّيّة بغداد، والوالد خاتل بين أشجار الفيلّات النازلة أغصانها للشارع العامّ، لكي لا يتعرّف عليه هذا الحشد من البشر الذين خرجوا من بيوتهم. كنتُ أرى بمفردي كل شيء، وكنتُ إذا ما مددتُ يدي إلى سروالي، حسبي أن أسمع قطرات البول بأُذُني، فتساهم في راحتي الأكيدة. ظهر بضعة أفراد من جهاز الأمن العامّ، وربمّا من الجيش. لاحظتُ بعض النجوم البرّاقة فوق أكتاف ثلّة من أفراده، أو ربمّا، تراءى لي. كانوا يتكاثرون، ويطلقون الرصاص، ويصطادون تلك الأجساد الضامرة النحيلة المريضة والخائفة مثلي، فأبلوا بلاء حسناً حتّى توقّف النُّباح نهائيّاً مع توقّف القطرة الأخيرة من إفراغ مثانتي. شاهدتُ افتخار وهي تلفّ أوّل مَرَّة العباءة على رأسها، وتقف بباب فيلّتها .. عفواً، دكتور، لم أستطع تعداد الجثث التي أُعدمت، كنّا نقف في صفوف كما هي صفوف الدموع التي كانت تتلألأ في عتمة الليل. في تلك الليلة، لم يعد ذلك الهلال إلى البيت، ولم أشاهد أحداً من سكّان الشارع والمدينة والمدرسة. بقي صديقي وزميلي في الصّفّ سمير، الوحيد الذي رغبتُ أن أخاطبه قبل رحيلي، لكني عجزتُ عن ذلك، مررتُ بجوار بيته، ورفعتُ رأسي إلى غرفته وقلتُ:

أسعدتَ مساء، يا صديقي الوحيد.

بعد شهور طويلة جدّاً، بعثتُ له بطاقة بريدية من المملكة المتّحدة التي فررتُ إليها بعون من الأستاذ صميم، جزاه الله خيراً، وتلك قصّة أخرى. ومن دون ذِكْر اسم، ولا عنوان، وباللغة الإنكليزية، وعليها صور لكلاب تلاعب جراءَها، وهي خارج جلودها الجِلْدِيَّة والمعدنية، وأقفاصها الحديدية. نعم، دكتور، لا تتفاجأ فيما لو عرفتَ، أنّ لدي سبباً مقنِعاً، وأنا

أعرف أن موضوع الشّرّ لم يكن هو البول ولا إعدام الكلاب. كان قد حصل معي أمر مُسلّ وصل حدوداً أن جعلني لا أرفع رأسي وأنا في إنكلترا، هو:

زواجي من سيّدة شبه خرفة وثرية، أجمع لها كلابها الأربعة للقيام بنزهتها يوميًّاً، وصون حياتها، والعناية بصحّتها، واستحمامها اليومي، وتنظيفها من البول اليابس، ورفع غائطها من الشوارع، على شرط أن لا يُسمَع لي صوت.

الفصل الخامس
نعم، المرض موجود، لأنه ضروري

الدكتور كارل فالينو

ابدئي من أوّل السطر من فضلكِ. يا آنسة، التاريخ مهمّ، تاريخ الميلاد. تاريخ بدء تعارفكِ بكيوم، إذا شئتِ، يونس، وياسين وطرب، وباقي أفراد عائلتكِ. أليس هؤلاء الرجال والنساء هم الذين يفلتون من لسانكِ، ويتحرّكون بيننا، فتحضر بعض الأسماء من حين لآخر؟

هكذا، أيّها الأساتذة، يطيب لي الرّدّ على بعض الاستفسارات التي وُجِّهَتْ إليّ من طرفكم، بعضها يظلّ عالقاً في ذهني. إجرائيّاً، لستُ مخوَّلاً أو مُلزَماً برفع تقريري الطّبّيّ مع إدارة المستشفى التي كان لي فيها عيادة ومقعد ومرضى، فأُعيده إليكم. أمسك يدي الآن، وأشرع في كتابة شيء مختلف. نعم، نعم، أتذكّر الآنسة إيّاها جيّداً ؛ عفاف أيّوب آل، والكلمة الأخيرة لم أفهمها. حاولت شرحها لي، فتضاعفت غموضاً. أجل، موافقتي جاهزة للزيارة، لكنني اليوم رجل عجوز، أمسك العصا في يدي اليمنى بدلاً من القلم، مساعدتي القديمة التي كانت عشيقتي، وهي اليوم زوجتي، أقول هذا، فالسّيّد صميم تعرّف عليها من قبل .. اليوم هي التي تقوم برعايتي، وقد صارت مُسنّة أيضاً، لكنها أكثر حيوية منّي. عليكم بدعوتها لطفاً، فلن يكون بمقدوري الحضور دونها.

أنا منحاز لتلك الآنسة، منحاز لمرضها حتّى. عليّ أن أشرح الأمر قليلاً؛ نحن نُضيّع الكثير من الوقت في تحديد سياج العقل وحدوده، ولا نستسيغ ما يُطلق عليه بحالات الهوس والهستريا والاكتئاب والفُصام، ففي أحد

المؤتمرات التي أُقيمت في لوزان في منتصف التّسعينيّات كانت لديّ ورقة صغيرة، عليها بعض السطور منها؛ (إن ما يحصل لنا لا غنى لنا عنه)، ولكنْ، قد لا يستلطف الآخر طريقتنا في استخدامنا لذواتنا، إن الجنون في أدنى حالاته، ولنقل ذلك منذ البدء، موجود لدى كل امرئ، متكوِّر في بقعة في ألياف الجمجمة، وعلى غير موعد يتسلّل، ينحسر ويكشف عن مكانه. الآنسة عفاف كانت لديها كلمة مخيفة، لم أصدّقها في بادئ الأمر، لأنها علمية جدًّاً، ولا أعرف من أين توصّلتْ إليها، هل قرأتْها في بحث، وهذا غير معقول، فالبحوث من هذا الوزن لم تُترجَم وتُنشَر في الصحافة، أم أن حالتها النَّفْسيَّة جعلتْها تتوصّل إليها، عندما قالتْ لي في إحدى الجلسات، وبصوت هادئ، وربمّا طفولي:

الجنون موجود، دكتور، لأنه ضروري كالعقل.

ظلّت تضحك بطريقة عبقرية، فلم أصادف مخلوقاً توصّل إلى هذا الحدّ من اليأس الهادئ، كما وصلته عفاف في تلك الجلسات. فجعلتْني أتساءل بدوري وأنا أقوم بفحص أفراد عائلتي جميعهم في رأسي: والدَيّ وزوجتي الأولى وهذه العشيقة التي ما زالت كما هي، فلم نتزوّج إلا مؤخّراً. أصدقاء وصديقات المهنة، الجيران وصاحب المكتبة والخبّازة .. و.. فهل هناك أمراض تتربّص بنا، فنقع في حبائلها، ونكون موضع شفقة؟ وهناك أمراض ذات مواصفات نوعية، وليس بمقدور الجميع الإصابة بها، فما عليكَ، والحالة هذه، إلا تقديم الحجّة: بأنّها مفصَّلة عليكَ، بلا زيادة أو نقصان ..

وعفاف من أيّ فريق؟

أعتقد جازماً، وأنا لم أُصَبْ بأيّ نوع من أنواع الخرف، يا سادتي

المحترمين، أن الآنسة، لم تحتج إلى أيّ أحد آخر. لم تحتج أيّ شيء من أيّ فرد في العائلة، من أيّ رجل أُغرمَت به، أيّ شيء من بلدها. كانت فقط تحتاج أن تكون نفسها، فكان عليها ربمّا، أن تنتظر، لكي تُصاب بنوع نادر من الفُصام، فتكون نفسها الأولى أو الثانية أو .. أو ..

كانت أكثر المرضى العرب دقّة، بالرغم من التيه الذي تدخله وتطلع منه، فهي صاحبة لسان ساخر وفكاهي، فتقوم بالتّهكّم المُحبّب، وعلى صور شتّى. فأنا لا أعرف معنى اسمها - عفاف - فقالت لي في أحد الأيّام شارحة إيّاه:

لماذا يكون لازماً عليّ، دكتور، بقاء اسمي عفيفاً نظيفاً، ويلمع كالحذاء الجديد، فيُصدر صريراً كلّما اقترب رجل منّي، وأنا ألتقي به في أيّام العيد والمناسبات؟! .. ها .. لماذا يتعرّض الاسم للتهريج، فيغدو كالحذاء يضيق أو يتّسع على القَدَم وصاحبه وحسب المناسبات الوطنية والغرامية؟! .. هيههه ..

كنّا نصغي للتحليلات، وفيما بعد، كان الطّبّ الحديث يؤكّدها، وهي تُجاهر بها، وعلى صور شتّى للفكاهة فقط:

لا تُصدِّقني، دكتور، إنْ أخبرتُكَ أن قَدَمي تكبر كل خمس دقائق، فكنتُ أتمنّى رضاها عنّي، فأصير على قياس القندرة الجديدة .. ها ها هههههه..

كانت تضايقها فوق التّصوّر كلمات مثل:

هل أنتِ مهاجرة؟ أم لاجئة؟ أم مَنفيَّة؟

فتُطلق قهقهة ساخرة، وهي تجيب الدكتورة مليكة إدريس قائلة:

أرى نفسي في الحالات الثلاث وأكثر، مربوطة اليَدَيْن من الخلف، ووجهي نحو الحائط، والجدار ممتلئ بثقوب من الرصاص، لكني أسير في شوارع مدينتكم الجميلة التي تُشعرني دائماً أنها في صدد تقويمي وتصحيح شيء ما في وجهي، أو رأسي أو ملامحي أو لساني، دائماً تُذكّرني، أنني نسيتُ شيئاً ما هنا، فأنكس رأسي، وأبصر قَدَمَيّ، وأنا أحبّهما جدّاً جدّاً .. فعندما نترك بلدنا، يا تُرى، هل تبقى أقدامنا هناك، ونحضر بعكّازَيْن لطيفَيْن يُثيران الشفقة في نظراتكم إلينا .. ربمّا، نحضر بقَدَم واحدة فقط، وضدّاً لإرادتنا، ونترك الثانية هناك، وأيضاً ضدّ إرادتنا. انظرْ جيّداً لمشية أيّ عربي مهاجر أو مَنفي، دكتور، له طريقة في المشي تدفع به للحائط، فلا يستطيع أن يكون في الوسط ..

كانت تضحك بصوت مسموع، وتواصل: أأستطيع أن أفرز العشرات والمئات والألوف من العرب والجنسيات الأخرى أيضاً من وسط الملايين بواسطة مشيتهم الخائفة المتردّدة المتهدّلة كئيابهم؟ غطّوا رؤوس الغالبية، فأقوم بالعمل على أكمل صورة.

بينلوب وعوليس

لم تكن سعيدة في المنفى، ولم تحنق على بلدها، فكانت وحيدة في المكانَيْن، وهذا ما استغرق أعواماً طويلة، جُلّ حياتها. نعم، هي فنّانة من طراز خاصّ، متميّز. فكانت تنمو بجوار فروع الشجرة الكبيرة للفنّ العظيم الذي عثرت عليه في متاحف باريس. لم توافق على قول:

ها، ألا ترين نفسكِ محظوظة؟

فتجيب بصوت خفيض وبعيد:

هذه المدينة لا تمنح رُبْعَاً أو جُزءاً من الحظّ حتّى. هي مدينة مستبدّة، تدوس على أصابع اليَدَيْن، وأحياناً القَدَمَيْن، فيما إذا تهاونَّا مع النفس. وها أنا أرى نفسي مريضة، وكأنني أستحقّ ما أنا عليه عقاباً على نباهتي، ربّما.

بَغْتَةً ترفع رأسها، وتنظر في عينَيّ:

غريب أمركم، دكتور، أعني أجدادكم الإغريق، عندما كان يتمّ التركيز الشديد لتطويل فترة الحنين عبر عائلة عوليس وزوجته المستسلمة وطفله تيليماخوس، فيتمّ تصعيد احتياجات المحارب للتعويض عن الأوقات السَّيِّئة والخسارات المتوالية في الحروب، فغدت إيثاكا، شخصية سَرْدِيَّة مُهلِكَة لمَنْ يتنظر الوصول إليها. فنرى عوليس يجرجر قَدَمَيْه "كصيّاد مرتحل"، وهو لا يملك ما يعارض به القَدَر، والمدينة على بُعد إصبع

منه، فلا يصلها. يتجمّع في فمه ما لا يقال، فلا يتفوّه بكلمة .. فهل تغيّرت الطريق إليها؟ أم غادرت إيثاكا، وارتحلت؟

فحسب خطاب هومير، الوقت يفلت من بين ذراعَيْه، والزوجة لا تغادر خرسها، العابر للخرساوات المكتئبات المنتظرات جميعهنّ دونما غفوة ولا نوم، وعلى طول سَرْدِيَّة التاريخ، ألم تشاهد يدها يوماً، دكتور، وهي تفكّ كبّة الخيوط تلك، وتعيدها؟ فبماذا تُذكّرك؟ كلاّ، ليس بالحكمة والصبر؛ بالتّسوّل وبالعوز رسمت يدها، وهي تتسوّل ظلاّ لعوليس، وهو ينهض مبتهجاً من بين أحضان "كاليبسو". ما الذي نراه فيها؟ اليد، والذراع، الأصابع والكفّ والرُّسْغ. يدان هاربتان، ويُغمى عليهما دائماً، فتقرع الأجراس، لكي لا تتوقّف عن تلك التعاسة.

في إحدى المَرَّات، يا عزيزي أستاذ صميم، وصلتْنا عفاف في عربة الإسعاف، وفي ساعة متأخّرة من الليل. أُعطيَتْ مُنوِّماً حتّى حضور الأخصائي. لم تكن تحت إشرافي، لكن المستشفى حوَّلها إليّ. رفضتْ زيارتي في البداية، فقمتُ بالمرور ومراقبتها وهي نائمة. كنتُ أزور باريس في العطل والإجازات، وها هي أمامي تلك الآنسة الغريبة والجذّابة، التي توقّفت زياراتها لعيادتي الخاصّة في شارع جاسمان، بعدما، تأكّدنا، هي وأنا، أنها في طريقها للشفاء .. فماذا حصل بعد سفري وغيابي؟ كان التقرير المكتوب عنها مؤذياً وقاسياً. وضعوا في كيس بلاستكي خصلاً طويلة من شَعْرها وقد قطعته لا على التعيين، من أمام، وجنب، ومن الخلف. وكانت بشرتها ما زالت تحمل ندوباً غائرة، بعضها تُرك للهواء لكي تجفّ، ووضع فوقه مسحوق أبيض، والبعض كان خفيفاً على مستوى سطح الخدَّيْن. رموشها، على وجه التقريب، كانت في الحدّ الأدنى، فهي غير موجودة. لقد وقفت في الفراندة بعد أن حاولت أن تقذف بنفسها إلى الشارع

العامّ من الطابق الرابع. كان الحدث قد بدأ،وهي تظهر يوميًّاً في الفراندة، وتقوم بالغناء أغاني عربية، وبصوت عالٍ، وفي ساعات متأخّرة من الليل، ثمّ يتحوّل الغناء إلى أصوات هستيرية، ونداءات وصراخ، ثمّ تعود للغناء .. وتبدأ بضرب رأسها في الحائط، فتصل حدّ الإغماء، فيصعد رجال الإطفائية مادِّين سلّماً من الخارج، فيجدونها مُدمَّاة ومُغمَى عليها. وما إن تفيق قليلاً، فتصرخ باسم:

كيوم .. كيوم.

هل سبق لكم، أو لأيّ واحد منكم أن سمع بهذا الاسم؟

تأكّدتُ من شفائها من السّيّد ياسين على سبيل المثال، والذي سنأتي على ذِكْره، والسّيّد يونس كانت تودّ الاحتفاظ به إلى أوقات غائرة، لكي يبقى في مكانه الذي لا تعرف هي أيضاً، هل يظلّ بمفرده؟ أم ذهب إلى غيرها؟ فكان يرد اسمه وهي تتلقّى فيه العلاج، فتقوم بتصفّح أعوامها في الأكاديمية بطريقة بالغة اللطافة، وبها شيء من التعاطف والحنان، فتقول:

لو بقيتُ في تلك المدينة، لمددتُ يدي له، وبحثتُ عن روحه، ففيه جانب صغير يُشبهني: الشقاء الذي يحمله كعبء، وليس مثلي كمزية.

أستاذ صميم، سنلتقي بالسّيّد يونس أم لا، ونحن ندخل هذا المشهد من جانبه الفنّيّ؟ هل سأراه؟ وأخمّن أنه سوف يسألني:

هل تعرّفت عليّ الآنسة عفاف أمامكَ؟ هل قامت بشتمي مثلاً، دكتور، كما كانت تفعل هنا حين نتمشّى ما بين الجسر الحديدي والكورنيش..؟

أريد أن أرى السّيّد يونس فيما إذا حضرت. أتمنّى أن أبقى حيًّاً ومتعافياً، لكي أصلكم وأنا على ما يرام.

لا أعرف ما هي خططكم جميعاً، لكنني كنتُ أعرف خططها:

أن لا يقوم أيّ أحد بإسعافها ممّا هي عليه، فتجلب مَنْ تشاء إليها، وتصرف أيّامها كلها في المشفى، وهي تمكث أمام مسند الرسم. نعم، جلبوا لها هذا، وبعض الأدوات غير الجارحة، وعندما تقوم بالتخطيط، وتطلق روحها في اللوحات، كانت تخلد للنوم بطريقة مريحة، ودون الاستعانة بالدواء. ذهبت للإغريق وحروبهم كثيراً، فكانت تضحك بصوت لطيف، ونحن من وراء الإفريز نحاول أن نصغي وننظر إليها، على الخصوص، عندما أكون أنا في زيارتي الخاصّة للاستشارات المصادف يوم الأربعاء. تحسّنت كثيراً، وعرضت عليها الزيارة في العيادة الخاصّة، إذا شاءت.

كانت تندفع في وضع الأشكال والحجوم، وهي تبعث الضحكات لمَرأى كائنات اللوحة، فتضع بينلوب في الكادر الأسفل من اللوحة، وتخاطبها وهي تحفر على خصلات شَعْرها، فتدعه يصل إلى أخمص القَدَمَيْن، فتكلِّمها بصوت هادئ، وكأنها صديقة قديمة لها:

اعتدتِ أن تبقي ساكتة كالموتى، وأنتِ على قيد الحياة، هل يعقل أن لا تتفوّهي بكلمة عبر الملاحم والكُتُب والحروب كلها التي مررتِ بها، أيّتها السّيّدة المضجِرة الحزينة، المسهدة والمريضة مثلي. والسّيّد عوليس، ينتابه دوار البحر وغثيان وقيء وضيق نَفَس، فيُنهِك جسده، ويُتعِب بصره، فلا يبلغ بيته، ولا بطن امرأته .. ولا يلبث أن ينصرف في كل مَرَّة لزيارة تلك الحسناء.

ما هذا، أيّتها السّيّدة التي لم تقف بجانبها إلا كبّة خيوط رقيقة، وتجهل متى بمقدورهم أن يُوثِقوا بها يَدَيْها وساقَيْها ولسانها؟

يغتم صوتها، وما إن نحاول مشاهدة اللوحة، فنرى: لحية عوليس طائرة في الهواء كأنه مدرّب في سيرك، وأمامه رجل عصري، يرتدي الشورت وتي شيرت، من الجائز، أنه كيوم، وهو شديد الهزال، وما إن يبدأ بالقيام، فتخرج من قوائمه بعض الأشياء التي لا نعرف ما هي ...

كانت تبتعد قليلاً، لكي ترى اللوحة. وفي الأسبوع الذي يليه، تبدو هادئة. تأخذ قدح الماء الذي أمامها، وتُبلِّل ريقها وهي تقول، كأنها تواصل كلاماً انقطع، فلا تعرف مَنْ يكون الواقف قبالتها:

أنا تابعت عوليس وزوجته. قمت بدراستهما منذ سنين دراستي في البوزار. الحقيقة التي شغلتْني هي الزوجة التي لا أظنّ أنهم استدعوا لها طبيباً أخصائياً، أو سمح لها بدخول المستشفى الحكومي مثلي. لم يتفقّدها إلا طالبو الزواج، فالتاريخ لم يدعنا نراها غاضبة، أو على وشك العصيان على سبيل المثال. هل انتبه المؤرّخون، أن هومير جعلها لا تُغمض عَيْنَيْها؟ .. أنا أحفظ تفاصيل المعارك، وعوليس يُسرِّح شَعْر تلك الحسناء بعيداً عنها، كما انتهى كيوم. نعم، فما إن أضع رأسي على المخدّة حتّى يحين موعد الألم وكيوم، فأفزّ عند منتصف الليل. أشعل البخورفي أركان الفراندة جميعها، لكي يشمّها وهو قادم من بعيد، وأبدأ بالغناء، فالرجل يطرب لصوتي، وأنا لا أسمع صوته. وهو لا يهتدي إليّ، ولا يجيء. رسمت الحكاية عشرات المرَّات. يداها وهي تدفع كبّة الخيوط لحجرها، ويداي وهي تحوم على جفني سهواً، لكي تغلقهما .. تُرى، هل أُصيبت يداها بالتّشنّج العضلي من الانكباب على الخيوط؟ هل تذكر؛ دكتور، يَدَيّ، أوّل عضو أُصيب عندي بالانكماش، وليّ الأصابع؟ أمن أجل هذا هجرني كيوم؟ فَمَنْ سيعبث برأسه ويفكّك خصلات شَعْره؟

هدأت بعد ذلك عفاف، ولوقت طويل أستاذ صميم، عندما أكملت معرضها، وهي في المستشفى. قدمت متوالية من حكايات الشرف والواجب والنصر التي دفعت هومير لتدوين الإلياذة والأوديسة. طلبت أن يكون الافتتاح في ساعة متأخّرة من الليل، وفي رَدْهَة، أفرغت من المصاطب الطويلة الخاصّة بالمرضى، قامت بتغطية اللوحات جميعها بشراشف بيضاء. بقيت جانيت والدكتورة مليكة والبستاني، هؤلاء كلهم مَنْ قام باللّازم في رفع اللوحات ذات الحجوم المربّعة الكبيرة نوعاً، ووضعها على الجدران. وما إن بدأت بسحب الشراشف، وبالتدريج حتّى خرسنا عن النطق. كانت أشكال بينلوب شديدة الشّهوانيّة والخلاعة. وضعت في حجرها مجموعة من الأعضاء الأنثوية محفوظة في زجاجات مليئة بالأفاعي ويد ما، تقوم بالعبث بها، فبدت متهتّكة، نظرات عَيْنَيْها جاحظة، وهي تقوم بالبحث عن أسيرها. كانت، تقريباً وحدها، والسّيّد عوليس، أمامنا كالهيكل الفارغ، مجرّد عضلة على صدر فارغ، وعلى جِلْده وبر، وشقوق تملأ ذراعَيْه. وهناك شخص آخر، صعلوك، متشرّد يتقدّم خطوة واحدة على عوليس، لكنه مطأطئ الرأس، كيوم، كأنها تأمره بالتّقدّم وعدم التراجع .. فكان الاثنان يمتثلان لأوامرها، لكنهما لا يصلان إلى أيّة واحدة منهنّ.

نعم، أيّها الأصدقاء، كان المعرض فريداً وغريباً ووقحاً حقّاً، فقد تدرّبت على تفكيك الأساطير، فسمحنا لها طبّيّاً وعلميّاً بالخروج. فوقفت أمامنا وهي تنقل المعرض إلى كاليري - سفن / 7 -. فنّانة مقتدرة، تدرك ما كان يدور فيما بيننا من نقاش، وهي توافقني قائلة:

"عملية الإبداع" أبعد من السماء، دكتور، وكل شرفه أصلها تضاء،

فأحسب أنني نجوت، أو وصلت إلى الجواب الأوّل، لكن الأطياف تتبعني، والكآبة تنهض مثل ظلّي، فأعاود من جديد، من أوّل الطريق.

واجهت باريس الخطيرة بمعجم عوليس وكيوم .. ويوم دعوت أحد أهمّ وأشهر نقّاد الفنّ لزيارة المعرض، كتب في دفتر الزّوّار كلمة واحدة، تحفة:

.Chefd'oeuvre

عفاف الشخص الوحيد الذي أنتظره

ملحق خاصّ لـ: الدكتور كارل فالينو

خطاب رَقْم 2

سندع الأمر محتمل الوقوع، وهو؛ كنتم تشغلوننا بكم، وأكثر الأحيان تُزعجوننا في ألعابكم. كنتُم بالفعل نزلاء معنا، تمشون في دم وألياف عفاف، ودائرة حياتها، فكانت تفشي أسراركم كلّما سنحت الفرص. فنلمح أطيافكم واحداً بعد الآخر، ونكتشف رويداً رويداً خطوط الملامح، ولهجة المعارضة التي توجّهها لكل واحد منكم. فهي تعارض بدون انقطاع. لماذا أعود وأُدوّن قسماً آخر، عزيزي الأستاذ صميم، فقد حضرتُ بعض الوقائع ودون إرادتي، فبدا الأمر لي ولزوجتي، كأننا جميعاً في حالة من انقطاع الأنفاس. في أحد الأيّام، كتبت لطرب، وبعد زيارتكما معاً لعيادتي في شارع جاسمان في الحَيّ السادس عشر. لم تزل هي كما كانت، ولكن سكنها ابن زميل لي طبيب شابّ ... وكان ذلك في العام 1987. كانت لغتها الفرنسية بدأت تتحسّن كثيراً، فتكسب بضعة فراسخ أمامي، ونحن نتحاور في الفنون. هذا الأمر دائماً كان يشغلها، فتندفع من معرض لآخر، وتعرّض عليّ خلاصة ما كتبتْه لطرب قائلة:

"أخبرتُها، دكتور بعد إذنكَ، إنكَ على دراية تامّة بإشكالية الإبداع أكثر من أستاذها فايق حسن في أكاديمية الفنون الجميلة في بلدي. سوف أشرح قائلة قبل أن تقول عنّي، إنني عاقّة مع أساتذتي. فأنا أرى الأمر، أن

هناك رسّاماً موهوباً مثله مثل الطّبّاخ الذي يجيد طبخة واحدة، ويعيد ما يراه إليها. وهناك طبّاخون، يُحوِّلون كل شيء إلى طعام لذيذ. لكنْ، هناك طبّاخون لا يجيدون إلاّ طهي طبخة واحدة بحدّ ذاتها. أستاذي فايق حسن، درس في البوزار، قرأتُ اسمه في الأرشيف، وشعرتُ بشيء من الزهو. يا دكتور، أستاذي لا يجيد إلا طهي صحن واحد لا غير، أعني هو حرفي فقط. وهناك مبدعون فوق الحرفة، كما هو الحال مع بيكاسو ومشاهير الفنّانين".

كنّا نشعر في المشفى أن هناك صراعات خفية بينها وبين طرب، وعملنا، أنا لا أعرف بالضبط لمَنْ أُوجّه هذه الهوامش والتفاصيل، إليكَ؟ أم ستطالعها طرب زوجتك أيضاً؟ فأنا أكتب ما أشاء، كما لو كانت هي اللقطات الأخيرة المطلوبة من المخرج، وضعها قبل إسدال الستارة. بقيت تتناقل لي، أو يكتب عنها في التقارير، وعن أحوالها، في الحواشي أو توضع في ملاحق على حدة: ظلّت السّيّدة طرب تخاطبها بالهاتف في الأعوام الأولى من دخولها إلى المستشفى، وكان ذلك بعد سفري ببضعة أعوام، ربمّا إلى منتصف التّسعينيّات. هكذا حصلت على معظم أرشيفها. كان يُنادى عليها وهي في غرفتها الانفرادية. في البداية وضعت هكذا، فهذا أسلم لها بالدرجة الأولى وللجميع. كانت الممرّضة جانيت بارعة في تهدئتها، فقد بقيت قادرة على الكلام والصراخ والغناء. نعم، كان مسموحاً لها بالخروج من غرفتها، تمشي بهدوء، وتصل إلى الهاتف، وترى السّمّاعة على جانب من الطاولة بانتظارها، لكنها ترفض المحادثة. في طريق العودة إلى غرفتها، تبقى تردّد كلمة، كنّا نشعر أنها تحوّلت إلى لازمة ساكنة تحت لسانها، واستطعنا ترجمتها فيما بعد إلى:

تفاهة. تفه .. كل هؤلاء تفه، ما عدا طبيبي مسيو فالينو .. أين الدكتور كارل؟ سأغلق أمامكم الدائرة عليّ، فنصير أنا وعقرب الساعة

نمشي ونقف حسبما نشاء نحن، لا كما يشاء هؤلاء، فلا أسمح إلا للدكتور فالينو بإنقاذي.

ظلّوا يُسجّلون ذلك كنوع من الأدلّة، وهذا هو حال كل مريض، وما إن أزور باريس والمشفى في الإجازات، فنتلاقى أنا وهي .. لم تنسَ أحداً ونحن نراهم يتوافدون، فتذكرهم جميعاً، إمّا كقصّة في موقع تريد أن تتحقّق من وجود أشخاصه . في حركتي ذهاب وإياب في تجلّياتها العقلية، أو هلوساتها، وإمّا، أنها في الأصل تريد أن تكيد لبعضهم لسبب من الأسباب سيتوضّح على طول ساعات الجلسات مثل ياسين وطرب، حتّى هلال شقيقها بقيت، لا تريد ذكره، ولا تريد أن تدلّ عليه، أن لها أخاً واحداً. كانت تخشى من عبوره الشحيح في حياتها، فأطلقت على علاقتها به، تلك التي بترت لأسباب خارجة عن إرادة الجميع:

أي هلال بمعنى الأخوة، عليّ أن أقتطع لك بعض المشاهد، فأجعل منها ملحقاً تقدر أن تقدّمه للعلاج النَّفْسيّ. كنّا نتجنّب أن نقع معاً فريسة للآلام المتوحّدة، لسَقَام يصيب الأخوة والأخوات، وتحوك حوله عشرات القصص والعلامات، وأنا أمامكَ الآن، دكتور، جالسة ورأسي منكس، ولا أفهم تلك العمليات التي تجري في دماغي؟ كنّا نذهب أنا وهلال وخالتي سنية في رحلات مرتجلة، وندور في ضواحي الشوارع الفرعية من شارع التانكي حتّى يظهر الشاطئ الآخر ووحده أمامنا عارياً أملس. فكان هلال يدندن أغاني البيتلز، وأنا يشقّ صوتي بلعومي ويرتفع بمقطع تهواه سنية، لأُمّ كلثوم. هل سمعت بهذا الاسم، دكتور؟

تبدأ تدندن أمامي، وأنا لا أفهم إلّا أن صوتها جنوني في فتنه وقوّته:

"ده أنا لو نسيت اللي كان

وهان علي الهوان
أقدر أجيب العمر منين
وأرجع العهد الماضي
أيّام ما كنّا احنا الاثنين
أنت ظالمني وأنا راضي"

فريق العمل

لم أرَ أحداً منكم إلّا وهو واقع في شباكها. الجميع في مواقع وعلى درجات، وما علينا، أنا في البداية، ثمّ تولّى الأمور غيري، وهم كُثُرٌ. أعرف بعض المسارات والخطوات، فالبدايات، إذا جاز لي القول، كانت مثالية؛ بمعنى، عفاف مريضة، طبعاً بالمعنى العيادي، لكنني أستطيع أن أضع عناوين فرعية؛ ما بين السهل والجبل والوادي، وبعض الفصول تسلّم لغيري. إذاً، فلنقل إنها مريضة تحمل أفعالاً مبتكرة، درامية، فقد انفجرت في أحد الأيّام، وبدأت تعزف بلسانها ألحان الإسباني الشغوفة به، مانويل دي فايا، أو تقوم فجأة، فتؤدّي بعض الحركات الخارقة ببدنها وذراعَيْها، وهي ترفعهما إلى أعلى، فتصدح ببعض المقاطع لماريا كالاس، ثمّ تجلس وتسأل:

ماذا نفعل، دكتور؟ أنا أريد الالتفات إلى وراء، وليس لديكم إلا هذا العناد في جعلي ألتفت، فلا تستغرب ممّا أرى وأعيده أمامك، فنحن النساء أصعب منكم، ولهذا السبب نحن، ربّما غير جديرات بالثقة. إننا أصعب في العلاقات مع بعضنا أكثر من علاقات الرجال مع بعضهم الآخر.

فتبدأ بسرد بعض الوقائع مع طرب:

أجل، دكتور، هي مهووسة بصورتها، أو رمزية تلك الصورة أمام الآخرين.

المكياج، الثياب، الجواهر، الأحذية المرتفعة، التنانير القصيرة جدًّاً، الاستعراض الذي لا يحرّف النظر عنها، وهي تعيش المغامرات في الرأس والحُلْم، وليس الواقع، بمعنى إضافي، دكتور، طرب تعيش خارج ذاتها.

في أحد الأيّام، قالت لي طرب كلاماً، قهقهت بعده طويلاً، يا دكتور:

هل تُصدِّقينني، يا عفاف، إذا أخبرتك بأنني أغار منك، ومن درجة الانقضاض التي تقومين بها على نفسك، لكي تفوزي بها، فتسخرين من الأصحّاء الأغبياء جميعها، ونحن ما زلنا بعد في المرحلة الثانية من أكاديمية الفنون الجميلة. دعيني أقول لك أمراً، ما زلت لا أعرف تفسيراً له:

هل تتحايلين على متاعبك الروحية والنَّفْسيَّة بالغناء والرسم والتصميمات التي تقدّمينها للأستاذ معاذ الألوسي؟ فتقومين بنقل وجوه وشخصيات أبطال الكُتُب والروايات والملاحم، فتُؤثرين الحياة بجوارهم ومعهم أكثر ممّا تعيشين معنا؟ هل تطمسين رغباتك الخفية، وجروحك من ياسين ويونس، وحتّى مع الأستاذ معاذ، بهذه البورتيريهات والتحليلات النقدية والفنِّيَّة الصارمة والدقيقة جميعها لأعمالنا جميعاً، وأنت ما زلت طالبة، فبتنا نحسدك كلنا، وبدون استثناء.

فيما بعد، بعد ذلك بأعوام، وضعت إشارة رفض للقاء بطرب، فيما إذا حضرت لزيارتها في باريس. كان هذا كما تعلم في أواخر التّسعينيّات على ما أتذكّر، وأنا أراجع التقارير. كانت تحسّنت كثيراً، وتسرّب الرجال الأوائل منها، انطلقوا في مواعيد متفاوتة. أنغام بعضهم نشاز، وبعضهم خافت، والتالي عالي النبرة. هل كانت قصص الحبّ حقيقية؟ فالسّيّد ياسين وضعناه في مقدّمة المسرّات القاتلة، ولكنْ، أين كانت تتمّ تلك

اللذائذ؟ في غرفته في الطابق العلوي والنهر دائماً يؤلمها، وهي تجلبه إلى لسانها، كأنه خدعها مثل ياسين. فكانت تراه من مبدأ؛ أن المياه تصلح دائماً أن تكون مرجعاً للموت، أو مفهوماً فنِّيَّاً ونَفْسيَّاً، ولكنْ، لا تملك أدلّة إلّا غرفة ياسين الذي كان يجعل الرغبة لديها تتوسّع، كما كانت ترى اتّساع مجرى النهر بدءاً من مسامّ البشرة وهي ترفع كُمَّ قميصها، وتبدأ بعصر جِلْدها أمامي حتّى يكاد الدم ينفر منه، فتقول:

ياسين كان يدخل من المسامّ، وينتفخ في الشَّفَتَيْن، ثمّ يصل إلى وجهي. هو لا يراني، دكتور، ولا يمسك خصلة من شَعْري، ولا ينفخ الهواء في وجهي حتّى، فأشمّ بخاره ونفسه. رسمته بالدشداشة المقلّمة القصيرة على بنيته الطويلة، فكنت أرى شَعْر ساقَيْه، فأبرزه في اللوحة، وأنا ألمسه، وأكاد أجزّه، فيكاد يصرخ أمامي، ويطلق عليّ ألقاب الطفلة الوقحة المزعجة التي تُفسد الأمور بالغناء والرسم، وهي لا تفهم أيّ شيء. كان شيوعيَّاً، دكتور، كما يقول عمّي مختار بدوام كامل، وهو يصف نفسه لا ياسين. فتذكّرت ذلك الوصف، فلم أر أدقّ منه على ياسين، فهو لا يطلع من النظريات والكُتُب والمنشورات، وأنا أقوم بالتخطيط له ولغرفته في أجزائها كلها، المكتبة والثياب والخزانة والستائر والسرير الذي كانت تفوح منه رائحة لم أشمّها من قبل إلّا في سرير عمّي مختار، فيما بعد عرفت أنه الاستمناء. فقرّرت بعد ذلك أن أرسم هؤلاء الناس الذين هم بالفعل عائلته الخاصّة، فكلهم يعيشون في روسيا .. فماذا سأفعل إذا ذهب وراءهم، وعافني. فبدأتُ أسأل خالتي فتحية عنهم، فكان حديثها في البداية بدعوة، أن الأمور لن أفهمها في سنّي الصغيرة، فقد كنتُ في الرابعة عشرة وهو في الثامنة عشرة .. إلخ.

بعض التخطيطات جلبتها معها، هكذا كنوع من القصاص لأوهام،

كان موضوعها الأوّل، ليس ياسين فقط. كانت الماركسية والشّيوعيّة وما لفّ لفّهما، فوضعت ذلك كله في تخطيطيات كنوع من الوثائق الفنِّيَّة، ربمّا أكثر دلالة من الشعارات التي ترفع في بلدها. عفاف جعلتني وبدون مبالغة، أيّها السادة والأصدقاء، وقبل صياغة تقاريري الطِّبِّيَّة والعلاجية، أن أذهب إلى بلدها وبلدكم. نعم، ألتحق به من حين لآخر، فأرى: أن ياسين كان أوّل سوط ضُربَت به في كل مكان من الجسد والقلب، تماماً، ربمّا من هناك استلهمت تلك اللّازمة:

تفاهة في مقابل ياسين، الفتى العشريني الشّيوعيّ الذي سخر منها، وسفّه موهبتها، ومزّق ما كان يترك من تخطيطات موزّعة في أرجاء غرفته إلى نتف تتطاير بوجهها ما إن تعود في اليوم التالي، لترى آثار ذلك، فقالت كلمة بليغة في إحدى الجلسات العادية، وكانت لم تزل في حالة جيّدة حقّاً:

ترى، دكتور، أيّة هاوية نجوت منها؟ ياسين، وأيّ عناد حظيت به فعلاً، وأنا أقوم باسترداد نفسي.

لم تجلب اسمه أمامي بعدما انتقلت من بيت السفينة إلى شارع التانكي. أمّا الأمر الذي لم تكتمه، وكان يجعلها شديدة الانفعال، وبقيت تردّده بعبارات شديدة الفظاظة في وجوه الطَّلَبَة أو مَنْ يقابلها، فكان:

مماسح للنظام. منافقون، وُشاة ومخبرون ..

لا تتوقّف لا أمامي ولا أمامهم وهي تصفهم:

أقسم أمامكَ، دكتور، كانت حواجب البعض منتوفة على عجل، وأعمارهم تقارب أعمارنا ما بين العشرين والخامسة والعشرين أو ربمّا

أكثر قليلاً. فكانت لهجتها تتغيّر ما بين السخرية والرثاء، وفجأة وقفت أمامي في إحدى الجلسات وهي تقول:

كنت قرّرت أن أضعهم في لوحات بالأسود والرصاصي، والوقوف أمامهم وسؤالهم .. نعم، دكتور، فعلت ذلك. كنت أريد صناعة معرض منّا ومنهم، ينتسب إلينا وإليهم، إلى أعمارنا وأعمارهم، أشكالنا وأشكالهم، ثيابهم الغريبة وثيابنا الأغرب.

أصابني الضيق من هذه الأسئلة كلها، وهي تضعها في مواجهتي ومواجهتها، لكن الأمر تجاوزها إلى شبه توبيخ لأشياء كثيرة، نُظم تلك الدول، قصص وأسرار البيوت تلك التي كانت تروي بعضها بطريقة مأساوية وعجيبة. أذكره اليوم حتّى لو دخلنا في شجار نظري بين العلوم البحتة والحصص التي يمتلكها المخلوق البشري من الذكاء. عفاف كانت تباغتني كما قالت في أحد الأيّام، مع الأسف ليس لي، وإنما أمام الدكتورة مليكة إدريس. وحين اطّلعت عليه أصبت بنوع من الفزع والدهشة. سجّلت الدكتورة إدريس ما يلي من أقوالها:

أحبّ في بعض الأحيان لو تقوم هيئتي بانحراف ما في الميول، في شكل جسدي، استدارة حوضي ونحافة ردفيَ ورشاقة ذراعَي، لكي تستجيب ملامحي للأخذ والرّدّ، وربمّا لما هو أسوأ، ممّا كان يحصل أمامنا وعلينا من قبَل أولئك الذين كنّا نلتقي بهم في الأكاديمية من المخبرين. فالأمر لم يتوقّف على هناك فقط، فأنتِ والممرّضات جميعاً، والأطبّاء كلهم، وسكّان العمارات، والوجوه في الشارع، وأصحاب المحلّات، والناس في المترو ومحطّات القطار، أنتم جميعاً تراقبونني، بدءاً من حركة يدي ولساني، ذبذبات جسدي والتواءات قَدَمَي وأنا أخلع الحذاء في أثناء الجلسات الطويلة السَّئِمة، وما يربط بينها وبين لغة عقلي. هل

أبدو كائناً قرديّاً عارياً أمامكم، وقد حدد موقعه للفحص والتكرار؟ هل أنا على وشك الجنون، دكتورة؟ هل شكلي وهيئتي يناديان بالضبط والإحضار؟ نعم، بدأت أؤمن أن لي جسدَيْن، واحداً لكم، والآخر بالكاد أن يتفرّغ لي. - جسدكم - الذي سحبتموه منّي كما أظنّ هو الحقيقي، وجسدي الذي ما زلت أتلذّذ بغرائزه لم يعد يطيعني مثل السابق. نعم، أشعر أنيّ ما زلتُ سيّدته، أعرفه وأقترب منه، وأتودّد إليه. من الجائز كيوم غادرني، لأنني لم أكن أُقيم في جسدي في الأوقات جميعها، فأنا أتنقّل منّي إليكم وبالعكس، فأطرد جسدي، أُهمله، فأدعه يرتحل إلى ذاك الرجل، كيوم. هو الرجل المستحيل. آه، أنتم أقوياء، وكيوم قوي مثلكم، وأنا مطمورة بضعفي.

أوّل مَرَّة يرد أمامي اسم هذا الرجل الأوربي. هل هو فرنسي؟ أم ماذا؟ هذا سؤال موجّه إليكم، بالذات إلى طرب التي يُفترض أنها وضعت اسمها في البداية كشخص وحيد، ولا غيرها للقيام بالزيارات، والمسؤولة عنها وعن أعمالها، وكل شيء، وأيّ شيء. ثمّ غيّرت رأيها. هنا تتداخل المعلومات ما بينها وزوجها السّيّد صميم، ولهذا روايات عدّة وتفصيلات، قد يكون فضح بعضها في غير صالح الاثنَتَيْن، عفاف وطرب، فهذه الأخيرة ذكرت للدكتورة مليكة والممرّضة جانيت في إحدى الزيارات، وبعد أن علمت برفض ملاقاتها، إذ قالت:

أمر غير مستغرب أبداً منها، ولست محرجة منه، فقد صرت نحّاتة وفنّانة بفضلها هي. كانت الفنّانة والطالبة الأكثر طلباً للصداقة منّي، بالرغم ممّا يطلق عنّي من ألقاب: الحسناء الفاتنة، عفاف بقيت حتّى تركت البلد، لا يعنيها أيّ أحد بالمطلق، فلم تدخل أيّ موكب من مواكب الجمعيات الفنّيَّة أو السّياسيّة، أو تشكيلات الفنّانين، ولا تأثّرت بأيّ أحد،

بالرغم من إعجابها بمجموعة من الفنّانين العراقيّيْن يُعدّون على الأصابع. هي لم تهلّل لأيّ مسؤول حزبي أو سياسي أو ثقافي حتّى لو كان السّيّد نائب رئيس الجمهورية. صميم كان يعرض عليها فصولاً من مسوّدات الكُتُب التي يروم نشرها، والأستاذ معاذ كان يستهويه، لو وضعت أيّ ماكيت لتصميم المكعّب، وأرسلته من باريس، فكان يبدو عليه الزهو.

وقفيات العوز

هل ما زالت عفاف موجودة؟

إنني لا أمزح، أيّها السادة الأعزّاء، ولسنا، أنتم وأنا في غرفة تحقيق، ولا أريد أن أتوقّف أمامكم، وأقوم بشتم طُرُق ومناهج الطّبّ والعلاج النَّفْسيّ والعصبي. نعم، هنا أنا قمتُ وتعرّضتُ للتحليل النَّفْسيّ، ولثلاث سنوات متوالية، وبعد تخرّجي واشتغالي ببضعة أعوام. وهنا عندما أتساءل فأنا لا أمزح، فقد بدأت بالكتابة إليكم، وسجّلت بعض الحيثيات، فالعوائل جميعها في العالم تعاني الكثير من الأهوال، فإمّا أن تُقذف بوجوه الأبناء بالحصى، وتُطمر بالرماد، أو يُطلق عليها الرصاص من الغير، فيتمّ القضاء عليها أو يختفي الأبناء، ولسنا كما في القصص البوليسية، فعفاف كما أزعم لم تتعرّض لحادث خطف، أو قتل أو ابتزاز، أو هتك عرض كما تقولون في أدبياتكم، وإلا لكنّا سمعنا، وأنا شخصيّاً كنت علمت. بمعنى، كانت الحادثة ستكون خبراً في مقالة صحافية في قسم الحوادث، وأنا سأتولّى عمل اللّازم ووضع أحدهم للبحث في محاضر البوليس وباقي المشافي في باريس والضواحي، والمرور على جمعية الفنّانين، والبحث فيما إذا أقامت معرضاً طوال الأعوام المنقضية حتّى لو كان باسم مستعار ..

ترى هل مازالت عفاف عراقية؟ هل بمقدورنا سؤال السفارة العراقية في باريس؟ لمَ لا؟ ألم تقم بتجديد جواز سفرها العراقي؟ هل حصل ذلك الأمر؟ ومتى كان؟ هل رحلت؟ هل توفّيت وأُعيدت إلى بلدها دون علمكم؟

هل قضت ودُفنت هنا في مدافن المسلمين؟ فأراضي الفرنسيّيْن شديدة الغلاء. هل قضت بالسكتة القلبية؟ أم بمرض غامض؟ لا أظنّ أنها قضت بسبب الأعطاب العصبية، فهذه لا تميت، فربّما سياق التأليف والسَّرْد، أو شكل ما نرويه ونفكّر به سيتغيّر، ونحن نطرح هذه الأسئلة. لاحظت ذلك فعلاً، وأنا أُدوِّن لكم هذه الأوراق كلها، ووددت بالفعل لو تعلّمت المزح والفكاهة مثلها في بدايات تعارفي بها، أو ربّما تُفضِّلون سَرْدَ الفضائح، وأنا ذكرت أشياء، لا أعرف هل تدخل في خانة الفضيحة؟ فقد كان يونس الذي بقيت قصّته ملتبسة عليّ، فهل هي كذلك معكم وعندكم مثلاً؟ كان يغازل طرب، ويتحرّش بها في السّرّ والعلن، وحسب علمي أو توقّعاتي وتمنّياتي، أرغب وبصورة حقيقية لو أقرأ ما قد يُدوِّنه هذا الـ يونس في أحد الأيّام، فهذا رجل أوّل ما حضر اسمه أمامي، وهذا أمر أقدر على توكيده، فقد انطلقت كالجنّيّ وهي تردّد، وبعد التّعرّف عليه قائلة بطريقة بين الجدّ والمزاح:

هو رجل يحتاج إلى عوازة في مكان ما من كيانه وعقله، دكتور.

ثمّ أضافت وهي تحبّ ما تقول:

بيبي فاطم، جَدّتي لأبي، لو التقت بيونس، لنادت عليه قائلة:

كيف حالك، يا رجيج؟

توقّفت قليلاً عن الضحك، وبدأت بالشرح قائلة:

يعني ركيك، ضعيف. أجل، دكتور. لديه ضعف في حركة جسمه ويَدَيْه واهتزاز بطنه ونوعية التلميحات والمفردات التي يقولها، وركاكة اللغة التي يقدّم بها شغله وأشغال الآخرين. فمنذ الأسبوع الأوّل والعاشر والعام الأوّل

والثاني، ويمكن حتّى وقت التّخرّج بقيت تنبعث منه رائحة، لن تنساها المرأة قطّ: الفزع أو ربمّا الجبن، ولا أدري أيّهما أدقّ؟ كان نحّاتاً، لكنْ، كان ينحت منحوتات بها بعض السوقية.

لكنْ، لم تخبريني، ما معنى الكلمة الأولى: عوازة؟

عمّي مختار لديه هذا الأمر أيضاً. كلا، الأمر ليس له علاقة بالفلوس مثلاً، فهو ثري، وقد يمضي حياته في هذا العوز. لا أعرف، دكتور، كيف أستدعي لكَ هذا الأمر، وأمامكَ ذلك الإغراء الذي يلازم المعوزين بالظهور والاستعراض، بالتّبجّح وعمل التحالفات، لكي لا يغرقوا في العتمة. الضوء يصعب التنازل عنه حتّى لو أدّى بهم إلى العمى .. وهذا ينطبق على الكثير من الفنّانين والكتّاب والشعراء والقادة في أنحاء العالم جميعها. أظنّ، دكتور، هي كالجنون، لا بدّ أن يصاب به المرء بطريقة ما بسبب الجشع والاستحواذ.

بعد ذلك، بقيت تتساءل بطريقة حرفية حارقة:

هل الجمال حالة من العوز لمَنْ لا يُبصره، أيّها الحكيم؟

هل الحقيقة مفرطة في عوزها، ونحن نجري ونلهث وراءها؟

لقطات قريبة

نعود ونسأل:

أين عفاف اليوم، أيّها الأصدقاء الأعزّاء؟

في مشفى خصوصي على سبيل المثال؟

في شقّة للمرضى المُسنّين الذين تزيد أعدادهم على ... الألوف!

في شقّة عادية تقع قريبة من نهر السين، فقد ظلّت تنصاع لمجرى نهر دجلة وهي تناديه في أحاديثها واستجواباتها، فتردّد في بعض الأحيان؛ أن لها أُمنيّة لو تنام بين أمواج ذلك النهر في أحد الأيّام، هكذا بثيابها وبالقصص جميعها التي أعطبتها. لم تذكر قطّ أنها تريد العودة إليكم، ولا ذكرت الموت أو الانتحار أو الغرق، ذكرت النوم، فقد بقيت تحتاج إليه بطريقة لا مثيل إليها. كانت تعليقاتها التّهكّمية على السّيّد هومير، لأن مدينته الخيالية والمقفلة أبوابها - إيثاكا - ما زالت تجلب الجلبة الكاذبة أمام الوجوه الكئيبة الموحشة، فنرى في اللوحات جميعها أبواباً موصدة أمام الوجوه والقامات. صحيح، كانت تتفوّه بكلمة تفاهة، وتنطق بها، وكأنها ترشّ الماء على عشب يابس، فهي لا تشرح طويلاً:

تفاهة ليست مزحة، دكتور، هي الجانب الحقيقي من الوجود، لكنْ، لا أحد يتملّكه الغضب، فيرتدي الحِداد على ذلك كله.

***

ترى مَنْ بقي من أفراد عائلتها، أستاذ صميم؟

فأنا أوّل ما أقوم بطرح الأسئلة عن أيّ فرد قائلاً:

هل لديك علم مَنْ بقي من أفراد الأسرة؟ هيّا، لا تجعليهم يموتون في هذه اللحظة وتسكتين. دُعي أحدهم أو إحداهنّ تدخل علينا في هذه الأوقات الطّيّبة من شهر نوفمبر الذي يستهويها كثيراً .. ها، ألا يروق لك الجلوس في الحديقة على واحد من تلك المقاعد؟

فكانت تمدّ يدها إلى جيب سترتها الصّوفيّة، وتخرج منها ورقة، دعكت وتكرمشت كثيراً من الطّيّ والمراجعة. فتقول بصوت طفولي جميل جدًّاً:

هاك، خذْ، ولو أنني أحفظه عن ظهر قلب، كأنني شاركت في كتابته: هذا خطاب أخي هلال. هل تريد أن أتلوه أمامك، أو أقطعه بالمنجل؟

وكيف تواصلتِ معه، يا آنسة؟

أظنّ صميم بقي يتواصل معه. ألا تعتقد ذلك، دكتور؟

نعم، نعم. هذا ما تأكّدنا منه. أخذنا الخطاب، وقمنا بتصويره، ثمّ أعدناه إليها. في ظنّي لم يصلك، فَمَنْ سيبعث به إليك؟

"العزيزة عفاف،

قبل قليل، كنتُ جالساً على البحر أتأمّل ما حولي وداخلي. سمعتُ صوت جندب وشاهدتُ فراشة ذات لون فاتح، ونملة على الرصيف تنقل قشرة تفّاح أكبر حجماً منها مؤونة للشتاء المقبل، فكّرتُ بكِ، بأوربا، وبالجحيم هناك، وشروط، كما تقولين وتردّدين دائماً عن - عملية الإبداع

- القاسية و"الركضة" والقلق الدائم والسعي المحموم لإثبات النَّفْس وتفوّقك في الرسم والحياة، وربمّا في الكتابة والغناء. قلتِ في إحدى المرَّات لياسين، وكنتِ في الرابعة عشرة: إنكِ تريدين أن تكون حياتكِ لوحة فنِّيَّة!!! أنا أدري أن لديكِ بعض المحاولات منذ أعوام حين كنّا في شارع التانكي وأنتِ طالبة في ثانوية الحريري، فقلتُ: يجب إلغاء سلّم الأوّليّات الحالي الذي بدأ يتقادم ويضمحلّ وينهار بسرعة. قلتُ سأكتب لهم وأقول لهم، إنّ سعادتي ناقصة بدون بعض النوارنين. تمنّيتُ، وأنا أجلس في مقهى على شارع محاذٍ للبحر أن تكوني، تكونوا معي أنتِ وطرب وصميم بالذات، وأن ترتخوا قليلاً، وترتاحوا من شعثاء علب السردين الأوربية، وحتّى البيوت العراقية الشاسعة، لكنها لا تقلّ عوزاً ونقصاً عن هذه العلب. ترتاحون كما يقتضي الحال من القلق المحموم الذي يمتدّ إلى غرف نومكم ورؤوسكم، ويمتدّ على مساحة واسعة من المباني والمعالم. أجلس الآن في مقهى ياسمين في مدينة الحمّامات في تونس، وهي توفّر لك ما تشائين من شمس وحرارة وظلال. تستطيعين مثلاً أن تجلسي مباشرة تحت الشمس العمودية تقريباً، أو تجلسي في الشمس وجدار شرفة المقهى يحجب عنك الشمس المباشرة. وتستطيعين أن تجلسي في الخطّ الفاصل بين الظّلّ والنور، وهكذا .. هذه نِعَمُ، وقاموسي اللغوي في العربي المهذار يتلخّص هنا في مفردة واحدة هي: النعمة."

الفصل السادس

النّحّات يونس الهادي

" ابعث لي جواب وطَمِّنّي
ولو انه عتاب لا تحرمني
ابعثلي جواب ..
غيابك طال، وباستنى
قلبك مال تتهنّى
ان كنت هويت ونسيتني
وعليّ جنيت وما رعيتني
ابعثلي جواب وطَمِّنّي"

آني يونس الهادي، الذي كانت تُطيِّره تنُّورة قصيرة، وتهزّه ضفيرة شَعْر على صدر ناهض، وهو يتوجّه إليّ. أسيل وأنصهر وأنا بين أكوام الطين الحرّ الذي يبدو للناظر في جروف الأنهار؛ دجلة والفرات وشطّ الهندية، حيث سقط رأسي، الرّيفيّ التابع للمدينة، الذي يشمّ روائح إناثها، فيبقى تحت عناء الاضطراب الطويل. تصرّفاتي عجولة، وسرعان ما أخشى أن أُسقط شيئاً في طريقي؛ آنية زهور، أو ماعون خزف، أو قدح ماء. أظنّ بعض تصرّفاتي سخيفة، ربمّا، هذا الوصف دقيق أو قاسٍ، فكان يراودني، وأنا أرى نظرات عفاف وهي تتوجَّه إليّ.

لم أكتب لك الديباجة إيّاها قائلاً:

عزيزي الدكتور المبجّل المحترم كارل فالينو ..

ضجرتُ منكَ وممّا يحيطونكَ به من آيات التكريم، هم، كلهم، على الخصوص ممّنْ بقي من أفراد عائلتها، والأساتذة: صميم مجهول اللقب والنسب، زوجته طرب الفيصل، معاذ الألوسي، وبعض مَنْ بقي من الأصدقاء والأصحاب. حين خاطبَني الأستاذ صميم، للتّوّ، ضجرت من الألقاب جميعاً، وسوف أعافها ورائي، وأتخفّف من أثقالها، كما عافتْني عفاف، عافتنا جميعاً.

شخصيّاً لم أهتدِ إلى الطريقة التي تريدون الإبلاغ عنها، وفي الأصل، لا أعرف عماذا أبلّغ وهي بجواري، لم تغادرني، وسوف أنادي عليها بثلاثة نداءات: للتفضيل والاستحسان والتّهيّب: عفّو، الآنسة، وعفاف، وربمّا، هي، كضمير الغائب، الموضوع دائماً أمام ضمير المتكلّم، وأنا أكتب به إليكَ، سيّدي:

فأول ما شاهدتني في الأكاديمية، وأنا أسير في مواجهتها في طريقي إلى النادي، وقادم من وراء السّدّة، التي وصلتها من قائم مقام الهندية. أعيش هناك على حافّة المدينة، مكان لا يمكن تصديقه، شيء وَهمي مليء بالمهرّبين والقوّادين والفروخ الصغار، والفحول الكبار، والعاهرات المتدرّبات على انتزاع الفلوس من الزبون بدون جهد يُذكَر. والحيوانات الأليفة، والبعوض والذباب الذي يقرص بلمح البصر، والسعادين، وفِرَق موسيقية تتجوّل لا على التعيين في أيّام الأعراس والطهور، وخليط لا يمكن تصوّره من الباعة المتجوّلين الذين يبيعون كل ما لا يخطر على البال،

ويستفزّ الخيال، ويُفرِغ الجيوب: بدءاً من الساعات التي لا تعمل أبداً إلاّ أمام البائع والشاري فقط. وانتهاء بأكفان مستعمَلَة، معها شهادة طبِّيَّة مزوَّرة من مضمّد المحلّة يقول لكَ بصورة مؤكّدة: إن الذي استعمله طفل في الرابعة .. إلى الإسكافي الذي صادفته، فاشتريت حذائي المستعمل ذاك، كان واضحاً منذ البداية، أنه قندرة ابن قندرة، فما إن سرت قليلاً حتّى التصق كعبه بالإسفلت، وبقي هناك .. لكن اليوم الأوّل في الأكاديمية، سمعت كلمة لم أفهمها حالاً من فتاتَيْن جذّابَتَيْن كانتا ترقبان الطَّلَبَة الجدد، أنا أوّلهم:

هيّا، انتبهي، هذا طالب يملك شروط العوازة كلها ..

لم أفهم تماماً، الكلمة أعرفها، أسمعها في بعض المرّات من أُمّي. أدركت خوفي، فالكلمة تجمع ربمّا صفاتي جميعها.

ما حاجتكَ إليّ، دكتور؟ ما حاجتكم جميعاً أن أكون وسطكم، وأُسجّل موافقتي، وأكتب خطّتي الطويلة التي لا تتجاوز عمري، وهو طويل، فأضع القارئ، أنت في المقدّمة، دكتور، لكي أجمع لك فتاتاً وأعضاء ولساناً ولغات ولوحات وجنون وأغاني وحكايات وأمراض ومواعيد وغراميات وجملاً ومراجع الآنسة عن طريق الاستعادة، القراءة ثانية، الاستماع، اللقاءات، المخيّلة، استخدام الابتزاز والخلاعة، وفي المقابل، عليّ أن أكون في أوضاع منسجمة مع جميع ما ذكرت، ولعذوبة ما كانت تتفوّه به كلازمة حتّى اللحظة الأخيرة، مثقلة باليأس التّامّ:

تفاهة ..أي كل هذا تفاهة ..

نعم، أنا يونس المرعوب من الخوض في الحروب، ومن الاحتفال

بالسلام. أخاف من وجهي البشوش، وصفاء سريرتي، وفضولي العادي ولامبالاتي بكل ما يحصل، فأوّل ما سمعت كلام تلكما الطالبَتَيْن، سألت عنهما وعن اسمَيْهما، فقالتا: القصيرة عفاف، والمتوسّطة طرب.

طرب اسم معقّد، كأنه مصنع من الأسلحة، أو سيُحدِث انقلاباً عسكريّاً، وبدأت أبتسم وأواصل: ط ر ب حروف موجودة وراء الزجاج في محلّ راق، لا يصله الناس من أمثالي، وإذا ما اقتربت منها، أو من إحداهنّ، فما عليّ إلا أن أقوم بتغيير سلوكي، يعني أن أكون أرقى، وأنا لا أقدر على ذلك، لا أريد، أدقّ. تأثّرت عفاف بكلامي، ولم تعقّب عليه. كان ذلك قبل نهاية العام الأوّل، أي منذ ظهرت الآنسة أوّل مَرَّة في النادي الجامعي بطريقة مغايرة، وهي بصحبة الأستاذ معاذ الألوسي وزميلتها التي تكبرها في الصّفّ والعمر، وفي حفل جرى لها بشكل خصوصي، شاهدنا طاولة وكراسي، ورجلا يدوزن على العود، وأمامه النوتة. كانت تبدو بين الاثنَيْن كالطفلة، صغيرة ورقيقة. أنا كنت في حالة من الدهشة التّامّة حين شاهدت مجموعة من الأساتذة وطَلَبَة من الأقسام جميعها، ووجوهاً لم نرها من قبل، فتّاح قال: من الجائز حضروا من الكُلّيّات الأخرى من أجلها.

ولكنْ، لماذا لم نسمع بهذا كله من قبل؟ فظهر الثلاثة أمام الجميع، ها، كأن عفاف هي التي .. ماذا؟ هل يعقل كل هذا الذي يجري من أجلها؟ جلس الجميع. لم ترفع عفاف رأسها إلينا، بقيت تقرأ في الورقة التي أمامها .. سعال خفيف، شيء من الدندنة لدوزنة حبال الصوت، وشيء من خجل أمام هذا الحشد، فتورّد خدّاها. همس معاذ في أُذُنها، ثمّ وقف أمام المكرفون قائلاً:

لن أتحدّث طويلاً عن الآنسة عفاف أيّوب، وصوتها الذي كلّما سمعته

تصورّته صوتاً يبتسم. ألم تسمعوا صوتا ذكيّاً تُغطّيه الابتسامات: تفضّلي، عزيزتي.

في بادئ الأمر، طلع صوتها خافتاً، كأنها كانت تلاحقه من بين تلك البيوت، فتسحبه من بين الحشد، وتمشي به نحو رحيلها. هدأت الجلبة، وبدأ الكثير يتوافدون، وعفاف بدأت ترفع رأسها، بعدما خفّ الضغط على شَفَتَيْهَا، وهي تأخذ رشفة ماء من القدح الذي كان أمامها. بدأ الصوت بالصعود تدريجياً: رقّة متناهية لمخلوق على وشك الاحتضار، كلام معاذ غلط، فصوتها يقيم بمفرده .. لم أسمع أحداً من قبل، ينشد وهو يقيم في الحمّى ... وهي تبدأ بدور لم أسمعه من قبل أبداً، ولا أعرف لمَنْ، ولماذا اختارته:

"ليه يا بنفسج بتبهج وأنت زهر حزين
والعين تتابعك وطبعك محتشم ورزين
حسنك يضيره، ضميره، بالظلام المقهور
اسمع وقللي من اللي قال معايا، آه، آه،
ليه يا بنفسج بتبهج وأنت زهر حزين"

فيما بعد، أخبرتني أنها كانت في الثالثة عشرة حين سمعت في الإذاعة المصرية ذلك الشيخ وهو يغنّي هذا الدَّوْر. وفتحية خالتها، دربتها طويلاً عليه.

الآنسات الطروبات

يعني كيف تصلنا الآنسات بهيئاتهنّ وأشكالهنّ حتّى وهنّ صامتات. لم أفهم هذه الـ طرب، لا، أعني اسمها أليم، لا أفهمه. لم أفهم كيف ترتدي تلك الثياب الرجالية، وإلى من كانت تنتمي؟ متى وُلدت، وكيف حضرت إلى هذا البلد؟ وهل هذا بلدها الذي يحكمه حزب البعث العربي الاشتراكي، ومعه في جبهة واحدة الحزب الشّيوعيّ، وهناك مَنْ يختفي ولا نعود نعرف أين مصيره .. و..؟!

كانت رائحة الحرب، دكتور، موجودة تحت الثياب، وغير قابلة للتعريف النهائي، ولا أحد مثلي يُفوِّت فرصة القيام بدور الميت اللطيف، ولو لمرَّة واحدة. الحرب هي الأصل، وطرب كانت تُذكّرني بها ..

بدءاً، عليّ العثور على يونس قبل العثور على عفاف. لا بأس أن تتابع هذياني أنا أيضاً، فقد غدت قضية البحث عن الآنسة تُروى وتُنقل وتُستخدم كثيراً وفي الضمائر جميعها، بدت لي مضجرة، وأكثر الأحيان مضحكة، وشعرت أن عليّ، أو علينا إذا شئت القيام بأمر آخر:

نسيان عفاف كطريق للنجاة منها ومن أجلها وأجلنا.

فغالبية القَتَلَة هم المحقّقون أنفسهم، وجنابك تريد منّا ومنّي، حسب ما فهمت في الصورة الإجرائية من الآخرين، وقبل دعوتك والحضور إلينا،

والتّدخّل في التحقيقات كما يقولون، كي نرى الجريمة من منظار آخر. نعم، الكثير منّا بقي يردّد ؛ جريمة، ونحن ننهض منذ الصباح الباكر، وإلى اليوم التالي.

أنا مجرّد نحّات منحوس، في أيّام شبابي، كنت أبدو كالمصارع، وفي أعوام الدراسة في أكاديمية الفنون الجميلة، بدأت تنهال عليّ الصفات؛ لا يعرف تركيب الضربات الضّروريّة، وفي المناسبات الطّبيعيّة لا يجيد عجن وفخر الطين لعمل المنحوتات المنتظرة، فليس لديه، وقتذاك، مراجع فنّيَّة إلا الفطرة البشرية، وبعض النزوات الجنسية والعاطفية الفاشلة في بلدة صغيرة موحِشة. لم أُراودْ عفاف، لم أُطلق صفيراً في أثناء مرورها، لم أتنهّد من حسنها الفريد. لم أعضّ شَفَتَيّ ويسيل لعابي وهي تُقبل نحوي. في الأصل، لم أصب بخفقان القلب وهي تقف وراء مسند الرسم، ولا قمتُ باختلاس النظرات المريبة لمشيتها أو ثيابها، على العكس، دكتور. كان الشعور بالضِّيق هو الذي يُلازِمني، ويخلط أوراقي جميعها، وأنا قبالتها. عفاف لم تجعلني سعيداً ونحن معاً، لكنني، ويا للمفارقة، ففي العمق، كنت أنتظرها. نعم، انتظرتها في سعي للإصابة بها، فقد كانت تحضر وحدها إلى الأكاديمية. تتقدّم بين حشود الطَّلَبَة وهي تشقّ طريقها إلى الصّفّ. تبتعد وتبلغ مبتغاها، فأنادي عليها في عبي وألعنها، فأخشى أن تذهب أبعد من المرسم والنادي والحديقة والبيت والمدينة والكورنيش، فلا تعود. تذهب ولا أعرف ما هي الحلول التي عليّ التأرجح فيها؛ فحش وغضب وشتائم على النحت العصيب الذي كان عليّ أن أُطلق فيه اهتياجي وانتصاراتي وإخفاقاتي، أم سلوك الاعتراض بالصمت. كانت القسوة تسبقها، كلّا، لم تكن متكبّرة أبداً، فتثير الاحترام. ثيابها عادية، فتبدو وهي داخلها في غاية الراحة. صديقنا فتّاح بقي يردّد بعد أن تغيب عن أنظارنا:

صحيح هي ليست على الموضة مثل صديقتها، ولا مدلّلة نفسها، ولم نرها بالميني أبداً. ألا تراها تنتعل حذاءً واطئاً وسروالاً من الجينز ذي الصناعة الجيّدة، وبلوزة قطنية، فتبقى سحنتها قاسية ونهداها عامرَيْن ..؟ ها. ألم تلاحظ ذلك، أيّها النّحّات الأعمى؟

صحيح ليست على الموضة، وما هي الموضة، دكتور؟ كانت عفاف هي موضة الأكاديمية، وصديقتها أيضاً .. لم تمقتني، ما هذا النعت؟ غير دقيق ولا صحيح. لم تنفر منّي، لكنني لا أعرف كيف أتصرّف معها، ولا كيف أخاطبها، فلديها قدرات خفية على التهديد، أجل، نوع من النظرات، وهذا الالتباس أدخله وهي أمامي، فتتضعضع ثقتي، وأعرف أنني في خطر. بالضبط، هذه الكلمة الأدقّ، وكلّما يتضاعف الخطر، أتأهّب، لو كان بمقدوري تقطيعها ورميها في داخلي قطعة وراء الثانية، فهذا أفضل من هذا العذاب المُرّ كله. يا سيّدي، هذا مرض وأنتَ طبيب الأرواح الخائبة التي تستوجب الخضوع للعلاج. وهي .. هي كانت، وربمّا الأكثر عقلاً منّا جميعاً. أنا أستطيع أن أُؤرّخ تلألؤ تحليلها الأشدّ عمقاً ونحن نتمشّى تحت الجسر الحديدي وأمام الجرف، كنّا نجلس على بعض الأحجار:

"أجهل كيف يسير الزمن، هذا شيء حقيقي، ولا أعرف أيضاً كيفية ثباته. أحاول الكَفّ عن الابتسام والاستغراب، فكلّما تسير الأرض، تحصل أشياء جديدة، وإن توقّفت؟ إنها تتوقّف أحياناً، لكي تحدث أشياء جديدة أخرى، ركام من الأحداث ينهال يوماً بعد آخر وإلى ما لا نهاية. ما أعجب هذا كله، يا يونس، أفكّر بأن السبب الرئيس لإصابتنا بالهرم هو هذا التراكم لطبيعتنا البشرية المحدودة عموماً في عمق واستقامة ذاكرتها المتفاوتة نسبيًّاً، تمتلئ ولا يعود بوسعها أن تحتمل المزيد، إذاً، فالخلود هو شيء لا ذاكرة له". أليس كذلك ..؟ هيّا، يا يونس، لم أنتَ ساكت؟ ها ..

ذاكرة الأيدي

أخطاء فادحة أذكرها عنها، مثلاً، ذكرت لك، أنها ليست جميلة، وهذا خطأ آخر أقع فيه، هي فقط تدعني أكاد أختنق، وأنا أدير عنقي إليها، فلا أراها، فإلى أين تذهب؟ ومدينتا نستطيع أن نخلع عليها صفاتٍ جميلة، وأحيانا نخالفها في قراءة حقيقتها، فبمقدورها أن تقوِّضنا وأحلامنا، فتدعني أعيد النظر دائماً في شغلي:

هيّا، اعترف، عفاف تجرفكَ كالزوبعة، والمدينة واضحة كالكارثة. هيّا، أنتَ نحّات غير سعيد ولا حزين أيضاً. أنت تشبه الحقبة التي نعيش فيها، وكنّا في العام 1978.

بقي صدى المكعّب كما تقول وتطلق عليه:

المكعّب الفاحش.

تتحدّث عنه وهي مغمضة العينَيْن وكأنها تلمسه باليَدَيْن، فتستيقظ الحواسّ جميعها، وتقول:

من الجائز أنَّ المعمار الألوسي، وبعد أن يُنجز مكعّبه سيقوم بإعارته. الكلمة الأخيرة مبتذلة، هو قال: لطرب وصميم، تعاليا كعاشقَيْن، وقوما بتدليل المحتويات والسقوف والحيطان والمقتنيات واللوحات والخزفيات

وأدوات البناء جميعها. تعاليا، فلن أجد أجمل منكما كمغرمَيْن يتذوّقان الشكل الصحيح الذي يعصى على الوصف.

أخبرتك بالطبع أنها درست عامَيْن في كُلّيّة الهندسة، فبقيت تزورها من أجل الصديقات الأثيرات عندها، كانت تذكر اسم إحداهنّ على ما أتذكّر: وجدان ماهر. معاذ هو أيضاً كان يزور الأكاديمية، فيقفان معاً في الحديقة، ويتناقشان طويلاً. هي تريد البدء من نقطة ما، من منطق العمارة التي تشاد، ومَنْ يستفيد منها؟ وما هي غايتها؟ فقد كانت تتشاجر مع ما تراه قبيحاً في المكان قائلة:

إننا نستنسخ البشاعة فـ "الجمال ليس ضرورياً. وهذا ما نراه صباح مساء، فنُجاري الأوربيّيْن وفنون الحضارة الغربية، وبسبب غيابنا هذا، نكتفي بالاستحواذ على رؤاهم الجاهزة، ونُقلّدهم بطريقة تدعو للرثاء، والحقيقة أن الإنسان في بلدنا لا رغبة فعلية لديه في كثير ممّا يقتني ويعاشر، فغياب الجانب الجمالي وتحجّره يؤدي إلى الضجر" بَغْتَةً سألتني:

ألم تشعر بالضجر؟ فالأمر ضروري، يا يونس: "فالقبح ليس نقيض الجمال، إنما الألم، والعين غير المتدرّبة على الجمال لا ترى ولا تحسّ به، حضر أو غاب".

كان يجذبني صوتها والرجفة في ذبذبات لسانها، فكنتُ أراها حاضرة للمناقشة منذ الساعة العاشرة صباحاً وإلى الساعة العاشرة ليلاً. فلديها براءة، هذه توصّلت إليها بعد أن غادرتنا، وعندما تريد أن تشرح بعض الأمور، كانت تتحدّث كما لو كانت تبوح بسرّ من الأسرار حصل لها ما بين الطفولة والبلوغ، وهي الآن تريدنا أن نعرفه، فلا تحتفظ به. فقد يظلّ معاذ الألوسي، وفكرة المكعّب، وطريقة دخولها في التصميم معه، حفظته

في البداية عن ظهر قلب، ثمّ بدأت تميل إلى طرح الأسئلة، فكان الاثنان، معاذ، لديه أسئلة كاوية، هكذا تقول، حول المدينة والعمارة. أتصوّر، وهي تُكمِل قائلة:

أتخيّل أن سؤاله الأساسي سيكون، إذا شئت؛ كيف نتوغّل، ونستقبل الفراغ، تعانقه ويعانقك، يأسرك ويسحر أكثر من الامتلاء الذي سرعان ما يتحوّل إلى فجور حتّى بالمعنى الأخلاقي؟ فيصبح السؤال: كيف نعالج الفراغ؟

أسكت ولا أعرف كيف أُعرِّف عن نفسي، فأبدو أمامها مجرّد، ربمّا (غرض فنّيّ)، وليس إنسانياً، فأذكر لها ذلك، فتضحك وهي تجيب:

حتّى هذا لم تُفلح به. أنت تجمع قِطَع غيار، ولديك ذاكرة تستدعي الحرفيّيْن القدماء. لا أدري لمَ لم تدخل قسم الخزف، "فأنت تعطي الغرض أثراً تكميلياً".

نظرتْ إلى يدي، ورفعت وجهها إليّ:

أنت تتمتّع بيدين لهما ذاكرة، هي تتذكّر على مهل، لكنك فجأة تصير خارج الوقت. قد تعود إلى سدّة الهندية مسقط رأسك.

أصير مخدّراً وهي تتحدّث. لم أتعوّد هذه الأحاديث من أيّة فتاة. هل كانت تتحرّق شوقاً لكي تضع يدها بين يَدَيّ، ولم تفعل؟ إنها حرّة أكثر منّي، فأتوقّف عن التّنفّس، وأرى آخر وآخر يحلّ مكاني في رأسها، وفي شبكية عَيْنَيْها، وهي تُحدِّق بعيداً فتعود، وبصوت بعيد:

"أتصوّرك تلصق وتلفّ وتنحت، وأمامك موادّ من الأنواع جميعها: الخشب، والأقمشة، الصوف، الجلود، قصب الخَيْزُرَان، عيدان من الحطب

التي احترقت، من المعادن، خيوط مساحيق الألوان الفاقعة والغامقة، وورق كثير وبأنواع". كنت أريدها أن تتوقّف، فلا أريد أن تصل إلى ما ذكرته عن زميلنا فتاح في أحد الأيّام:

أي هو مقلّد للطبيعة .. و.. لأنه غير حرّ .. وفي العموم، معظم الذين يُدرّسوننا غير أحرار، ومعظم الطَّلَبَة أحرار أكثر من الأساتذة، ولذلك أنا أعتقد أن الرسم الأكاديمي شأنه فقط تربوي.

لم تكن تسأل بطبيعة الحال. تتحدّث وتُدمدم في سرِّها. لا يمكنني إلا أن أدعو الله القدير بمساعدة الجمهور على ما هم عليه. صار عمري، هكذا، التفتتْ إليّ .. أوه، صرت هرمة، وأنا في الثانية والعشرين، وهذا أمر مفرط في التفاهة، ولا أستطيع، لا، لا أقدر أن أستمرّ هنا، فكل هذا لا يطاق، والمخبرون في كل مكان يلاحقوننا إلى مناماتنا، ما هذا ..؟ ألم تشاهدهم من حولنا؟

وكنّا وصلنا أحد الشوارع الفرعية من حَيّ الوزيرية، قريبا من الأكاديمية، فقالت بهدوء أرعبني:

ترى، هل من الخير، يا يونس، أن نكون بدون هذا البلد؟ وهل من الخير أن لا تطول هذه الأيّام، لكي لا تنقلب إلى مرض؟ أم أن يكون البلد بدوننا، فينتزعنا منه حتّى نجفّ ونتفتّت، فلا يستشعر بالحاجة حتّى لكي يأخذ العزاء بنا، فنبقى، هو وحده، ونحن وحدنا، ولا يجوز لمّ شمل المعزولين المتروكين إلا بالانشقاقات، الهستيرية والكآبة. لا أعرف، يا يونس، بعد، أيّهما أصلح للاثنَيْن من هذا التّبجّح الوطني كله؟

هنا أمسكت أنا يدها. شعرت في تلك اللحظات وبعد أن عبرنا الشارع،

أنها تكاد تمسكني أوّل مَرَّة. يدها تجنح صوب يدي، وثمّة تعبير في حركة يدها يشتهي الحاجة ليدي، ففعلت وأنا أصرخ:

زين... سافري، غادري، يلا، غادرينا. أليس هذا مرادك منذ .. والله لا أعرف منذ متى؟

وأنا لا أعرف، يا يونس، منذ متى؟ من الجائز منذ انتحار خالي سامي، وفرار أخي هلال. تسمّي تصرّفاتي تطلّباً شديداً، نعم وليس غروراً أو جنون عَظَمَة. حسناً، لا تحضر في أحد الأيّام وتنتشلني. إيّاك أن تفعل ذلك، فلا أحد يُنقِذ أحداً.

ستبقى تُردِّد، يا دكتور كارل، وتسألني في سرّك:

ترى، هل أحببتها، يا يونس؟ والكلام عن الحبّ عسير، ويحتاج إلى شطف وتطهير. نعم أنا أهتدي إليها وعلى راحتي وهواي. وضعني معاذ وصميم وطرب معهم وهم يقومون بالذهاب والإياب، بالشطب والبناء للمكعّب. نعم، دكتور، تجدر الإشارة إلى شهوتي التي تتعاظم لطرب، وأنا مع عفاف، وهذه أمور أنت تدركها، فما علاقة هواي بشهوتي ورغباتي؟ وما علاقتي بغياب عفاف وحضور طرب؟ أخاطب الأولى في الزمن الحاضر دائماً، وأنهمك في طرب في لحظات الانخطاف التي كانت تطيل في الماضي، فكانت طرب موضوعاً لجشع الرغبة، وعفاف لبهجة الهوى. ولعلّ سؤالي المُلحّ الذي أروم سؤاله لحضرتك الآن:

هل توصّلت في أثناء العلاج والبوح كمعالج نَفْسيّ إلى استحضار اسمي؟ كيف كان يرد بين لسانها؟ بسخرية، بشتيمة، كنكتة، أو يأس. اذكره من فضلك، ولا تخشَ عليّ، فنحن رجال، تحالفْ معي، هيّا، فهي كانت دائماً ضدّي، وهذا لم يعد أمراً جوهرياً. اليوم أنا أخاطبك وأضعها أمامنا

نحن الاثنَيْن، واجلب الكاميرا قريباً من وجهها. قريباً جدَّاً، لم يبقَ ذلك الحَوَل في عينها اليسرى، فهل كانت هنا تتظاهر به؟ أم كانت تتصنّعه، لكي تثيرنا ضدّها؟ أعرف أنها تنظر عميقاً إلى الداخل باعتباره مادّة، معركة وهو الحقيقة، فلم تتشاجر مع أي أحد منّا. فلا وقت لديها! هل قامت بإغوائي وهي تتولّى المجاملة عندما أضع بعض الكُتُب فوق ركبها الطالعة في إحدى الأُمسيّات عندما دعانا صميم وطرب ومعاذ وأصدقاء لأحد النوادي، لمناسبة شقّ الأساسيات لبناء المكعّب .. صحيح كانت جاذبيتها حاضرة بصلابة، وكان بمقدورها استدعائي على بطء، وفي أوقات متباعدة، لكنني لا أعرف كيف أُلبّي النداء، فأتركها أمام باص رَقْم 7، وأنا أركض إلى المشغل، أستمني على عجل حالما ما أُغلق الباب ورائي.

بطون النساء

كنت أرى طريقاً يبدأ من طرب، لكنه لا يتلاشى عند عفاف. فطرب لم تكن قريبة مثلها، وعفاف تدفع بي إليها، فأعود وأراها أقرب من السابق، وبعيدة عن طرب. أشاهد أطيافاً وكوابيس وأصواتاً وأيدي تُلوِّح لي، وتناديني قائلة:

عليك أن تمضي حياتك بطريقة شِعْرِيَّة.

لم أفهم أبداً. سألتُها، وأنا أتمتم:

كيف؟ يعني أتعلّم قول الشِّعْر وأحفظه، أو أصاحب الشعراء، أولئك ينزلون في قعر الوادي، ولا يجيدون إلا الثرثرة. لم أصادف شاعراً يعيش كما تقولين. ربمّا، لم يفلح أيّ شاعر أن يعيش بهذه الطريقة هنا، عندنا، فماذا أفعل؟

فتجلب اسم الكاتب شوبنهاور أو ربمّا غيره، لم أعد أتذكّر اسمه. تحدّث عن المكان الذي توجد فيه الكُتُب قبل كتابتها، وأن هذا العالم قد حدث بتفاصيله سلفاً، وأننا نكرّر بطريقة أو أخرى العيش ذاته، نعيد الأحداث نفسَها. إنني متأكّدة من هذا الأمر.

بجوار عفاف كنت أطلق العنان لكل الأفكار البدائية والوثنية وعبادات المجهول والرموز غير الواضحة، والجماعات التي تذهب للكلجية في

الأسبوع ثلاث مَرَّات والباقي تقضيه لزيارة المراقد الدّينيّة. وكل يوم أترجم الجنس لنفسي بالاستمناء، وأكتب تقريراً عن حصاري الذي لا ينتهي ..

هيّا، يا يونس، دعْها تبتلعك، وتدفنك في بطنها في لقمة واحدة، فلا تدعْها تشرب خلفك قدحاً من الكونياك أو الفودكا. ستعثر عفاف على طرب في بطنك وهي تقودك وسط الزحام. اسمع، لن تغادرك أيّة واحدة منهما، فأنت ملك لهما، وهذا هو المكان الآمن لهما ولك من الرصاص والرعب. كنت أقارب فيما بين الصديقَتَيْن، وأتمنّى لو تجوس يدي أدغال طرب، رَبْلَة ساقها مثلاً، أو تلمس عروة قميص عفاف العليا، فرقبتها جميلة جدًّاً، لكنهما لا تحفلان بي. فلم تكن أيّة واحدة منهما ملكاً لأحد، ولم يحدث أن تقيّدت عفاف بالحديث عن الحبّ، أو الحبّ المحتمل، بإحداث جلبة من أيّ نوع، ولا كانت تتوهّم أن فلاناً سيأتي من بعيد،فتنفث دخان سيجارتها، ونحن في نادي الأكاديمية، وكان يوماً شتويًّاً بارداً، والدخان والصخب يملأان المكان. ونحن متقابلان حول طاولة عليها فناجين من القهوة:

عليك أن تموت وتعود ثانية في الحبّ، لكنْ، إيّاكَ أن ترمي المسؤولية على الطرف الآخر. اركن إلى حالك فيما إذا فشلت، فلم تعد الحكاية ملكك، فلا تتحدّث وتُثقلها بالتّشوّش، فسوف تعود وتبدو قصصاً عادية، فلا هي ملك لها ولا له، ولا لأيّ أحد. أنا، على سبيل المثال، سيبقى اسمي الصغير عفّو، كأنه نصف حبّ، نصف مرض. والتصغير مازال مبعثراً بين أفواه خالاتي وأفراد أسرتي، والرجال الذين أُغرمت بهم، ياه! كم أغرمت بالرجال الذين وقفوا في بلعومي وأرادوا خنقي بالأكاذيب! وهذه وقعت على مسؤوليتي وحدي، ومن طرفي الصغير لاسمي الذي بقي يعاكسني،

فلم يتملّكني أيّ نوع من الغضب. فالحبّ المكتمل لا يُفضِّل الاحتجاج كذاك الخائب، عليه البقاء في الظّلّ ...

آه، يا دكتور، هل كانت تهذي باسم عفّو، وتحاول أن تعاند بها ذاتها؟ هل كانت عفّو هي التي تحتضر وحدها في غرفة باردة في مشفى أو شقّة، وهي تقتات من عفاف فقط؟ هل تركت هكذا عندكم للأسباب الموجبة لحماقة المرضى؟ أم لقوّة التطبيقات التي حاولتم بثّها في دمها وأليافها، فلم تعلمونا بعد الكلمة الأخيرة: حجّة الدفن وعدم استعجالكم لذلك، وأهلها، لا أحد شرح لهم بكلمات واضحة التفاصيل جميعها، فلم يرتدِ أيُّ واحد منهم ثياب الحدِاد، فالجميع، وأنا واحد منهم، بقي بهذا القدر أو ذاك ننتظر الدليل من الشخص المناسب: الطبيب، المحقّق، القاضي، العاشق .. و.. بقيت عفاف لنا حتّى لو سمعنا نشازاً منكم ومنّا، بقيت متاعا محبوباً كأسلاب الاستعمار الذي يحب أن يرى نفسه ثانية حتّى لو بخست قيمته. أعود وأسأل:

مَنْ هو صاحب الحبّ الخائب، دكتور؟ أنا؟ أم؟

بَغْتَةً يحضر ياسين، ويجلس أمامي على المنضدة قائلاً:

أقفلت عليها الكُتُب، فأفرطت في رسمي في مشهديات ولوحات كاملة. أنا الذي تستجيب لي حتّى لو تظاهرت العكس، وأنت مَنْ تكون، أستاذ يونس؟

خُيِّل لي أنني أُمثّل ما قبل الحداثة وما بعدها التي كانت عفاف تسبقنا، فتترجم لنا الأسئلة الحقيقية للدوار الذي كنّا ندور فيه، فتخترع علاقة ما غير مرئية للخطر واللعب في المكان وخارجه. اليوم، أزعم أنها ما كانت تدرك ذلك، ولا علم لها إلى أين وصلت وأخذت بأيدينا، لكنها لم

تتوقّف عن غواية السفر، والذهاب خارج الحدود كما تردّد، هو الذي يثير اهتمامها، فتنطلق منه، فلا تعلم، تنسى بصورة نهائية، أنها تقف وتعيش هنا، فوق هذه الأرض ووسط هذه المدينة التي اختلطت عليها صورها وقصصها، فكانت تردّد وكأنها تقول أوّل مَرَّة:

صحيح، المدينة تفور بالبناء والجامعات والمستشفيات والمصانع، لكنك تستيقظ وتنام على شرعية المخابرات التي تزرع وتوزّع منحوتات للسّيّد النائب، السّيّد القائد، والسّيّد الذي لا ينام، وذاك الذي يبحث عن وجهه في المنحوتة. هناك مدينة تحت الإنشاء تزدهر دائماً، نعم، يا يونس، وهي المدينة الحقيقية الموجودة تحت الأرض. ستقول؛ الأشياء تتجدّد، والأبنية تتصاعد، صحيح، هي تفعل ذلك ونحن نشيخ مبكّراً، ومازلنا في العشرين. نهرم ونتآكل .. و..

لا ندري، يا دكتور، إن بقي لك ما سوف ترميه في وجوهنا، لكي نلتفت إليك ونصدّقك، وهل بقي من المغامرة الملعونة للآنسة من إغراء ما، لكي نُحدِّث أنفسنا به، فتعود وتُحدِّثنا وتطلب أن نراها مجدّداً عبر عينَيْك. هيّا .. هيّا تحدَّث معنا، دكتور، فالجميع توقّف عن البحث عنها. ثقْ من ذلك، حتّى لا يعرف عمّاذا يبحث: عنها بالدرجة الأولى؟ أم عن نفسه؟ أم عن ذلك الذي لن نلتقيه أبداً، أبداً؟ إذا شئت من أجل الوالدة مكّيّة العليلة، والخالة فتحية الأكثر سقماً، والعمّ مختار، الثمل سلفاً، وعلى مهل، الذي يسير ويردّد:

نعم، بقائي على قيد الحياة هو دفاعي الوحيد عن ابنة أخي وعنّي شخصيّاً.

تجاوزت الخالة سنية، وهذا صحيح، لكنني سأتوقّف أمامها، وهي

مضطجعة على سريري في شقّتي، وأنا أرى طيف عفاف في بهاء لحم ومسامّ وبطن وظهر سنية. تستلقي ولا تتحدّث. سكوتها يستحمّ بجمال قد اختمر طويلاً، وصار مسموحاً لها، وربمّا لي، أن أشتهيه وأختضّ فوقه. كانت تفهمني وأنا حائر، ألوب ... تبتسم وتُعلّمني التناغم والمداعبة، فأصير تحت نظرها. تكبرني بأعوام، ما الضير في ذلك؟ الحرمان يُولّد الرغبة المختمرة، فنحن، الاثنَيْن، نعيد أمامك القصّة، ولا نكتبها كما في الفرنسية أو العربية. اللّذّة تستجيب لنا، فلا أحد يأتي ويحلّ مكان أحد آخر، فالأمر ليس بمثل هذه السهولة التي تتصوّرها. فأنا، ربمّا، قَدَري كان الاقتراب من سنية، والعائلة تدعوني مع الجميع، نعم، فالخالات فرحات، وأنا أُجرّب نحت رأس إحداهنَّ بعد الثانية، وقد بدأت من الجدّة بيبي التي لا تستطيع الحركة كما يرام، فصعدت للطابق العلوي، وجعلتها ترتدي الصاية الغامقة، وتشدّ "البويمة" اللّمّاعة على رأسها، فتعتدل في جلستها كالعروس. خدّاها يتورّدان، ولسانها يبقى ساكتاً. نعم، كان الأسى كاملاً لديها، يظهر ولا يختفي، وكأنها تكافح، لكي لا تقول: آخ، فجاءت منحوتتها قوية جدًّاً. فأنا أيضاً كنتُ أناديها ؛ بيبي فاطم. سنية وفتحية كنّ يتعطّرنَ، ويضعنَ الزينة الخفيفة، فأنتظر المساء، وأحياناً الليل، وفي بعض الأيّام، يضعونني في حجرة هلال المقابلة لحجرة عفاف المغلقة على الدوام. سكّان هذا البيت أفلحوا في أن يتركوني في منتصف المسافة ما بين عفاف وسنية، فكانت الآنسة تتقوّى، وسنية تضاعف إغوائي، فتهتزّ قلاعي، فأرى نفسي وراءهما، أنا من الحاشية، وربمّا، أقلّ. نعم، دكتور، كنت أحاذيها في الطابق العلوي نفسه، وأشمّ عطورها، وأدخل حمّامها، واضعاً منشفتها فوق وجهي، وأردّد:

لماذا ينتهي الأمر قبل أن يبدأ، يا عفاف؟ لماذا أحبّك بأثر رجعي، وأنا أخوض حرب استنزاف مع خالتك؟ هل هذا صدرك؟ أم رائحة إبطك؟ أم

أرض بطنك الضامرة؟ مَرَّة واحدة قلتُ لكِ، أحبّكِ وكنّا معاً في حَديقة الزوراء، وأمام حشود وشهود القرود والأسود والفهود، قلتُها، وكنتُ أتمنّى أن لا تسمعيها قطّ. كان جوع رجولتي يتّسع، فهوت الثمرة التي نضجت جدّاً بين يدي سنية، كأنها ضدّك، خلقت لكي تفضي إليك، فننقضّ، ويفترس أحدُنا الآخرَ. فلان الفلاني جاهل جوعان، وتنبعث منه روائح اللجاجة، وأكثر الأحيان العداوة. نعم، يقتضي التنويه هنا أن سنية بدأت بالنَّكَد، ثمّ الغَيْرة من عفاف الغائبة. أجل، ومن طرب، والأمر الذي يهدِّئ مزاجها هو خطواتي اللصيقة بالعضّ والشّمّ واللَّثْم الذي يفضي إلى فضائل شبابي جميعها. فبدأت بالضغط والابتزاز بالمال، أجل، دكتور. استأجرت شقّة حديثة في جانب الكرخ من العاصمة، ووضعت المفتاح بيدي. لم يحصل هذا في الثّمانينيّات، فقد كُلّفت بأداء الخدمة العسكرية بعد التّخرّج من الأكاديمية. كانت الحرب موجودة منذ الصباح الباكر وسهرانة معنا إلى اليوم الذي يليه، فتمتدّ إلى اليوم والعام القادم .. نراها بين أهدابنا وأقداح البيرة وعلب حليب الأطفال، فهي أحد أبنائنا الذين لم نلدهم، ولا نحتمل غيابهم عنّا .. آه حكيم، نحن نحبّ حروبنا وقتالنا ومنازعاتنا، ننام ونرتاح في أعاليها وأسفلها، ولا نضلّ الطريق إليها. أقدامنا تبطبط ونحن نريد أن نحجز مكاناً لنا قبل إقفال التوابيت والمقابر والأذرع والنسيان والطُّرُقات والعربات. آه حكيم، الحرب تنفعنا، فنُمنّي بها أنفسنا، فالحياة كثيرة، ومزعجة، فلا ندري لمَنْ نرفع أيدينا بالوداع، ونخاف أن نضلّ الطريق إليها ..

فاكتملت فيها دروس الخلاعة والسفاهة جميعها، وعلّمت الكثير للكشف عن مواهبه في الانحطاط، فيما إذا صدّقنا ما حصل بعدها، فليس بالضرورة أن تتجلّى في اللّذّة وحدها، فبدأت سنية بتزوير تواقيع أختَيْها تباعاً، وهي تقوم ببيع بعض الوقفيات التي لا تقع تحت أنظار الوالد أيّوب الذي بدأت صحّته بالتدهور تدريجياً، ولكنْ، ما زال بمقدوره التّقصّي

والبحث .. كان قانون الحظر قد اكتمل بمضاربات الدولار، واختلاطه مع الدينار الضعيف في الأعوام الأولى من التّسعينيّات صعوداً وهبوطاً. ما عادت تستهويني سنية المرأة، ولا السمسارة المزوّرة التي صارت حركتها أسرع، وعلاقاتها المريبة أوسع مع أناس غرباء لا أعرف متى، وكيف تمّ التعارف بهم، فلم يعد أحد يلحق بها إلا ذاك الشيخ المتعب السّيّد أيّوب الذي لم يكن في حسبانه، في أيّ حال من الأحوال، أن تفرض سنية اللطيفة الحسناء المهذّبة هذا النظام الصادم والشائن. بقي يفكّر بطريقة ما لتخفيف وقع المقامرة والجنون الصاعق الذي كان يزوّدها بطاقة عاصفة للمضاربة التي لم تتوقّف إلا بمعجزة، فتصوّر بمقدوره ذلك، فأراد إنقاذ الجميع، سنية ونفسه وما بقي من وقفيات، وربّما من بعض الشرف يستطيع الإمساك به. فسكّان البيت جميعهم ظلّوا يقومون بمراجعات، ومن مصادر متنوّعة لسجلّات الطابو في أكثر من مديرية للتّأكّد: هل كان التزوير متقَناً؟ أم بالأحرف الأولى؟ فقد كان توقيع سنية مضحكاً كالأطفال، ويستطيع أيّ شخص الطعن به أو تزويره وتقليده، إلخ .. ولكنْ، ما جدوى هذا كله؟ ففي أحد الأيّام، وصلت المضاربة ما بين المضاربين إلى الملايين، ووصل الرَّقْم إلى ما يعادل الثلاثة مليون دولار أمريكي، تبخّرت في أقلّ من أربع وعشرين ساعة.من قبل، بقيت تردّد بصوت به شيء من الفجور:

سنهاجر، سنغدو أثرياء، أجل، يا يونس. هنا سنموت من العفن، وسيطوينا النسيان .. هيّا، سنطوف العالم، وربّما نزور فرنسا، وتزورها.

لم تسمّها حتّى باسمها؛ عفاف. بدت الشهوة تافهة، وتدفع للكآبة، وسنية تشبه المدينة المكلّلة بالخديعة، وهي تفرش أرقام بورصات الدول المجاورة على السرير، فكانت النقود تتحسّسننا بالمداعبة بدلاً من أيادينا وألسنتنا. فكنا ننام بفظاظة وبؤس. فأعقب هذا الحصار كله عليّ وعلى

أفراد العائلة جميعهم، وعلى الخصوص أيّوب، صمتاً انسحب على الجميع. فأُصيب الوالد بخَرَس، لا علْم لنا إن كان مؤقّتاً أو سيدوم؟

لم أحبّ سنية، دكتور. كنت أتّجه إليها لتصريف الوقت الباقي ما بين غياب عفاف، وتبادل النظر مع متروكاتها في الطابق الأعلى، فأحاذيها وحيداً، وأبقى أُحدِّث نفسي، وأُحدِّثها. هل انتهى الأمر، وأنا أدفع به، لكي لا ينتهي حتّى تحضر سنية، وتدخل وتجتاح حياتي في أعنف هياج جنسي؟ هكذا، في اليأس الذي يطرق بابنا، ونقول لا، لن نسمّيه رعباً، بكل بساطة كان نوعاً من الرضّ المُرّ منها ومنّي. خسرت سنية المضاربات في العملَتَيْن، وفي يوم واحد. كان الأمر نوعاً من شبوب النار في بطون وأعناق عائلة كاملة، فأراد العمّ مختار التّشبّث ببعض ما بقي من الوقفيات، لكن الخالة فتحية قالت له:

لا تعلق بالأمل وتعلّقنا به الله يخليك ..

بدا البيت وسكّانه، وبعد شهور، ونحن نزورهم ؛ أيّوب فَقَدَ إحدى عَيْنَيْه أيضاً، وسنية لا أثر لها، ولا أحد يقدر أن يؤكّد شيئاً ؛ غادرت خارج البلد؟ أم قضت؟ أم قُتلت؟ ..أم ماذا؟

هيّا، يا يونس، أنتَ رأيت ذلك الجسد الصبياني الأصمّ، فكيف قدرت أن تفكّ طلاسمه البسيطة، فتشبّت بك مَرَّة ومَرَّات. كانت عفاف تُبصرنا، لم تتركنا، ولا أنا أوهمت سنية في أحد الأيّام بغير ذلك.

هل أنا مذنب وقاتل ومُسبِّب هذه الحرائق كلها، دكتور؟

مجرم وحيد، ويشعر بالملل، ويُسمّي الجنس مع سنية نوعاً من التفاهة

التي لا تتطابق مع فنّ الحرمان حتّى .. ولكنْ، مقوّمات الجريمة جميعها كانت في حوزتي:

فجوري، جاذبيتي، شهوانيتي، طمعي، الشيء اليسير من الشهرة التافهة كنحّات طلع من الظّلّ. نعم، حكيم، لا أحد قال لها هذه هي النهاية، ولا أحد أجبرها على النهاية. لا أحد استأذنها، ولا أحد تركها. لكن الأمور حصلت هكذا، كل واحد منّا اكتشف، ومن جانبه، أنه عاجز، وما عليه إلاّ أن يدير ظهره ويمشي بعيداً. لم يكن ضرورياً أن يكون هذا الأمر مبكياً، نحن كنّا نقهقه وننتحب في الوقت ذاته، وعلى استعداد أن لا نتخلّص ممّا نحن فيه .. نحن كلنا لا نعلم كيف حصل ذلك القدر المشؤوم، لكننا كنّا نردّد كلمة واحدة: لا حول ولا قوّة، حتّى العمّ مختار الذي تطلق عليه بيبي فاطم بالسّكّير الزنديق يعيد ويكرّر ..

نعم، قامرت المرأة بجميع ما تملك، وما ليس لها. فتعهّدت أن تُكمل شهوة الشّرّ، فوصلت نقطة الختام التي لا طائل وراءها، فلا نعرف كيف بلغت تلك الدرجة؟ صميم، كالعادة جذبته تلك المشاهد، فكان ينتقل أمامنا من مشهد إلى آخر؛ فالتّسعينيّات كانت تشبه صناديق الزجاج، كل شيء ظاهر للعيان، وليس مثل الآن، ونحن على أعتاب السنة الجديدة من عام 2012، فبقي يدور ويحوم بعد أن دعاني لزيارته، وهو يردّد:

بالتأكيد هناك مسبّب مثير تحت القبعة كما يقال. أجل، دافع، قل حافز حتّى لو كان وقوراً في البداية، ولكن وراء ذلك رجل لعق شَفَتَيْهَا، وفكّك حصونها، فوضعت في حجره جميع ما تملك. قصّة مسلّية، لكنها فاجعة عائلية رثّة ورخيصة. المثير في الأمر أننا لم نشاهد قطّ رجلاً يحوم حولها. هذه القضية لا تقوم بها امرأة واحدة ووحدها، ولا نكتفي بسَرْدها

من خلال الحدث فقط .. نعم، نعم .. كان القَتَلَة يتضاعفون من حولنا، والأبواب شرعت لتحويل السّكّان، وقذفهم لأتون المحرقة.

كان يدخّن وينفث دخان سيجارته كأحد أبطال السينما وهو يروزني بنظرات، لم أستلطفها أبداً. فواصل وهو يقف مواجهتي قائلاً بهدوء، وهمس:

ما رأيكَ، أيّها الهمام الشجاع، لو قمت بتتبّع هذه الحادثة؟ أنتَ صديق عفاف والعائلة، وكنت موضع ثقة من الجميع.

بدأ جسدي بالتّعرّق الشديد، فشعرتُ بذلك بدءاً من جمجمتي حتّى أخمص قَدَمَيّ.

ابتسمت بطريقة هادئة في وجه صميم. لقد دعا أفراد عائلة عفاف جميعهم، هكذا، أراد بعض التكريم للأوقات العصيبة التي مرّت على الجميع، فقد بقي يشعر بتحمُّل التبعات، كما وعد عفاف في أحد الأيّام، لكنْ، لم تحضر إلا الخالة فتحية والعمّ مختار فقط. شعرت أن غرفة الضيوف كانت مكتظّة بالوجوه والأشخاص ورجال الشرطة وأفراد من المليشيات وبعض الأساتذة في الأكاديمية. لقد نسي الأستاذ صميم دعوة أحد المراسلين الحربيّيْن الذين كانوا يتجوّلون في البلد، كانت رؤيتهم والكاميرات بأيديهم تساهم في بثّ الراحة والتسلية فينا .. نعم، دكتور، كانوا يستفسرون عن غياب المارينز .. وكنّا نطلق ضحكاً عالياً كلمة - ال م ا ر ي ن ز، عندما تقسمها وتجمع حروفها، تلتئم جروح الشجر والبشر، أي والله، هكذا أخبرتني جدَّتي الرحمة على روحها: "عندما تقدّم المارينز نحو بغداد في العام الأوّل من الغزو، فشاهدوا نساء متقدّمات في السّنّ وقفنَ بأثوابهنّ السود خارج مجموعة من الأكواخ الطّينيّة، قبالة موقع الفصيلة"

يُحدِّقن في الإست الباهت الأبيض لأحد عناصر المارينز وهو يتغوّط في باحة فنائهنّ الأمامي، "وهو عارٍ من وسطه نزولاً. وقال أحد جنود المارينز حينذاك للمراسل معلّقاً: "أتخيّل لو أن الأمر معكوس، فيأتي أحد عناصر الجيش إلى الضاحية من بلادنا، ليتغوّط في حديقة كل شخص؟ إنه اللعنة، الأمر شاذّ".

شعرت أن وجودي أمر شاذّ في تلك اللحظة وأنا بينهم، وأنا ألتفّ حول نفسي كالشرنقة. كانت الخالة فتحية قد نحلت كثيراً، وغطّت رأسها بشال رصاصي اللون، وبدت قَدَمَاهَا غليظَتَيْن، لا تصلحان للرسم أو النحت. وبجوارها العمّ مختار وهو يغطّي رأسه بغُتْرَة ملوّنة بالأبيض والأسود، أوّل مَرَّة أراه بهذه الهيئة، فمه ناشف وريقه يابس، وعويناته الطِّبِّيَّة صارت غامقة جدًّا، وطرب تتحرّك أمامنا بعدما قالت وهي تقوم واقفة:

سأجلب القهوة المُرَّة.

ودخلت.

بيبي فاطم غير موجودة، والوالدة مكّيّة والوالد أيّوب أيضاً. معاذ غائب في أوربا، وصميم يدخّن ويُحدِّق بي، ثمّ يلتفت للكلام مع الخالة فتحية، وبهمس.

كنت أشبه كبسولة على وشك الانفجار. هذه هي المرأة الثانية التي نجهل إلى أين ذهبت؟ الأهل يقولون اختفت، وهذه الكلمة لها وقع المصيبة التي تخترق القلب، لكنْ، ها أنا أعيد عليك وبعد تلك السنين كلها صورة بالنيكاتيف، ربمّا هي أفضل ما لديّ:

إلى أين ذهبت سنية، دكتور؟

سعلت بصوت خافت، ودمدمت بكلام غير مفهوم، وقمت من مكاني. لم أصافح أحداً ولا التفت لطرب التي نادت عليّ:

يونس عيب لا يجوز، عليك البقاء معنا، أنت واحد منّا لو نسيت؟

فتحت الباب، وبدأت أجري في شارع التانكي. بدا الشارع يحوي تماثيل احترقت وبيوتاً أُفرغت، وسكّاناً لم يعودوا بعد. كانت رائحة الخِرَاء الأمريكي تغطّي سماوات وشوارع جميع الأحياء التي أمرّ عليها. خفت من المرور على المكعّب، كي لا تنطلق منه أيّة رائحة هو الآخر. في هذه الساعة الرّحمانيّة، بدأت أرى بدلاً من الزهور والنباتات المتسلّقة دوداً وحشرات وحيوانات ذات رؤوس غريبة وهي تتغوّط في كل مكان وبقعة، تخرج من الأرض، وتغطّي جميع سياجات ما بقي من قصور تعفّنت وفيلّات صُودرت وتحطّمت، فكدت أنادي على أيّ أحد، أيّ اسم، حتّى صرت في فم شارع عمر بن عبد العزيز. كنت أختضّ وأزداد تعرّقاً وأنا أشاهد عربة للأجرة في الطرف الآخر من الشارع. فتوجّهت إليها، فكاد يغمى عليّ وأنا أرفع يدي لكي يقف. جلست بجانب السائق، وبصوت شديد الوهن، قلت له:

إلى حمّام سوق الحيدرخانة، من فضلك.

في ابتزاز الفراق

سيّدي الحكيم،

حفظت ما دار في الليلة الأخيرة، ونحن نتقدّم في العربة في طريقنا للمطار لوداعها وهي تغادرنا، وبالتالي ما دار فيما بيننا في أثناء المحادثات، أو ثواني الصمت. كنت بصدد البكاء، وعلى مهل، وكنت كتوماً في دمعي، وأريد أن أصرخ في وجهها: أريد الاقتران بك حالاً، وإنجاب الأولاد منك. أريد أن أسكن فيك، ويتوقّف غضبك وحزنك ومعارضتك .. أريدك، كي يكون لليأس هيئة تامّة، وللفنّ قوامٌ راقٍ، ولي صيتٌ أفضل ممّا لديّ .. لكني خرستُ، سَكَتُّ، وصَمَتُّ .. قد ترى في هذه الصفحات دكتور، بعض الأدلّة أو الحقائق، أو الشهود، وعلى الأكثر القَتَلَة، وربمّا، أوّل ما تطأ أرضنا المباركة تقدنا إلى السجن أو المحقّق. كما أن هذه الصفحات لا أظنّ أن صميم يتذكّرها بهذه التفاصيل كلها، ولا طرب، ولا علم لي أين أضعها، قبل رسالتي إليك أو بعدها، أو ماذا؟ فقد شعرت أنني من تَرَكتَها أو وقفاً ممّا بقي من وقفياتها، وما عليّ إلاّ ذكر ذلك إليك، وقبل إغلاق القضية أو تلفها.

إلى آخر الدموع

لم نذرف الدموع في وداع عفاف، دكتور، في العام 1979. كان الكلام يجفّ في الحلق، ويتحوّل إلى حجر مدبّب، فلا يفضي إلى الصمت الخائب. أنا أجلس في المقعد الخلفي وهي بجواري من عربة البويك البرتقالية ذات الأجنحة الطائرة. طرب لم تنزل من العربة. كان وجهها بارداً كوجوه الموتى، ونحن نرى العربة تقف بباب الأكاديمية. صميم نزل ورحّب بنا وفتح لنا الباب. دخلْنا وجلسْنا وشعرْنا تحت أقدامنا خشخشة أكياس من الورق النايلون وقناني من البيرة الفارغة. دفعتُ أغلبها صوبي.كنّا كَمَنْ نودّع ميتاً، ويلزمنا الاستعجال على دفن ما تبقّى منه قبل التّحلّل .. شعرتُ لثانية ونحن تحت جنح الظلام وفي طريقنا للمطار، أننا نقوم بقَتْل جماعي دون أن يرفّ لنا جفن. أيدينا معقودة وألسنتنا بكماء، والغبش في الرؤية والقلب، والدموع كالأجسام الصغيرة لا تغادر العيون، ولا تُبلّل الراحات، وصوت صميم يقطع الأنفاس بصخبه المجنون الذي يدلّ على الاضطراب مثلنا:

ما هذا، يا جماعة؟ ليست هذه طريقة طريفة في الوداع. ما هذا التهذيب الذي حلّ عليكما ها .. ماذا بكِ، حبيبتي؟ أين شجاركما المتواصل الذي لا يتوقّف ها..؟

التفت إلى طرب:

لا أُصدّق نفسي عندما أراكما بلا نَكَد أو جدال. هيّا، افتحي لنا وليونس قناني البيرة، ولا تدعي الليلة ليلة وداع. عفاف، هيّا غنّي لنا أيّة أُغنيَّة، فهذه ستكون كلماتك الأخيرة التي سنلوذ بها. هيّا، عيني، صوتك الشّجيّ وليل بغداد المثقَل بما لا يُقال. اسمعي، قلت لك وسوف أكرّر ثانية وعاشرة، لم أرَ في البشر مَنْ هي أكثر حمقاً منك.

أوّل مَرَّة يطلع صوت عفاف وهي تلتف صوبي قائلة:

هو هكذا دائماً معي يمتدحني ويشتمني في الوقت ذاته. هو لا يطيق أن يوجّه مديحاً اعتياديّاً لأحد، فهذا لا يليق. فيُبدع في الشتم، يتأجّج غضباً .. ها أتكلّم صحيح لو أبالغ وأنت تبتسم بسخرية وألم. أراك في المرآة.

"الخروج من البلد، يكون ضرورياً، كما لدى الكتّاب العظام حين يجدونه هكذا، وأنتِ صدّقيني، الحياة لا تستحقّ هذا العناء كله. وإلاّ فقدِّمي لي سبباً واحداً معقولاً لهذا البؤس كله الذي تغمرين نفسكِ فيه عمداً. أجل، مع العناد الذي أعرفه عنكِ". انخفض صوت صميم قليلاً، وصار على وشك أن ينقطع:

دائماً أردّد جملة انحفرت في ذاكرتي:

"علّمينا أن نهتمّ ولا نهتمّ، علّمينا أن نجلس ساكنين".

وبلغة إنكليزية راقية مثل إذاعة لندن بدأ يردّد هذا المقطع الشِّعْرِيّ:

"أنتَ تتجول طليقاً في الجبال، وأنا أدخل وحيداً في الشتاء".

فجأة ارتفع صوته، وتغيّرت نبرته:

"ما الذي تريدين تحقيقه؟ غزو العالم؟ أينشتاين أو بيكاسو؟ لن تصلي إلى مستوى أيّ واحد منهما. أنا متأكّد وأنتِ متأكّدة. ولنفترض جزافاً بأنكِ وصلت ليس إلى أحدهما، أو بل إلى مستوى أقلّ طبعاً، أرى أنكِ تطمحين بهذا، وهذا أمر مشروع، فماذا سيفيدكِ هذا كله؟

بدأ يصرخ ويضحك ويُخرِج رأسه من النافذة. الشوارع شبه خالية، والأنوار خانسة، وهو يهتف:

Vive La France

يواصل بصوت صاخب وعالٍ:

ثقي، يا عيني، لا شيء البتّة كما تقولان، أنتِ وهذه الساكتة: وبدأ بحسرة وحرقة، أنا شخصيّاً لم أسمع مثلها من قبل. وبصوت شديد الحزن يتلو:

"وَوَجَّهْتُ قَلْبِي لِمَعْرِفَةِ الحِكْمَةِ وَمَعَرِفَةِ الجُنُونِ والحَمَاقَةِ، فَعَرفْتُ أنّ هذا أيضاً كَآبَةُ الرُّوْحِ".

التفتت عفاف ثانية، وكان وجهها وفمها يُردِّدان هذا الكلام وراءه، فقالت لي معرّفة:

كانت طرب تطلب منّي إنشاد نشيد الأناشيد، فقالت لي يوماً لماذا لا تقومي بتلحينها، فهي صالحة في أيّام الجفاف والألم، وفي حالة مَنْ يغادر ولا يعود مثلي ..؟ وهذا اختيار سليم، يا عزيزي صميم.

دخل الجميع حالة من الوجوم. بَغْتَةً صوت صميم يخيف في صِدْقه ملتفتاً لطرب، فناولتْنا علبَتَي بيرة باردة:

لا نفع معكما، لا أنت ولا طرب. لا أنتِ تُصغين ولا هي. مَنْ سيلعب معي - الكونكان -؟

توقّف، تنهّد بألم، وواصل:

وأنتَ، سيّد يونس، هل تعرف هذه اللعبة؟

غمغمت طرب وهي تلتفت صوبنا ولأوّل مَرَّة منذ صعودنا، ترفع بصرها بنظرة ارتيابية وهازئة، ثمّ تطلقان ضحكة مجنونة هي وعفاف، فيستجيب لهما صميم بالضحك العالي، وصوت عفاف، كما لو أنها تواسيني:

لا أتصوّر، يا عزيزي صميم، أن يونس قد سمع اسم هذه اللعبة أو غيرها أصلاً .. هيه ..

جفلتُ وأنا أسمع اسمي يُتقاذَف كالكرة بينهم وبشيء من التّهكّم، فالتفتت إليّ قائلة:

اسمع، لو فرضنا ستلعب الورق في يوم من الأيّام مع هذه العائلة، فلا تطلب النجدة، لا تنادي على طرب أو أيّ أحد. إن المرء هناك في ذلك البيت، لا يطلب النجدة حتّى لو كان يحتضر. اللعنة عليك وعليكم جميعاً، ستقطعون وحدكم شريط المكعّب وأنا غائبة، وتقومون بتدشين ومشاهدة أساسيات البناء بدوني. من الجائز نجحت قليلاً في العمل على خارطة للبناء، تلك التي سلّمتها للأستاذ معاذ، أف، ما هذا الحظّ العاثر؟

لم أفهم ولا كلمة واحدة ممّا تفوّهت به عفاف. نظرت إليها خلسة، وبدت لي مخلوقاً، أكاد أعرف اسمه وبعض صفاته. كانت ماكرة ولا مبالية، كلّا، صارت عدوانية قبل المغادرة. وصميم، هذا الرجل الذي أراه

للمَرَّة الأولى، وإذاً، هذا زوج طرب التي كانت تجمِّع الطَّلَبَة ومن الجنسَيْن، لينظروا إليها، وهي تصل وتمرّ و.. فجأة نطقت طرب بصوت به دلال:

نحن نلتقي في الأكاديمية على الخصوص في العام الأخير، فقد تخرّجت قبلكما كما تعلم. ونحن نعلم بمدى موهبتك كنحّات. دعك من صميم، إنه مضلّل في لعب الورق، فهو يربح بقدرة المرض أو الوهن أو النَّفَس الطويل، فيفوز وهو ثمل نعسان أو سئم على الخصوص. إنه يؤمن بالنجاح، فهو لا يحبّ الخسارة. أليس كذلك؟

"أنتِ مجنونة مثل صديقتك المسافرة، ولا تُحسني العيش. عليك أن تعرفي شيئاً، هو أن للحياة البسيطة جمالها، وأن يتمتّع الإنسان بهذا الجمال وتلك البساطة أمر غاية في الأهمّيّة. أنت تنتظرين أن تصلي للشيخوخة، لكي تعرفي هذا، أنا أكبر منكم جميعاً بأكثر من عقد، وأخبركم تجربتي، فلا تصغون إليّ. أن يحيا المرء فطريّاً طبيعيّاً خالياً من العُقَد، هيّا، قولوا وأجيبوني، مَنْ هو الذي يتمتّع بالسعادة، أنتم؟ أم ..؟ انخفض صوته قليلاً، وأضاف":

تدخّلت عفاف ضاحكة قبل أن يواصل حديثه:

هيّا، أخبرنا بدون هذا النَّكَد كله:

"الطَّبَّاخة أو الطَّبَّاخ"، أسعد؟.

"إذاً، في هذه الحالة السائق أسعد، يا عزيزي؟ حسناً، ولكنكَ أنتَ أيضاً تقرأ وتكتب وتسمع الموسيقى العالمية، وتحضر الحفلات الموسيقية الراقية، وتسافر وتكتب .. أليس كذلك؟

كان نوعاً من الاستجوابات القائمة فيما بينهما، ونحن أنا وطرب ساكتان. فَوَاصَلَ صميم:

آه، كنت أفعل هذا وذاك. كل ما ذكرت هو فعل كان ناقصاً. أقلعت عن القراءة منذ زمن بعيد، إنها الأفكار ذاتها دائماً، وهي تُعاد، لعلّها تُقال بأشكال جديدة. ما أهمّيّة الأشكال؟ المهمّ المحتوى. المهمّ قرّرت أن أُقلع عن قراءة الهراء كله".

انفجر يضحك وهو يُكمِل ملتفتاً إلى طرب:

أشعلي لي سيجارة، حبيبتي.

للحظة شعرت وأنا وراءهما، بأن وضعه كان جدِّيّاً متألماً وهو يُعدِّل وضع نظّارته الطِّبِّيَّة:

"هذه هي الحياة، ومَنْ يقول لك شيئاً آخر، فهو كاذب منافق وغبي ومنحطٌ".

ردّت عفاف رأساً، فقد كانت تنتظر هذا كله قائلة بحسم:

"تقصد ذكي؟"

"بالضبط. فالأذكياء هم الأغبياء فقط. هذه هي الحقيقة الوحيدة. لا حقيقة غيرها".

لهجته الحزينة ونطقه الكلمات الأخيرة كأنه سيموت ويُدفَن أمامنا، فتدخّلت أوّل مَرَّة في هذه الحوارات. وبصوت خفيض وهادئ قلتُ وأنا أُوجِّه الكلام إليه:

"قرأتُ يوماً رواية، لا أذكر اسمها، أستاذ".

توقّعتُ أن يقاطعني، لكنه لم يفعل، فواصلتُ:

"تتحدّث عن نجاة ثلاثة ركّاب لسفينة تعرّضت للغرق ..".

صرخ صميم بشيء من السخرية، لكي يُبدّد حزن الوداع والفراق:

"أعرفها، أعرفها. إذ يصبح الأوّل مؤمناً، والثاني فاسقاً، والثالث عدمياً. أجل، شيء من هذا القبيل. غاب عنّي اسم الكاتب. إنه إنجليزي. إنها سخيفة. مباشرة، ومن ثمّ فأنتَ تشير، ربمّا إليّ بعد أن وصلك نبأ أزمتي القلبية الطارئة وأنا ما زلت في حدود الأربعين".

وهنا أطلق ضحكة مجنونة وغريبة:

"كلّا، كلّا، ليس بسبب مرضي، هذا عُتْهٌ. أرأيتَ؟ أنتَ أيضاً واحد منهم، لا تصغي جيّداً، ولا تصغي إليّ".

لكني أصغي إليكَ، أستاذ.

لكنكَ لا تقتنع بما تقول.

هنا تدخّلت طرب وقد صار صوتها رقيقاً، ربمّا، بسبب البيرة:

"هكذ هو صميم دائماً. علينا الاقتناع وإلّا في دماغنا انحراف ما. أليس كذلك؟"

فعاد صوته يُدوّي وسط العربة قائلاً:

"إذاً، هيّا، قولوا لي لمَ هذا الصمت الجنائزي كله، ها؟ عال. خير لي

القيام بوصف باريس، لأنتهي من هذه المهمّة الشّاقّة. من الجائز أنها من المُدُن التي تساعدك على أن لا تحطّ من قدر نفسك، لأنها قاسية، وسوف تقسو عليك كثيراً حتّى تحكمك بالكامل، إذا لم تكن مستعدّاً لها. عفاف، اسمعي، إذا التقيتك ثانية هناك، سوف تدعينني أحضر معرضك الثالث أو الرابع .. ها، وسوف أقف قبالتك، وأسالك سؤالاً واحداً: انظري في المرآة!؟"

تحفّزت عفاف، وبدأت تتململ في مكانها. ومدّت نصف صدرها، واقتربت من رأسه ووجهه، وهو يقود. كانت تتنفّس بصورة سريعة، وتلهث، وهو ينفث دخان سيجارته عالياً:

"ماذا سأجد في المرآة، ياعزيزي المبجّل؟"

ردّ ضاحكاً:

"لن تجدي شيئاً، يا عفاف".

ضحكت عفاف بصورة صاعقة، فالتفتت طرب إلينا، وبصورة مباغتة، وبصوت واحد صرخا:

"أيّة رؤية خارقة لك".

تمسّك صميم بالفكرة الضاحكة، وهو يركّز على أنه "يقرأ الممحي". لم يزعجه ضحكهما، فدخل هو في الضحك معهما. ثمّ ألتفت إليّ، وأنا كنت مضطرباً فعلاً، لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل؟ هل أبدأ بالضحك مثلهم؟ وعلى ماذا؟ أم أبقى ساكتاً، لكي أفهم ما يجري بالضبط؟ فلا أعرف هذه الألغاز التي تدور بينهم. ضحكت عفاف في وجهي، فابتسمت بدوري.

صميم كان منزعجاً بعض الشيء وهما يضحكان ويبتعدان عن الموضوع الأصلي الذي ما زلت أجهله. فعاد صميم للكلام:

يا عفاف، دائماً تُسفِّهين المواضيع، وتدعينني أضيع وقتي هباء. إنني أحترق من أجلك وبعض ظروفك، آه، طبعاً سأمرّ كالعادة، وأزور عائلتك، ولن أدعهم. أي طبعاً أنا وطرب. سأبحث عن هلال، وأرسل إليك عنوانه في إنكلترا أو غيرها. والدك وعمّك ما داما لا يعملان بالسياسة، فلا بأس عليهما. والنساء سأزورهنّ، لآكل من يد الطَّبَّاخة العظيمة التي تستنكفين إطلاق لقب الطَّبَّاخة عليها أو عليك، إذ لولاهنّ، لقضي على العالم.

"قلت لك، يا صميم، ما شأنك بطريقة حياتي".

قالت عفاف ذلك، وبدأت بفتح زجاج النافذة قليلاً. فردّ عليها بحنان:

"لن تفهمي بعد أنني أريد أن أُجنّبك التعاسة الآتية".

"لن تستطيع ذلك".

لم يتدخّل أيّ واحد منّا، فهما كما لو كانا يتبادلان الضربات، هي تصدّ وهو يواصل:

"أرى ذلك واضحاً، إنّه سبق الإصرار، والكلام الذي لا يفيد. إنني ألخّص لك تجربتي بأكملها بكلمة واحدة، لا تستطيعين استيعابها".

أجابت حالاً:

"أن أصبح طبَّاخة"؟

"أرأيت؟ أنت تسمعين ما تشائين من الحديث. لقد تحدّثت بالسهولة التي تنظر بها هذه الطَّبَّاخة إلى الأمور".

ومَنْ قال لك ذلك؟

أجابته وهي تنظر إلى أضواء الشارع.

أُمّك السّيّدة الجليلة. إنها تنام ملء جفونها، وتستيقظ مبكّرة، لتتطلّع في السماء، فتشاهد اللون الأزرق والذّهبيّ اللّمّاع لقناني البهارات والتوابل بجوارها وحولها. تلك الموادّ والروائح التي تتعامل معها عمليّاً، وأنت نظريّاً. هي تأكل حتّى الشبع، إنها تحيا من خلال التّذوّق واللسان والمادّة الخام الأصلية في الطبيعة والكون، وكيف يتمّ الانتقال من الحالة الصلبة إلى الحالة السائلة أو المطبوخة للأرزّ والبرغل وحبوب القمح لعمل الهريسة الألذّ على قلبي، والخضار بأنواعها كلها، والفاكهة التي كانت تبرق حبّاتها وسوائلها، وأزعم أن كل شيء ينضج ويطيب من بين أصابعها حتّى الحجر. كانت أُمّك تبتسم ونحن ندخل عليها وهي ترقب الطناجر تُطلِق أبخرتها وروائحها على البشرات والجدران والزجاج، وكنت على وشك، لولا الحياء، أن أبوس أصابعها ويدها وكفّها، فهي كانت من شدّة السرور تضحك. أظنّ هي تعيش من خلال ذلك النفير والصفير في الغاز والنار والجوع والدفء والتّفنّن وهي تنتظر منّا أن نبلغ النشوة. هل صوّرت أُمّك، يا عفاف، كما رسمت جدّتك وعمّك وباقي السّكّان؟ هل نظرت مليّاً إلى وجهها؟ سترين أنها، ربمّا، أكبركم سنّاً، هذا صحيح، لكن عمرها متنكّر في فردوس صغير لا يُرى. هي الطبيعة. فهي تشبه الجنّة في بيتكم، يا عفاف، وكلّما زرتكم أبصرتها لم تزل محتفظة بنظرة الطفلة للعالم.

ردّت عفاف وصوتها اختنق بخيط من الدمع أو ما شابه:

آه، هذه أُمّي مكّيّة. آه، لو تسمعك، لأغمي عليها، ولطردك أبي فقد يتصوّر أنك تغازلها، لكني أشكّ في حقيقة تلك النظرة التي تقولها.

"لأن أُمّك لا تشكّ. والطَّبّاخة تلك التي لا نعرفها في روسيا أو الصين أو البصرة أو الموصل لا تشكّ هي أيضاً".

"إنك تحسدها؟"

التفتت إليّ، ووجَّهت الكلام نحوي:

ما رأيك، يا يونس، بهذه المحاورة كلها؟

دعيه جانباً، فالرجل لم يتعرّف عليها. ودعيني أؤكّد لك، نعم من قلبي كله أحسدها. على أيّة حال، هذه أضواء المطار. أزف الوقت .. ها، هكذا تقولان ..

طلع صوت عفاف حاسماً هذه المرَّة:

"اسمعوا جميعاً وكما اتّفقنا. تضعونني في الباب وتغادرون. صميم، أنت لا تريد منّي أن أضحك، بل على العكس، تريد أن أنتحب، أُكفّر عن اختياراتي الشّرّيرة في الاختباء بالسفر والرسم والشِّعْر والمعارض والفلسفة والكُتُب ..".

التفتت إليّ، وصمتت. لم تجد ولا كلمة تتوجّه بها إليّ. ما أعجب كل هذا الذي يحصل ويحدث الآن. شعرت أنني كبرت عقوداً، واجتزت الكثير من الأشياء والأحداث والوجوه .. فأكثر الوقت كنت صامتاً، وهؤلاء القوم لا أعرفهم، وبالدرجة الأولى عفاف .. فنصير في الشارع، وأمام ضجيج الوداع والاستقبال ورجال وزعيق وبكاء وكذب وحقيقة .. وعفاف تضع يدها على كَتِفي وكَتِف طرب. هكذا، بلمسة واحدة من الأكتاف، وأنا لا أستطيع النطق بكلمة .. كان الغياب تجمّع كله في تلك الأضواء الغبية التي تكشف الوجوه، وأنا أدير رأسي إلى الجهة الثانية من العتمة. كنت

على وشك الاحتضار. صميم هو الذي أخرج الحقيبة الكبيرة نوعاً ما من بطن العربة. ووقف قبالتها، وأمسك ذقنها:

بعد أن عدنا من شهر العسل في باريس قلت لك، على ما أتذكّر، باريس موشور سماوي، يطلّ ويغيب، ولا ينتبه إليه الجميع. أريد منكِ أن تلاحظي هذا وبدقّة. قبّل ما بين جبينها ومفرق شَعْرها، واحتضنها وهي منكسة رأسها. أخرج من جيبه مظروفاً مَطويّاً، فتح حقيبة يدها، ودسّه فيه. كانت طرب في حالة انتحاب وهما يتعانقان. ظلّا هكذا، لا أدري كم من الثواني، فوصلهما صميم وهو يقول:

سنزورك قريباً، قريباً جدّاً جدّاً. لا تشغلي نفسك إلا بدراستك، وأنا وطرب دائماً حاضران ..

كفى .. كفى.

مشت قليلاً، ثمّ نادت عليها طرب، وهرولت إليها، وهي تضع معطفها الواقي من المطر فوق كَتِفَيْهَا، واختفت بين الأضواء.

من مهملات الحبّ

آه يا حلو
آه يا حلو يا مسلّيني
يللي بنار الهجر كاويني
إملا المدام، يا جميل، واسقيني

عفاف أيّوب آل

كان ينبغي أن أدعك تمسك بزمامي كما يقولون في لغتنا العربية، لكي أنال الحظوة، آنذاك، لا أعود ذاهبة وعائدة إلى النافذة، وأنت تغيب، وأنا أكسر حواجز القلب، وأقبع في الخارج، وأتغيّر في نسختي الأولى التي كتبتها لك بخطّ اليد، والثانية بالألوان، والثالثة غير منشورة: أرسل ما أُدوّن وبنسخ عدّة مرتبكة جدًّاً إلى معاذ وصميم وطرب. أضع الطوابع، وفيما بعد أكتشف أنني نسيت إرسالها، فصارت الخطابات تشبه الأكوام. حذفت يونس بوصفه كان في إحدى الأعوام له حقّ تمثيلي كمحبّ من النوع التعس.

مغرمة تتلاعب بها الألفاظ، فلا تحصل على لفظ صريح. يصير لساني مضادّاً لي، فيشتمني، ويعلّي شأنك، فيأخذ جميل التّحوّلات وأصول

الكلام إليك دون أن يترك أيّة واحدة لغيرك. فأناديك بالضمائر كلها، ونبدأ بالغائب:

يا كيوم، خذ، خذ بقوّة ما لا يمكن تخيّله، ومن دون عودة للمعاجم، فأنا أريد أن أشتقّ لك اللعنات والملذّات، وأدعك تستغلّني، ولا تختزلني. لا تعترضني، أرجوك فيما إذا أصابني الهلع ممّا أشتاقه فيك، والذي لا أقدر الوصول إليه، وما لم تُبلّغني إيّاه وأنا في حضنك، ما لم أحصل عليه حتّى وأنت تُنهِكني وتستخدمني كما لو كنت غريمك. هل تعلم أنني لم أكسب منك شيئاً، لا نطفة تبذرها، فتعتريني أعراض الأُمّ الباسلة، ولا حاولت أن أُحقّق صيتاً طيّباً من لوحاتي التي أنزلتْ بها المصائب، فساعدتني أيّها الرجل المقتبس من الكُتُب وخيالي على الخوض في نمط جديد من الهستيريا. في اللوحة، أضعك بجوار عوليس، وأحياناً قبله، ثمّ أزيح الأوّل خارج اللوحة، وأدعه يُصاب بالحُمْق، وأتركك بمفردك، ولا أتلقّى التصفيق. صحيح أنت مفقود في الواقع، وثابت في اللوحة، وأنا أتحسّس بيدي الأنف والخدّ والشفاه، وأشمّ أقصى نَفَس تزفره وتُطلقه للخارج.

عداوة الحبّ

بقيت في مكاني، وإنذار التحطيم يلاحقني، في أوّل بنوده: انقضاض المرض عليّ. حسناً، بوسعك أن تمنع إقامتك عنّي، وبوسعي أن أجرّب طبقات الانهيار كلها.

بهتان ما يُسمّى بالقلب المفطور الذي تخطّى السباقات في الألم، فلم يحن الوقت بعد: التّخصّص بالمحبوب.

فأوّل ما تقابلنا، دمدمت: لن أنجو حتّى أنقلب ضدّك .. فبدأت أنشب فيك حبالي الصّوتيّة، وأنشد لك مقابل كل اهتياج، فيتعذّر الإشباع، فانحرف عنّي، وأخضع لإشباعي الخاصّ، فهذا مُصرَّح به للمحبّ المضادّ مثلي، يتبجّح ويكيد، فتستبدّ لديه العداوة، فيدعو عليك: مُتْ، حتّى لو عن طريق الخطأ. ها، أمَا تزال أمامي؟ ينبغي أن تموت، ولا تُبعَث في العالم ثانية.

اثنان خير من واحد

تساوينا في العدوانية في ما بيننا بعد المعرض الأوّل الذي اشتركت فيه بلوحات أربع، وكان تحت إشرافك. هناك في قصر قريبك قابلتك. حضرت لكي أشدّد الحراسة عليك، فوضعت أصبعك على أمر، كنت أريد الانقطاع إليه: الانتظار بلا تأفّف. يحصل هذا حالما نتوقّف عن انتظار البلد، ويتمّ التنازل بالتدريج عن الإحساس بالإيلام والعناء، ونحن لا نعود نسمع اللغة الدارجة، ولا نعيد بعض تراكيب الجمل الفصيحة في لساننا المتحوّل، فتهجرنا اللغة الأولى، فلا يقف على طرف اللسان إلا تأرجح الوالدَيْن ككائنات مأزومة لغويّاً. كنت هكذا وأنت تلتقي بيّ، فأكفّ عن مخاطبة ومناداة بلدي، وأُسجّل جملي للاسم المجهول: كيوم فيليب.

أصير مطواعة في ضرب العوائق التي تقرّبني منه، فتصبح أنت، أيّها الرجل الحسن الاستنساخ والتنضيد، غريم بلدي فيّ، فأُوقع بك ما يلزم من شطحات الابتهاج، وأدعك وحدك تستنج المعنى .. كنّا أكثر من اثنَيْن، من الآن وصاعداً، وفي أحسن الأحوال، نردّد: ما الفائدة؟ فلا يمكن أن نكتب اسم بلدَيْنا دون أن يضحّي أحدنا بخياله، وبلغته. ودونما تكرار منّي، لم أتخبّط في هجرك، ولا أنفقت عليك سقمي كله.

بقيت أنطوانيت تصحبني، في بعض الأحيان، لشقّتها، فتقدِّم لنا الطهي السوري بتشكيلات تشبه المقطوعات الشِّعْرِيَّة وهي تتلو لي: "اثنان خيرٌ من واحد، لأنّ لهما جزاء خير عن تعبهما، إذا سَقَطَ أحدهما، أنهضَهُ

صاحبُهُ، والويل لمَنْ هو وحده، لأنه إذا سَقَطَ، فليس آخر يُنهِضُهُ. وأيضاً إذا اضطجعَ اثنان، كان لهما دفء، أمّا الواحد، فكيفَ يدْفأ". يلاّ، غنّي، يا عفاف:

"ومن الشّبّاك لارميلك حالي
آه، يا حلو، يا كاويني"

هذا لم يراودني في أيّ يوم وأنا معك، فلم نك يوماً نثبت على رَقْم، أيّ رَقْم، وفي وسعنا أن نظلّ لا شيء، ونشازاً حتّى ..

الحبّ أن تترك لحالك ويوجّه إليك المثول في تدرّجاته، فتكون مطلوباً من الطُّرُقات والجادّات التي تبحث عنك، وعن الفروق التي حصلت لك ولقَدَمَيْك منذ حضرت إلى هذه المدينة الأفرنجية، وإلى اليوم، وكيف استقرّت الأحذية ذات الأرقام الرجراجة وأنت تضطرّين للمرور من أمام تلك الأبواب: باب الشّقّة والمقهى والبار والسينما والمسرح والمعرض والمستشفى والعيادة والأبواب الخاصّة ذات الأحجام الخشبية الثقيلة التي لا تقدر على دفعها بيَدَيْها الرقيقَتَيْن، وباب المشافي الخصوصية للزيارات التي كانت تتمّ في كثير من الأحيان عن طريق النقل بالإسعاف .. كلها أبواب كانت تنظّم لك أوقاتاً للمشي وأوقاتاً للمرض، وأخرى للهجر والترك حتّى لو كان دون المستوى. تمشين في كثير من الأحيان بدون تسلسل ولا خرائط، وقَدَمك باعتبارها نتاج بلدك الباقية سليمة، فهي تأبى عليك البقاء وحيدة، هي أفضل من الكثير، فهي التي تديرني وتُوجّهني، وكأنها تقوم بعمل فنّيٍّ، فأراقبها وهي تحنو على لحم وعَظْم القَدَم والساق، وتواصل الاتّساع والتّمدّد الكبيرَيْن. يوم وصلت هنا كانت نمرة قندرني 36، فكنت أسعد بالقندرة الجديدة كأيّة طفلة يتيمة، فأمسكها ويبقى

بصري شاخصاً بها وبجِلْدها وكعبها وصمغها وموديلها حتّى يحضر النوم.

الحذاء الجديد عضو وطني. يوم يتدهور، وهذا أمر مفروغ منه، يمكن أن نضيف إليه صورة أو لوحة أو كعباً أو جِلْدة في باطنه، أو نعيده لأصله، مجرّد جِلْد مدبوغ بالوحل.

كانت قندرتي وأنا أجوب بها الشوارع والأمكنة كلها شديدة القرب منّي. وكان إعجابي بقَدَمي يزداد تيهاً، فأراه أمامي وقد تحوّل إلى شخصية، أستطيع أن أسلّمها قيادة - ضمير المتكلّم - ووحدها. فَقَدَمي، هي الأنا التي أخاف عليها الاندثار، فكنت أستدعيها إلى صفّي أكثر من أيّ رجل آخر أو .. أو بلد أو مدينة أو خالة أو عشيق. أستطيع أن أستند عليها أفضل ممّا استندت يوماً على قلبي البائس، وعلى ذلك النحو، كنت أتوجّه إلى حوضي وفخذَيّ وساقَيّ وقَدَمَيّ، فلم أعد أملك غيرهم هنا. فلم أنلْ من بلدي إلا هذَيْن القَدَمَيْن المتورِّمَتَيْن القبيحَتَيْن الحنونَتَيْن الدّونجوانيَّتَيْن. اضحكي، يا عفاف بنت أيّوب، وأنت تعدّدي مزايا القَدَم الكبيرة ذات التجربة الموضوعية والعلاقات الحقيقية مع الأشياء والإسفلت والغبار والثلوج والطين وخِرَاء الكلاب. قَدَمي شخصية واقعية أكثر منّي، بها ومعها تدرّبت على كيوم. فكنت أُؤلّف أغانيّ الخاصّة، وأنا أجتهد في عملي، وأُغنّي في الشوارع. مشّطت كل حجر في شوارع هذه المدينة في قسمها العتيق، وأنا أسمع صوت حركة قَدَمي كما نبض فؤادي، فتصير الأقدام محبوبة، وهي تريد تسديد أثمان الطُّرُقات الباهظة الثمن. فتقرأ تحوّلاتي منذ الخطوة الأولى في حَيّ السفينة إلى شارع التانكي، وبالتالي كُلّيّة الهندسة مروراً بأكاديمية الفنون الجميلة وصولاً إلى غمّ كيوم. فنرى، على ما يبدو، أن القَدَمَيْن تحبّان الكلام الفصيح مع الإسفلت أكثر من البشر، فهذا هو الزّيّ الوحيد الذي لم تتجاوزه الموضة، وهي تنشط وتكبر وتتّسع

وتتنبّأ بسماع أصوات غير مخادعة. تمشي عفاف، فلا تشعر أن القَدَم مجرّد أداة نقل من حبّ إلى انفصال، ومن وصول إلى رحيل. هذا هاتف الأقدام، وهو بصمة هذه المرأة على أسفلت مدينة هي الوحيدة الباقية لها، فتقول لها وتغنّي لها، وتعطي لها الطريق والتعب والمرض. تعطيها، فهي جميع ما تملك: اتّساع القَدَم المُلقى أمامها، فلا تقول دعوني وشأني، فهي لم تعد تشتاق لكيوم قدر النظر إلى أظافر قَدَمَيْهَا المصبوغَتَيْن باللون الذي تشقّق وتقصّفت الأظافر، وبعضها استطالت إلى أمام أكثر من اللّازم، فبدأت تؤذيها في الذهاب والعودة.

عيد القُنْدَرَة

تعيش القَدَم في عيد القُندرة المرتقب الموعود بالبهجة غير المسبوقة. وبمجرّد السير في تلك المدينة الأولى وتلك الـ - عفاف - تمشي مع يونس، مصدر الأسى، وطرب التي تذكرها أنها حمقاء، وهي كذا وكذا، ومعاذ الذي كان سعيداً فقط وهو يتحدّث عن. المكعّب. فهو كان مجنوناً مثلي به. صميم المُنكبّ على أقنعته التي أُتقن سجنه داخلها، فبتْنا لا نعرف ملامحه الأصلية. وهلال الذي لم أره، ولن أراه. أيّة مفارقة مُتقَنة تدعنا الدنيا نخوضها، ونحن نتورّط في حساب أعوام الصمت والجنون والمرض التي تسوّرنا، فلا ينتبه أيّ أحد لنا، وكأننا لم نكن أصلاً. وذاك العمّ مختار الذي كان يستيقظ ليلاً، وهو يهذي بـ باسم قرية أو مدينة صغيرة عراقية تقع في شمال العراق تُدعى "مخمور"، فيكرّر بينه ونفسه:

أنا وُلدتُ هناك، فماذا أفعل في هذه المدينة الغدّارة بنا بغداد.

آه، كلهم هناك وضعوني خارج المشهد، فوضعتهم في علاقة منقطعة النظير في لوحات زرقاء، أطلق عليها كيوم في أحد الأيّام بـ المرحلة المَمحُوَّة.

أخذتهم جميعاً، وبدأنا المشي: خالتي فتحية وسنية والوالدة المريضة بركبَتَيْها، نمشي وننشد ونهذي، فنبدو أجمل ممّا نحن عليه في الألبومات. وقَدَمي لا تنام. لا تعرف وأنا لا أعرف وَضْع ساق فوق ساق، ورجل فوق رجل، ومحبوباً لا أعرفه يُدعى كيوم. ومقولة: أحبّك تنام وحدها. وكيوم لا

يموت فوق عفاف، وهذه تحتضر هي والحذاء فوق الإسفلت، تئنّ في صوت خفيض، وهي تطلقه بالغناء عالياً، لكن قَدَمَهَا تكبر نصف نمرة، وبالتدريج تصل إلى ثلاثة نمَر. تصير القَدَم بحجم الكرة الأرضية، فتشعر بلذّة القندرة التي تدخل للقَدَمَيْن بدون عناء ..

الفصل السابع
كلاكيت آخر مَرَّة

عفاف أيّوب آل / ٢

"إذا كان ذنبي أن حبّك سيّدي
فكل ليالي العاشقين ذنوب
أتوب إلى ربيّ ..
وإنيّ لمرّة يسامحني ربيّ
إليك أتوب"

"عارض قلق" في فرنسا، يفيد هذا المعنى، التّصدّع والهشاشة، وتصيب هذه الأخيرة المرء {أو المرأة}، وهي عنوان الفردية والذّاتيّة، وتولي الواحد المسؤولية عن نفسه بنفسه، وهو من وجه آخر، القرينة على تعاظم المسؤوليات والاختبارات التي ينوء الفرد بها وتمتحنه".

عجباً، أرادت أن تهتف وهي صاعدة إلى الطابق الأعلى بكل سرعة، نعم، مصعد كهربائي يفضي إلى ما كانت تنتظره منذ أمد طويل. وها هي تنزل بعد قليل على سلّم آخر، وتقف مع صفوف الواقفين:

هذا مطار أورلي، وهي تشعر أنها تمتّ بصلة قرابة إلى هذه الأقوام جميعهم التي تنتظر دورها أمام النافذة الزّجاجيّة المربّعة. جاء دورها ودنت:

هو ليس استجواباً. ستُدلي بمعلومات عمومية، ولا ينبغي أن تتلعثم.

أهتزّ صوتها وهي تقف أمام رجل البوليس الفرنسي. دفعت بالجواز العراقي، وأرادت أن تخاطبه، كما تعوّدت من قبل:

عزيزي .. أنا.

كان واجماً وهو يطيل النظر إليها تارة، ثمّ إلى صورتها التي أظهرت حول عينها اليسرى الخفيف. كان مقبولاً هناك، وكلّما لاحظه أحد ما، وعلى مضض، فيتصنّع خلاف ذلك، فتقوم، وتضرب كفّاً بكفٍّ، وبالطريقة نفسها، تقابلهم فاتحة عينها قائلة:

حَوَل مضحك هذا، ها .. أفضل ما نقول في هذه الحالة ؛ لا حول ولا قوّة إلا بالله ..

أوشك الرجل أن ينتهي، وأرادت أن تبادر قائلة بصوت سرِّيٍّ:

أورثَني إيّاه العمّ مختار في أغلب الظّنّ. لكننا نستطيع تجاهله إذا شئت، فلا ندعه يقطع الحديث علينا:

هل تعرفين أحداً هنا؟

كلهم، جميعهم.

ابتسمت وهي تكاد تقول:

هنا الطريق .. و

مدّت له بالعنوان الذي سجّله لها صميم، وسرعان ما ابتسم، تراءى لها ذلك. بدأ يورق الصفحات، قال كلاماً لم تفهمه، ربمّا لأن الجواز جديد، وطالع من الكاغد للتّوّ. لا تدري. سمعت صوت الطمغة المعدنية، بَغْتَةً

أغمضت عَيْنَيْها، وعلى الفور أصابتها هزّة عنيفة في جريان الدم. أمسكت الجواز بيدها، تحقّقت من صورتها التي ركّز عليها الرجل، وهي تسير مع الجميع.

صحيح، لم تبدِ أنها على أعتاب الثالثة والعشرين، الحقّ مع رجل البوليس، الصورة جعلتها تتألّم والمصوّر يأخذها لها. فقالت لطرب وصميم:

أنا سيّدة الصور الشّمسيّة والقمرية الفاشلة والمحترقة. أضافت وهي تجلس على أحد الكراسي بانتظار الحقائب، وأشعلت سيجارتها الأولى في الفضاء الفرنسي:

يا للحظّ السعيد! ستّة شهور إقامة، بالتأكيد بسبب الحَوَل في عيني. أين أنتَ، يا عمّي العظيم، فهذه أيضاً من بركاتك وأنا في بلاد الفرنج. سأكتب لكم عن ذلك، وأقسم أمام الجميع؛ لو كنت صاحبة نظرات عادية، لما نلتُ هذا التكريم كله.

ليست هي مَن اختار هذه الصورة. طرب وصميم قاما باللّازم لإصدار الجواز والحصول على التأشيرة، فتخلّلت التقاطها أمور غاية في الطرافة. وقفت أوّل مَرَّة أمام محلّ المصوّر الألمعي هيثم زهير وهي ترفع بصرها، فترى القطعة المعدنية المكتوبة بجمل ركيكة وخطٌ مهزوز:

مصوّر خاصّ للأعراس والحفلات الخاصّة والعامّة، والطهور. وبخطٌ أصغر وباللون الأسود، وللمآتم .. إلخ.

كان المحلّ يقع في شارع سهام المتوليّ، بين رأس الحواش ومكتبة الصباح وبوفيه خالد أبو الفلافل في الصليخ. المحلّ راسخ، وهو مركز لتجمّع شباب المحلّة وإطلاق الصفير العالي لمرأى فتاة غريبة. ترى ماذا

لو اختنق من الحرارة الشديدة وهو يُدخِل رأسه تحت الغطاء الأسود السميك؟! السّيّد زهير جسمه غليظ ومليء بالشحوم، فلا يستطيع احتضان الآلة على ما يرام. وبصوت مبحوح نادى عليها:

لا تغمضي عينك، أختي، أي ليش خايفة؟

فتسمع طق طاق .. المزيد من اللقطات:

كلها مو زينة، بلا زحمة، لا تغمضي عينك.، وإلا الصور كلها راح تحترق.

مشى وحضر إلى جانبها، وأراد أن يسوّي بعض خصلات من شَعْرها نزلت على عينها اليسرى:

أنا سأعملها من فضلك.

بس أختي الصور مو زينة أبداً، أي الصدق، آني ما شفت مرة مثلك، أي شنو الكاميرا تعضّك، والله غريب أمرك ..

عادت خائبة وهي تقول لطرب:

لا تنسبي أيّة صورة لي. قلت لك، وكرّرت التقاط الصور يرهقني، تُذكّرني أنني على وشك أن أفضّ نزاعاً مع أحد ما، ربمّا مع نفسي. على العكس منك ..

عوائد الحبّ

"وأذكر أيّام الحمى
ثمّ أنثني على كبدي
من خشية أن تصدعا ..
كأن خلقنا للنوى وكأنّما
حرام على الأيّام
.. أن نتجمّعا"

هذه الصورة وغيرها وضعتها في الألبوم. تجاهلتها. لم تسمح يوماً لهلال أو طرب، يونس ولا الأستاذ معاذ بالتقاط الصور الجماعية منذ الثانوية. تعيد الكلام ذاته وأمام الجميع:

نعم، أنفر من الصور الفردية والجماعية.

تذكر تلك المماطلات القديمة بين الخالات والوالد والعم وهم ينادون ويلحّون:

هيّا، أسرعوا قبل أن يموت أحد منّا.

هذا الأمر كان يستفزّها من العمّ مختار الذي اشترى الكاميرا، وسلّمها لهلال قائلاً:

لا تحذف وجه عفاف الشيطانة من الزوم .. ها .. الحقْ بها من لقطة لثانية، هيّا صوِّر، صوِّر هنا وهناك .. ستنزل اللعنات عليك إذا تقاعست، وعليها إذا أغمضت عينها.

كانت تحمل القليل لكي تستخرجه طواعية وعلانية: صوّرهم، أنواع الأمراض التي أصيبوا بها .. و.. فيتمّ الاستعراض، وتبادل النظرات بين الجميع، والصور باقية قبل إقلاع الطائرة في الليل والنهار .. الصور لا تتغيّر قبل السفر ولا بعده. وضع بيدها يونس وطرب وصميم والوالدة والوالد والعم والخالتان الألبوم ذا الغلاف السّياحيّ، وعليه صورة ضخمة لأسد بابل. ملفوف بورق من البلاستيك السميك. لا تدري لمَ درجوا على هذه العادة البغيضة:

لفّ الشيء اللطيف بشيء قبيح.

آه، هلال كان الغائب الوحيد في الوداع. بيبي فاطم بقيت في الطابق العلوي، لا تريد أن تجفّف دموعها. في أيّام خلت هلال ضلّل الجميع، هي في المقدّمة، فأظهرها خِلْسَة ذات وجه صالح للتصوير، بل على العكس فوتو جنيك .. هل الصور قضية حبّ حقّاً؟

هكذا، ظلّوا ينظرون إلى الكاميرا والخالة فتحية وضعت أُغنيّة لمحمّد عبد الوهاب، لا تذكر ما هي، فلم تُفضّل أُغنيّة "يا مسافر وحدك"، فهي لا تريد أن تُودّع أحداً، ولا أن يبكي أحداً أمامها. تماماً، أُغنيّة لطيفة ومُسلّية، لكي تساعد الجميع على التّنهّد بدون تضخيم، ولا دموع. ببطء شديد، بدت صورهم وجميعهم على وشك الابتسام، وهيئاتهم تحرّكت قليلاً من مكانها، وكان هناك أمر موجود على مستوى الملامح، ما بين العيون والشفاه والجبين، ظهر للمَرَّة الأولى، والثانية، ولم يبتعد أو يختفي:

كلهم حزانى.

استأجرت استديو مفروشاً بين ساحَتَي فولتير والباستيل، في شارع: Leon Fro t، في الحَيّ الحادي عشر، ولفترة محدودة. وضعت الألبوم على طرف طاولة الطعام الخشبية. فتحته، لا على التعيين:

نعم، يا فتحية، لا تعود الألبومات تلزمنا. فأعدت الكرة، وفتحته على صور، صور، ولكنْ، كما ترين، لم تساعدني، فلم أرَ شيئاً.

بقيت تتسمّر أمام شدّة الإتقان لحركات اليد الخارقة التي تقدّمها بعض اللوحات العالمية وهي تكاد تفقد النطق حين درست بعضهم. كانت اليد وحركتها تدعها متفكّرة متأمّلة. كيف أراد فان غوغ أن يكون مجنوناً وهو يصنّف، بكذا، ويودع جانباً، وبحسب أخطائه، فينسحب عليه الصيت ذاك، لكي يخلص من قبضة وأيدي الآخرين عليه. ظلت تردّد أمام صميم بصوت مسرحي:

هكذا نقول، يا أستاذ، عندما نريد تلخيص حياة شخص ما، فتتمّ الإشارة، ويذكر: تتلمذ على يد فلان الفلاني. يا للحسرة! لم تبقَ إلا التسليات البليدة لقضاء باقي أيّامكم. يا عزيزي وصديقي، ستأتي الأيّام، وستكتب عنوان عملك القادم، وبخطّ مشعّ كالقنبلة: "عار التّحمّل"؟

"بقجة" معاذ الألوسي

أبعدت نهائيّاً عنهم، فلم تعد تدور في فلك أيّ واحد من أولئك الذين استقرّوا هناك. شغلوا أمكنتهم في الألبوم، ولن تلتقي بهم مَرَّة أخرى. لا تريد أن يتبعها أيّ واحد منهم، وهي تدفع بقَدَمَيْها عبر المدينة الجنِّيَّة. لا يحاذيها ولا يطلب منها أحد أن تتحدّث عن نفسها، ولا تريد أن تقول لا أو نعم. شابَّة في نهاية الثانية والعشرين، تمشي وحدها، موجودة وحدها، جاءت وحدها. قصصها عادية جميعها، وربمّا بائسة، وليس لديها أيّة معانٍ إضافية، تمنحها صفات نموذجية. الصور لا تعرّي النَّفْس، فالحبّ والموت بقيا في الخارج، خارج الألبوم.

تظنّ أن صميم وطرب وقفا هنا في هذه الجادّة التي يصعب تخيّل حسابها بالأمتار أو الدماء أو الصرخات أو الدموع، تتخيّل هذا وتُدوِّنه وتبعث به إلى الأستاذ معاذ، لكي يُكلّل الشانزليزيه في إطار الفرادة والعجب. بالضبط، هنا وقفا، وتصوّرا تحت قوس النصر. حسناً، القوس يُغري بالنصر.طرب عادت من هذه المدينة وبعد الزواج، وهي لا زالت في المرحلة الأخيرة من الدراسة. عادت، ربمّا، وحدها، ولا تقدر على وصف أو نحت أو تصوير ما شاهدت، فظلّت تزفر زفرات طويلة، وتنفث سيجارتها، وتريد أن تصوغ خطاباً، لكي تقول:

لا تصلح باريس للمتزوّجين حديثاً أو قديماً. لا تصلح إلا لحقيقة واحدة في مجملها: انتظري محبوبك، انتظري لوحتك، انتظري انتظارك، لا تتوقّفي

إلا أمام الحبّ، يا عفاف، ولا تضعي الزواج على طرف لسانك، أوّل ما يصله اقطعيه وارميه، واجلبي لساناً آخر. غنّي، أغرقي مَنْ تُحبِّين بالغناء والغرام حالما تلتقين به، وانهالي عليه كما لو كنت في مجاعة، وكفِّي عن القراءات الفلسفية. لماذا لا تتركين الدروس في العام الأوّل؟ أرجوك، عفاف، لا تزجري جسدك، وتعتبريه جبهة معادية، وتقابليه بالتجاهل والإهمال، فتهزميه، وتنهزمي. تصرّفي مثله، أجل، لا تنظري إليّ، كما لو قلت كفراً. نعم، مثل الرجل. انتقلي حالاً للهجوم، وأنا على يقين أنك ستبلين بلاء حسناً.

هل ستعثر على وثيقة النصر هنا؟ أمام هذا القوس، أو بجنبه، أو وراءه؟

كانتا تدليان بأسباب وجيهة، وهما جالستان في نادي العلوية قبل أن تغادر. يشربان الفودكا المثلّجة التي قاما بخَلْطها بالبيرة وشرائح من الليمون الحامض. كان النادي مكتظّاً في مساء كل خميس، وكانت الجبهة الوطنية ما بين حزب البعث والحزب الشّيوعيّ تتفكّك وتحت ضوء ساطع. كيف يحصل الانهيار، يا ترى؟ في أيّة ساعة، تمّ ذلك، ومتى كتب وحدّد تاريخ التفكيك؟ هل كان في الظهيرة؟ أم بعد منتصف الليل؟ أم في اللحظة التي كانت هناك ألعاب نارية في مكان ما في النادي، والصديقتان تتناولان شرابهما المفضّل، وصوت طرب سليم النبرات وهي تقول:

هذه خلطة شرابنا تعمل بسرعة، بل أسرع ممّا بمقدورنا الاعتماد عليها وحدها؟ هكذا هي خلطة الجبهة، فالحزبان ثملان، وينتظران الانتقام ريثما يستوعبان البغض حتّى الثمالة، فنراه معروضاً أمامنا، وهما مستعدّان لرمي أحدهما الآخر تحت الدَّبَّابات، ونحن نسخر في مجالسنا، ومع بعض الأصدقاء، وفي سهراتنا الخاصّة ونردّد: أحد الحزبَيْن توقّف حيضه، والثاني تعرّض للخِصَاء. وكان صميم يشرب ويدخّن وهو يردّد:

آه، يا أعزّائي، أمامي الكثير من الحبكات البوليسية والدّونكيشوتيّة، لكي أُحوّل تلك الشائعات أو الخيانات أو الأكاذيب إلى خليط، لا نستوعبه، ولا يقدر الوقوف على قَدَمَيْه. جبهة امتلأت بكتل الكراهية، وعلى ذلك النحو، لا ننتظر إلا إطلاق الرصاص على المتكلّمين الأحياء والغائبين الموتى.

كانت تصغي إلى اللغة الفرنسية، وكأنها تتوجّه إليها فقط من المارّة جميعهم، تستيقظ وتقف في مواجهتها، فتراها كما هو عرض الرابع عشر من تمّوز الذي يجري أمامها، فترى الأشياء على نحو مختلف. لغة ترتدي قفّازات من حرير، وترمي لها منديلاً في أناقة لسِحْرها الشديد. لغة ملمومة ومضمومة بين الساتان والحقائب، واللسان والأسنان، فما عليها إلا أن تُخرجها من منحيات الأفواه، والاقتراب منهم، فتقوم بمراقبتهم، وهم يتحدّثون في المترو والحافلة، وهي تتيه وتبتعد، وتكاد تنتحب حتّى يفكّ لسانها بلغة تجريدية ما بين الإنكليزية وبعض المقاطع التي بدأت بتعلّمها من الكتاب الذي أهداها إيّاه صميم، تورق صفحاته، وهي بين الجموع، وتتبادل النظر مع الجميع، وتتجنّب المقارنة مع .. فهذا لا يجوز. من المحال أن لا يلحق بها أحدهم، ومن هناك، بوسعه أن يظلّ صامتاً، لكنْ، سيبقى في صحبتها، وهما يدخلان المقهى الذي يقع أمام النافورات والحدائق الدّائريّة التي لم تجد ألفاظاً تُعلن عن بهجتها وهي تشعر بخفّتها في تلك الثواني، بدأت تخاف من القوّة، قوّتها. كرّرت تلك الكلمة عدّة مَرّات:

القوّة لها مصاعب ومعاجم شتّى. وأنا الآن أُحسن الطيران باللغة المباركة التي ستفضي بي إلى نفسي، وهذه تقرأ عليّ تدلّهي بما يخصّ بصري وبصيرتي لمستلزمات بناء ذلك المكعّب، وطيشي بالتّخلّي عنه، وغَيْرة معاذ وضيقه وهو يُحدِّق فيّ غير مُصدِّق سفري، فلم يحضر حتّى للسلام، وأنا أداعبه قائلة، تصوّر، يا أستاذي العزيز، نظرية تفريغ البيت،

وربّما العائلة كشكل تاريخي مكشوف رمزه، فمن خلاله، يتمّ إيواء الساكنين به كأنهم لوحات فنّيّة تدور على امتداد الداخل / الخارج .. يا عزيزي، هذه النّظريّة ستلاحظها عندما يفرغ سكني منّي، فلا أعود إلّا مجرّد تصميم في ملفّ .. ها، أرجوكَ، أنا أُفضِّل وضعي في "بقجة"، تلك التي كنّا نحلم بها. فكل ما حولي في هذه المدينة يؤكّد على الـ "البقجة" العالمية التي لا تنام. وصوت معاذ لا يتبعثر هنا، يصلها واضحاً وهي تتمشّى بين الحدائق:

من المؤكّد سمعت اسم "البقجة" من جدّتك العظيمة، بيبي فاطم. هي مفردة لا تشبه غيرها. تفتح الطريق لغيرها، وتتحرّش بالذي يجاورها من معانٍ ونعوت من الموادّ والإيقاعات، كما بين نوتات الموسيقى، وباقي الفنون. البقجة تأسرني حتّى لغويّاً ومعماريّاً وجنسيّاً. سأضعها وسط المكعّب. أنتِ شاهدتها في التصميم، فانتظرتُ تعليقكِ، لكنك صَمَتِّ كالميتة. سامحيني، عزيزتي. جمعيكم سأضعكم وسطها، فتتدلّى ثماركم شهية، ويتصاعد بخاركم ناعما رضيّاً. وظلالكم لا تمسّ، فيترشّح الضوء وينحرف عن الأجساد. طبعا لن "نطلي السقوف ولا الجدران، لم نضع الستائر،" ستر مَنْ ومَنْ "فالمادّة الأصلية الجميلة، لماذا نغطّيها، خوفاً عليها مِن غضب مَنْ؟. فالطابوق بجمال آسر / والكونكريت في السقف فقط إذا لم يُغشّ، فهو في منتهى الأناقة عند تنفيذه لا يحتاج إلى غطاء يستره. والخشب مصفّح ضدّ الخياس والنخر بالأرضة، وخاصّة إذا كان أصيلاً، فالطابوق مكحّل ومدهون بالأبيض. الخشب مُشبَع بدهن الكتّان، وهو صاج جميل أصلي ماليزي، والجدران مزدوجة، وحبّات الستاير صالحة للعزل الحراري، والأهمّ العزل الصّوتيّ".

مشغل الثورات

اهتدت إليها الألعاب النّاريّة، فأخذت صفة المهابة، وهي تتصاعد دفعة واحدة في ليل ثورة الرابع عشر من تمّوز في العام 1789 فتقذف بعفاف، لكي تعرّف بما لديها من سنين وأعمار عندما ولدت في العام1958، وفي منتصف ليله الغارق في الأنين الذي ما زالت تسمعه من بيبي فاطم، وفي كل عام لا تقول وداعاً وتستريح، على العكس، تقف وسط الطارمة وأمام مدرسة الفاذرية كما يحلو لها تسمية كُلّيّة بغداد، وتبدأ بالسِّبَاب الطويل، كما لو كانت أمامها قوائم بأسماء الوزراء والحكومة العراقية والدولة العراقية ونوري السعيد والإنكليز، والوصي على العرش عبد الإله تشتم .. فتتعب، فتجلس على إحدى الدّكّات وهي تنتحب بصوت مخنوق:

أي أويلي على ذاك الملك ابن الخايبة بعده صغير، أي هَم الله ما يقبل.

تشهق وتمسح الدموع بذيل منامتها المنزلية. وكان قد مضى على مقتل تلك العائلة الملكية أكثر من خمسة عشر عاماً ..

تمشي عفاف وتراقب البشر في هذا اليوم، فهو يومها أيضاً، وهي ما زالت تقول لنفسها:

نعم، إنني فتية، لكن الهرم يقف بجنبي.

هل صارت خارج السنين والأعمار، وهي هنا؟ نعم. لديها عمر قليل، وهي واقفة بين الحشود، فتحسب أنها نزيلة عمرها الذي تجهله. اغتسلت، ومشّطت شَعْرها، وتجمّعت بعض الكآبة لا تدري أين استقرّت؟ في القسمات؟ أم في العينَيْن والنظرات؟ كلاّ، تريد أن يضاء أمرٌ ما في جوفها، فتُبصر الخيول والفرسان، والشارع الذي كان أمامها صار خلفها، فوقفت أمام ساحة الكونكورد. الوالدة مكّيّة بقيت في حاجة إلى تِقْنِيَّات جدّ حديثة، لكي تُذلّل آلام الوضع، وحمّى النفاس التي أصابتها بعد ذلك .. ودوي الطلقات النّاريّة والبيانات العسكرية وآيات من الذِّكْر الحكيم وتعليمات بالقَتْل والسَّحْل، والطفلة عفاف ولدت تماماً بهذا اليوم نفسه. والخالة فتحية ضحكت طويلاً، وهي ترى الفتاة التي لا تبكي. لم تبكِ في البداية، تجمّدت الدموع، وبعد أسابيع، صارت الدموع شرعية، لكن الحَوَل لم يظهر إلا بعد شهور وشهور. شاهدت الناس يلتقطون الصور، وشاهدت صورتها وهي طفلة مغمضة العينَيْن أيضاً .. وكل شيء يفتح الشّهيّة، إذا ما قامت بالاستطراد، فقد بقيت بين الحشود الظهيرة كلها، مثلهم كلهم بدت تُصدِّق نفسها أن الثورات لها جوقات شرف وطبّالون وأبالسة وشبّان يضربون رؤوسهم بالحائط، ويطلق عليهم؛ اسم الثّوّار، فلا أحد يرى صورهم إلا بعد أعوام من الإعدامات الجماعية .. صور، صور لوجوه احترقت، وساحات امتلأت بالرايات الحمراء والجثث، قالت:

ياسين وقف يوماً تحتها، وعقد حاجبَيْه، كما عقد عزمه أن يكون على صورتها.

الصور في باريس تدع المتفرّج يريد أن يكون هو الراوي بدلاً عن هؤلاء الرواة جميعهم في الإذاعات والتلفزيون والكاميرات والمصوّرين، إلخ. صور لا ترى داخلها دماً .. سترى الدماء في اللوحات، وهي تبدأ بالزيارات.

رفعت رأسها إلى السماء، كانت أقلّ قسوة من تلك، كيف تستطيع أن تهتدي وتتعرّف على أمر تريد تصديقه بقوّة؛ هي الآن تملك الشجاعة أن تكون بعيدة كثيراً عن هناك، وتكون هي نفسها أيضاً.

كفى، يا عفاف، لا يعلم إلا الله إلى أين ستصلين، وأنت تتبعين نصائح قَدَمَيْك، فهي ستُحقّق لك الكثير ممّا تجهلين. هذه مدينة تفقد المرء صوابه، فينفض نفسه عن نفسه، فلا تتعجّلي، فأنت لا تعرفين، لسوء الحظّ إلا ذلك الصداع في رأسك الذي ابتليت به صباحاً مساء وليلاً، وإلى اليوم التالي. الآن تتعرّف على أمر تريد تصديقه، هي اليوم شخص آخر يندفع بعزيمة حقيقية، ويفاجئها، وهي تريد أن تكونه .. كنت تجهلين مَنْ أنت؟ وإلى أين ستقودك هذه المدينة؟

كانت تريد أن تُصدِّق أن القصّة بدأت، وهنا ومنذ العام 1979 وبدء العام الدراسي، قبلت في البوزار. كانت تريد أن تُصدِّق ذلك بفضل مجموعة من "المزق" والتخطيطات التي حملتها في حقيبتها الكبيرة، "رفضوا السلايدات التي تصوّر أعمالها الزّيتيّة في أكاديمية الفنون الجميلة. كانوا مُصرِّين على مشاهدة الأصل. في البوزار. دخلت الامتحانات، واجتازت عشر موادّ دفعة واحدة، ورفض أساتذة الموادّ الأربع المتبقّية، وهي: الحياكة والمنظور وتأريخ الفنّ والزجاج، أن يُجيزوا نجاحها في تلك الموادّ، لسبب بديهي: لم يسبق أن تعرّفوا على الآنسة عفاف أيّوب من قبل، فواظبت على حضور تلك الدروس الأربعة في العام القادم".

كانت تشعر تقريباً، أنها: لا شيء، فلا تدري ما المسموح به في الصفوف والجامعة ومع الطَّلَبَة. هل تثرثر، تسخر، تضع نفسها في الخفّة واللّاتوقّع؟ إلى أين ذهبت صلابتها؟ مع هذه الحرّيّة كلها التي تلتصق بها،

فلا تجرؤ أن تصير حرّة تماماً. كانت تبذل جهداً مضاعفاً لإخفاء المحادثات الباطنية والشجارات الدّاخليّة مع أطيافها، فتبدأ بترتيب تصرّفاتها:

هزّة من رأسها أفضل، أو السلام بالأيدي؟ فالفتيات يُقبّلنَ الشّبّان قبلات سريعة، بسرعة، ولا تبعث على القلق، ولا أحد يتوقّف بَغْتَةً، لأن الخطر قادم .. وفجأة، يظهر العربي الأوّل والثاني، ثمّ يصل العراقي والعراقي الآخر والآخرون. حسناً، على هذه الآنسة أن تُعرّف بنفسها، أن تقوم بالتبليغ، فهي أمام شيخ من شيوخ القبيلة. بدت ترى أحداث الأيّام والأسابيع والشهور الأولى، وهي في صفوف ونادي وحديقة أكاديمية الفنون الجميلة في البلد، لا بدّ أنه القضاء والقَدَر الذي وضع أولئك المخبرين والوشاة، وأصحاب القبضات المصوّبة نحوها هناك وهنا، فحضروا كنوع من المساواة والتضامن. بدا قرار تجوالها وحيدة ما بين المعارض والأحياء الفنّيّة، بدءاً من مونمارتر أو سانت دوني لتصوير أحياء الرّسّامين والمتدرِّبين، وللأسواق التي تعجّ بالعاهرات. أصرّت أن لا يكون معها أدلّاء. ظلّت تردّد مع نفسها وهي تضيع، ثمّ تسأل المارّة، وبالتالي تعثر على ما تريد:

وجوه العرب والعراقيّيْن تذكّرني وهم ينهضون وحسب الأصول المرعية لكتابة تقاريرهم كما الطبيب الشّرعيّ، فلا تبارح البكارة رؤوسهم ولا تزول إلاّ بالصفير أو التّبجّح .... حسناً، أنا البكر البتول، أُغمض عيني فيما إذا قصدت الغريب، أو قصدني المجهول، فتسرّبت من بين يدي زيد أو عمر، فكيف السبيل؟ وما العمل؟ وهذه الآنسة لا تشير بكلمة عذبة واحدة حتّى. فبدأت على الفور بالاشتراك في المعارض الجماعية مع الطَّلَبَة الأجانب. بالكاد ترسم خصائص الفراغ واللّاشيء، والمحو للوجوه الصّمّاء التي بدأت تلازمها، فتطردها من اللوحات، فمعظمهم تحوّلوا إلى أشكال عمومية، كما أولئك القوم في تلك الديار.

المدينة هذه تخاطبها، حادثتها طويلاً، وهي تريد أن تسمعها اليوم، وتسمع خطواتها ليلاً ونهاراً، تستدرجها، فتتصوّر أن جيناتها الوراثية كانت من قبل مجرّد خطأ شائع. وها هي الآن، لن تُكذِّب رسومها وتخطيطاتها، فقد اقتربت من الجانب الآخر لـ "اتّساع الأفق" الذي ما زال يقوم بالخلخلة، فهي ترسم وتُلوِّن، تمحو وتهدم.

قالت فماذا تروم؟

مضى العام الأوّل، ولم أتلقّ خطابات.

في الأصل، هي لم تكتب لأيّ أحد هناك. هل انتهى الأمر حقّاً، بالنسبة إليها؟

تدفع بالنسيان بعيداً، وما إن تختار إحدى طاولات مقهى ما في الحَيّ اللّاتينيّ، وقريباً من السوربون، فتقذف بنفسها على أحد الكراسي. كانت تريد تجميع كل ساعات وثواني الثالثة والعشرين من أعوامها، وهي تبتسم فيما حولها، تضحك وتريد أن تُطلق صوتها بالغناء دون الاكتراث لأحد:

قالت: هذه المدينة تناسبها الأغاني الملتبسة جميعها، فهي تقلبها وتصنعها على مقاسها، فتقدّم متعة لمَنْ تراجع ذبذبات صوتها وأمام نفسها، وهي تحتسي البيرة. تنتابها غبطة تُغريها، تتوقّف قليلاً، وتأخذ نَفَساً عميقاً: هذا هو الهوى الذي يفكّك أطراف قَدَمَيْهَا، ويهبط على رئَتَيْهَا، فتترسّب الليالي، وتمكث طويلاً، فتُراوِدُها روحها على الغناء، فتقع مسؤولية ذلك على باريس، فتطلق ضحكة للنادل:

"قالتْ تخلَّيتَ بعد فرقَتِنا
فقلتُ عن مَسكنٍ وعن سَكَنِ
قالتْ تَشَاغَلْتَ عن محبَّتِنا

قلتُ نعم، بالبكاءِ والحزنِ
قالتْ تخلَّيتَ. قلتُ عن جِلْدي
قالتْ تغيَّرتَ. قلتُ في بَدَني
قالتْ أذعتَ الأسرارَ
قلتُ صَيَّرَ سرِّي هَوَاكِ كالعَلَنِ"

قالت عفاف، ما إن تفتح الباب حتّى تتطاير الأسرار والقصص، بدءاً من حَيّ السفينة، مروراً بشارع التانكي، فتقدر التّوقّف في القيظ والبرد أمام الباب، وتغمض عَيْنَيْها، فلا تشعر بالضجر هنا .. هي تعرف كثيراً هنا، كثيراً جدَّاً عمّا كان هناك، فيتوافد أفراد العائلة في مناماتهم المنزلية، وهي تقوم برسمهم وتشكيلهم، كما تشاء. كان أهلها يرتدون ثياباً داكنة، فلا موعد للنوم عندهم، ولا ساعة للضحك. فيتراءى لها أنهم يقدّمون العزاء، أحدهم للآخر، ولأمر لا تعرفه بالضبط. لم تسمع في أحد الأيّام تهنئة ما وهي تنال درجة الامتياز في المرحلة المتوسّطة، فتنتقل لثانوية الحريري في القسم العلمي.

قالت عفاف، أهلها يعيشون في الجانب الآخر من الموت، فتراهم ليلاً وأحدهم يتعثّر بالآخر. العمّ مختار، محبوبها الأحول المخمور، صاحب المحبّة التي لا تنفد وهو يردّد أمامها قبل أن تسافر:

أنت ثابتة هنا، مقيمة حتّى إننا نقدر أن نخاطبك يوميّاً، وتجيبين علينا. بس خالاتك لا يُصدِّقنَ ذلك. يجوز فتحية تُصدِّق ما أقول.

عفاف تُصدِّق ثيمات ما ترسم، وما تنشد، وهم يبدون وسط اللوحات حيارى، يتعثّرون في الطريق الخاصّ والعامّ. أزرار ثيابهم بعضها غير موجود.

الياقات، في معظم الأحيان، مقلوبة للداخل، والبطانة تظهر من تحت حوافّ بعض الأذيال .. وكلهم شديدو النظافة. ظلّوا في أماكنهم واحداً بعد الآخر، وهي تُنهي القنّينة الأولى، فتطلب الثانية، وبعض الشّبّان بدأ بالالتفات صوبها عندما يتصاعد صوتها. صعد، ورأسها كان معتدلاً، ينظر إلى أمام، والحَوَل، ربّما تحرّك من موقعه:

قالت سررت الأعداء

قلتُ لها ذلك لو شئت لم يكن

قالت فماذا تروم؟

الشراب وأدواته

بقيت عفاف تُحدِّث نفسها عبر الزجاج، وعبر المجهول، وعبر هذه الأرجل والأقدام والأحذية كلها، أو الحفاة الذين تشاهدهم يتحرّكون في الجادّات منذ بدء الخليقة وإلى اليوم. واقفان، كما تقف هي، فترى نفسها متدلّية من سقف العالم، لا أحد يريد إمساكها، وهي لا تريد من أيّ أحد أن يمسّها، فتتبادل النظر مع الفراغ والصمت، فتصل إلى: "بيوت الحَيّ العريقة وشوارعها المرتفعة وسقوفها القِرْمِيْدِيَّة، وكنيستها ذات القبّة التي تتوّج الهضبة المرتفعة، والمطلّة على باريس من أعلى. يا لطول الأدراج الصاعدة والنازلة في حَيّ مونمارتر".

أيّ نصر، عليها التّأهّب له قبل أن تقطع أوصالها بعض الهزائم الصغيرة ..

ثلاثة أرباع الذين قدموا من الجهات الأربع بدؤوا الرسم من هذه البقعة في باريس. لا أحد يتذكّر أسماءهم، هم المهمّشون، المَنسيّون المكتئبون الغائبون ليس بسبب الموهبة. الموهبة تشعر بالتهديد هنا فيما إذا غفت، أو سهت قليلاً .. عفاف واحدة من تلك الحشود التي جذبها الحَيّ انجذاباً صاعقاً، فكانت تقوم بدراستهم حسب التسلسل أحياناً، وفي بعض المَرَّات حسب هوى كل فنّان سمعت بإشاراته الدّاخليّة، فانبثقت وإيّاه تقف وتقاتل في جبهته .. ومنذ العام الأوّل الذي وطئت

قَدَمَاهَا هذا المكان، وبعد مضي العام الرابع وهي لا تلوذ بالفرار من أمامهم جميعاً.

تبعت: "من جاء من خارج فرنسا وباريس، فان غوغ، وبول غوغان، ورودان، وإميل برنار. هؤلاء الذين سيُشكِّلون فيما بعد جماعة بون آفين". بعضهم جاء من مدينة ليل، والهافر. فبدأت عفاف ترسم وجوه وبشر باريس وهم يمشون ويتحدّثون وحدهم أفواجاً، أو هي وسطهم متأخّرة قليلاً وقريبة من أسفل اللوحة، أو في أعلى تلّة من مونمارتر، ترقبهم من الجوانب جميعهم، ثمّ تهبط بهم وبها، فتدخلهم وإيّاها الساحة، وتغلق عليهم نهائياً. يوم شاهدت رسوم التّعبيريّ الألماني "لودفيك كيرجنر" الذي كان يرسم نفسه، فزعت حقّاً، فقد كانت تتّخذ التدابير اللّازمة لكي لا تظهر في صورة فوتوغرافية تتربّص بها بعد المؤثّرات جميعها، فكيف كان الفنّان يرسم نفسه، وينصرف انصرافاً تامّاً، لكي يبلغ حالة إشباع لشهوات جوع نرجسيته، فيظهر وهو يقوم بالإصغاء إلى كلامه، ساعياً إلى استخراجه من تحت حصون جسده .. وجسدها، وما تحت ثيابها، فترسم اللوحة المجهولة، والبطن التي لا تعود لها، والإغراء الذي لا تعرف لمَنْ تُوجِّهه. خالتها فتحية قالت لها في أحد الأيّام:

لا أتخيّلك يوماً زوجة لرجل، وأمّاً بيدك طفل؟

وصميم قال لها في زيارته الخاطفة لباريس في العام الثاني من دراستها:

أنت امرأة واحدة ووحيدة.

كان أستاذ تاريخ الفنّ مسيو بول دينيس في البوزار، يعرف جيّداً، أينما ذهب أو خطا، أغمض عَيْنَيْه، ثمّ فتحهما، يبقى فان غوغ، فما إن يدخل

المرسم، وتبدأ المحاضرات، فينادى على أحدهم، فيقوم بالمجازفة: تحليل تدلّه البعض بفان غوغ ورموزه، لوحة ما يُسمّى: بـ "الحياة الجامدة" حول المائدة الخشبية المتينة التي كان قد وضعها رمزاً للإمساك بالأشياء في هذا العالم، وأن يقمع مشاعره الدّاخليّة. بقي يردّد أمامهم: "على تلك المائدة وضع ما أسماها بالحقائق القوية في حياته، 4 بصلات، كتاب طبّيّ يساعده في الحياة، شمعة، غليون وتبغ، ورأى على المائدة رسالة من شقيقه. زجاجة فارغة من الشراب".

بقيت ترى دائماً، هناك في البلد، أو هنا في باريس:

العمّ مختار وهو يزجّ بنفسه داخل اللوحة، هو الوحيد الذي كان يُنقذ اللوحات من التراجع، فترسمه بدون خطط، وتُتيح له الفرص كلها، لكي يضع على سطح اللوحة أقداح بيت شارع التانكي كلها، الكبيرة والمتوسّطة والصغيرة، أي غرض زجاجي يصلح للشراب كانت تضعه في الوسط حتّى استكان الشاي المذهّب والمضلّع باللونَيْن الشّذريّ والأصفر الذّهبيّ. بعض الأقداح كانت خالية، والبعض تكاد تفيض بالخمرة، وقليل منها وقفت إلى منتصفها. الأقداح جميعه تعمل بدقّة، وبدوام لا ينقطع، ويبقى داخلها سائل العَرَق العراقي، والويسكي الإسكتلندي، والفودكا الرّوسيّة. فالعمّ مختار يستوقفه السّرّ البلاغي لوفاء الكأس والخمرة، فالمادّة كانت في حال سفر فطري وبدائي، وهي تفرّ من القنّاص، وتتكوّم في كأس العمّ الذي يفيد ودائماً؛ هذا ما بقي له، لكي يداعبه، فلا امرأه بانتظاره، ولا احتمال أن ينتهي به الأمر أباً، فينكمش ويسمع نشجيه اللّيليّ الطويل، وهو يتفقّد الأحواش المسدودة على أهلها، فلا يرى فتحة ما في آخر الزقاق، فلا يعرف مَنْ يشتم ويلعن ..

خفيف الروح

لم ترسم عفاف يونس إلا وهو في حالة من الإعياء الشديد يزداد غيظاً وهي تقول له:

هيّا، يا يونس، إنّي عطشى، أريد أن أشرب السكوتش كما يسمّيه صميم. ترى أين نعثر عليه؟ .. ها. مؤكّد في أحد الفنادق الكبرى، أو النوادي المشهورة كالعلوية أو المنصور .. ها، ما رأيك؟ .

للحظات شعرت لو كان بمقدوره أن يطوّقها، فسوف تروي له قصصاً عن منافع العناق. كانا يتمشّيان أمام كورنيش الصّرافيّة. لم ترَ ارتياحاً في عَيْنَيْه، ولا أبدى استعداداً ما. فبعد بضعة ساعات سيحضر صميم وطرب لنقلها للمطار .. سارت قبله، ومشى وراءها يتشمشم قفاها، وثيابها كالحيوان البرّيّ. النهر هادئ الجريان، ومشيتهما بدت في حالة من التّعثّر. هي ترتدي حذاءً بكعب متوسّط الارتفاع وثياب زاهية الألوان، وأمر ما في سحنتها كان على وشك الاستفراغ. ومن بين أسنانه قال:

حسناً، لنذهب إلى حديقة الزوراء.

لم يغازلها أمام النهر، ولم يداعبها أمام الأطيار جميعها التي فزعت من وجودهما، فحلّقت بعيداً. تصوّرت وهي ترى حالهما يصعدان التاكسي في الطريق للحديقة، أنها تشاهد فيلماً مُضجِراً تافهاً، وحين وصلا، لم ترَ

أدلّاء يشيرون عليهم . عن ماذا يتفرّجون أوّلاً؟ وما إن بدؤوا بالسير قليلاً، وإلى الداخل حتّى هبّتْ عليهم الروائح الكريهة القادمة من داخل أقفاص الحيوانات التي، وكلّما اقتربا، كانت الرائحة تتضاعف، والأصوات تزيد. بَغْتَةً، وقفت أمامه، وقامت برفع ذقنه إليها، وهي تحاول أن تلمس رأسه، وبدأت تُدندن بأُغنيَّة سيّد درويش:

"خفيف الروح بيتعاجب
برمش العين والحاجب
خفيف الروح
غمز لي مَرَّة بعيونو
رأيت الحبّ مضمونو
حرام إن كنت أخونو
وعشقي له من الواجب"

كانت هناك أنواع من الزهور والورود ذات الأريج القديم الذي فاح منذ قرون، وتوقّف هنا، فكانا يدوسان على الرَّوْث اليابس والحديث الذي تناثر وامتلأت به الأقفاص، وبدأت تصلهما أصوات دمدمة زئير الأسد الذي ما إن وصلا قريباً منه حتّى ظهر من وراء الأعمدة شديد الضجر، أكثر منهما. في تلك الساعات الحارّة من ظهيرة العاشر من حزيران، ذات الوخامة وسوء الطالع: قال يونس بصوت شديد الأسى واليأس:

أحبّك.

بذلت أقصى ما بمقدورها أن تُفرِّغ صوتها من شحنته الغاضبة، فصارت تقضم شَفَتَيْهَا، وتقوم بتهدئة روحها، لكنها لم تقدر إلا أن تُزمجر:

هيّا، إذنْ، عانقني هنا، أي هنا أمام القرود والفهود والأسود والأفيال، وبين الضواري الجائعة. استمتع بعيون هذه الحيوانات الحبيسة، وهي تبلع ريقها من العطش، وترمي علينا وسخها .. هيّا، لا تتشنّج مثل الطاؤوس المريض، ها أنا أسدّ أنفي بمنديل، وأُغمض عينَي، وأريدك مائة بالمائة في هذه اللحظة الحيوانية المثيرة .. ها .. ترى، ماذا يعني هذا المكان في هذه الساعة، يا يونس؟ ومَنْ نكون إلا هذه الحديقة، ونحن نتلقّى الخِرَاء ..؟

غرض جنسي

صارت تراقب وجوه الجميع في البوزار، أنوفهم وقاماتهم وهيئاتهم وخيباتهم وحركات أيديهم، وثيابهم ووجوههم. الكثير منهم لم يُربّوا الشوارب كما هناك، فتركوا شعر وجوههم نابتاً بألوان الأحمر والأشقر والرّماديّ والأسود. وما إن تنزل إلى أسفل، أقدامهم وقنادرهم، فهذه لا تقلّ مغزى عن لحاهم، وعلى غير إرادة منها كانت تضع بعضهم بدلاً عن بعض، وهي تحاول فَتْح قميص أحدهم، لترى شَعْر صدره الكثّ، كما .. امتقع وجهها، وبدت عيناها كأنهما ثُقبتا، ووقفت على صورة واحدة، بقيت لا تخالط غيرها ؛ ياسين، الذي هاجر قبلها. فهل اجتذبته المرأة الشّيوعيّة، فتحوّل إلى غرض جنسي يتطلّب تِقْنِيَّات وإغواءات حديثة، وإلا فلن تُبقي وزناً، لا له ولا لأمجاد تاريخه القديم. في هذا الصرح الفنّيِّ لاحظت أعداداً لا تُحصى من الفنّانين العراقيّيْن والعرب، واستطراداً لتلك الأفكار الثّوريّة في جمهورية أباريق النبيذ، وثورة الشباب، وحرّيّة التنقيب بين السراويل والنهود، وفتحات السيقان، وخطابات الشّيوعيّيْن الأوربيّيْن الأوائل، أو العراقيّيْن الفرسان .. بقيت تتجلّى أمامها على الشكل التالي، فيما لو فكّر ياسين في أحد الأيّام، وقام بكتابة خطاب وبأثر رجعي، وبعثه إليها، ولو عن طريق الخطأ، فماذا كان سيُدوِّن:

"نحن الشّيوعيّون العرا..، كنّا نعاني من انفصام في جزء من أنفسنا، كنّا وأردنا أن نكون شهوداً للحقيقة منتقمين للأذى الذي عانى منه الضعفاء

والمظلومون، المدافعون عن العدالة ضدّ كل ظلم. وفي جزء من أنفسنا كنّا نبرّر الأخطاء والعنف واستبداد حزب ستالين - تحت شعار - "الضرورة" فُصاميون منقسمون. أتذكّر جيّداً بعض الرفاق عندما يعودون من زيارتهم لبعض الدول الاشتراكية كانوا يصرّحون لرفاقنا الأعلى مرتبة: أنهم كانوا يشعرون من أعماقهم بعدم الراحة، والغربة، وأن بعضهم صار عدوانيّاً تجاههم، ولكنْ، ما إن يعود أحدهم ويصعد الطائرة مُتوجِّهاً لبلده، ويطلّ على أضواء العاصمة، حتّى يبدأ أحدهم بسؤال نفسه ؛ ولكنْ، حين أصل إلى هناك، بلدتي، فماذا يمكنني أن أكون سوى شيوعي عراقي.

نهاية السّتالينيّة رفعت عن صدورنا ثقلاً رهيباً: ربمّا كما أقرأ في نشريات الشّيوعيّيْن الإيطاليّيْن أو الفرنسيّيْن ما معناه: إن شكلنا الأخلاقي وشخصيتنا المنقسمة يمكن أن تتكوّن أخيراً من جديد".

إلى هنا تلاحقها أشباح ياسين، وقوانينه الاستبدادية. ما شأنها بالشّيوعيّة وأتباعها؟ فلتبقَ الراية خفّاقة حمراء أو بنفسجية، جديدة أو مثقوبة بالرصاص وملطّخة بالدم، فليرفعها هذا الفريق أو ذاك، فالفتى ياسين ذاك، هنا شاهدت بعضاً من أولاده، وهم مثله يعملون ضمن مصطلح "من أجلهم". وهي، عفاف أيضاً تعمل من أجلهم: الرّسّامين والرّسّامات كلهم، من أجل الرسم، فما شأنها فيما إذا احتدم النقاش من حولها لدراسة الفروق بين شيوعي وآخر:

إننا جميعاً من نوع إنساني واحد، معطوب ومتوحّش، بالبلد هناك كان وما زال يغصّ بالشّيوعيّيْن والبعثيّيْن وغيرهم، لا أعرف ألقابهم ..

وما إن تغادر بيت ياسين في حَيّ السفينة عائدة إلى بيتها المجاور، وعبر تفاصيل جدّ دقيقة لم تبارح رأسها، وهي جالسة في كافتريا البوزار،

وهي تمسك بيدها فنجان القهوة الساخن جدّاً. كانت ترتدي ثياباً سوداء، ولا تشاهد نفسها إلا وهي عائدة أو سائرة ما بين الحوشين. نعم، كان اللقاء مميتاً، وكان اللقاء أخيراً، والغضب يسير بجوارها .. وهي صامتة. لم تنتبه لأيّ أحد، لا وقتذاك ولا الآن، فلا تريد أن تكون سنّها أربعة عشر عاماً، هذا رَقْم جائر، فهو لم يحرِّك ساكناً، وهي تُبصر سنّها في المرآة، فترى نفسها عجوزاً تتهالك أمام حشرجات الآنسة والآنسات داخلها. لم ترتوِ من الرابعة عشرة، ولم تتنعّم برائحة الأنثى التي بلغت وجاءها الحيض قبل عامَيْن، فاجتازت الجبل والوادي، حسناً. لا تبكي، يا آنسة، لا هنا، ولا في أيّ وقت، ولا عندما ودّعت عائلتها وأصدقاءها. صحيح راودتها بعض الدموع، فدفرتها بحذائها إلى خارج محجَرَيْها، كما دفرت ياسين، فغادر إلى بلاد الزمهرير، فاستحسنت القيام بمغامرة دعوة قومه إليها؛ الماركسية وساعاتها، فقالت: سأمهرها بخاتمَي الفنّ والرسم، وآخذهما إلى جانبي.

فقامت بدعوة ماركس وإنجلز ولينين .. وغيرهم. كانت تعرف كيف تمازحهم وتداعبهم:

سنكون فريقاً ونعمل معاً، فأنا مُسنّة مثلكم، وعليكم الاعتراف بذلك أفضل من ياسين، فهو لا يُفضِّل تصرّفاتي ورسومي الطفولية، هكذا يُطلق عليها من ألقاب. لم يغمض يوماً عينه ويدعوني لكي أمازحه، هو لا يُفضِّل ذلك. نعم، أقوى أسلحته العبوس .. هيّا، ادخلوا رأسي وبيتي آمنين، فأنتم ضيوفي، وما عليكم إلا الامتثال لقواعدي وتحمُّل المسؤولية، والجلوس ساعات لكي نختار معاً أخفّ الأفكار السعيدة، وأثقل الأحلام الصافية، وألطف الثياب التي تُنتج الطاقة والراحة.

بقيت تبتسم وهي في البوزار، وكانت تضحك بصوت مسموع أمام الخالة فتحية حين تخبرها بهذه الأمور جميعها:

الحقيقة لم تواجهني حالات رفض أو استياء أو سخرية من أيّ واحد من أولئك القوم، على العكس من ياسين.

يبقى الجميع في حالة من الانتقال من غرف المعيشة إلى غرفة الخطّار، إلى غرف النوم، ثمّ السرير ذاك، سرير الخالَتَيْن فتحية وسنية. لم تتوقّف عند ذاك الحدّ، فدعتهم في حالة مرح تامّ مع الوالدة مكّيّة، لكي تطهو لهم كبّة الحامض والهريسة باللحم، والكباب المشوي، فهذه الأيّام كانت تنتظر ضيوفاً على سفرة الطعام، فتضحك مكّيّة من قلبها، ويهتزّ بدنها وهي ترى بعض الرضا في وجه ابنتها، فتلبّي لها ما تطلب جميعه. حتّى العمّ مختار تراه يتساهل معهم، وهو يضع أمامهم أقداحاً معتبرة، لا تخرج من مكانها في الخزانة. إلا للأشخاص الخصوصيّيْن، فجلبت معها إلى البوزار جميع ما قامت به من تخطيطات بالأسود والأبيض لأولئك الفلاسفة والكتّاب والشعراء الروس. لاحظت فتحية أن بعضهم يقف بعيداً والبعض الآخر يشعر بوحدة قاتلة. وهي كانت تستقبلهم بترحاب وحشمة، ومن الجائز شاهدت صورة حبيبها الميت في طيف واحد منهم. فتلاحظ أن بعضهم كان يقف بعيداً، كأنه عائد للتّوّ من ساحة القتال، والجميع يرفعون أبصارهم بعضهم لبعض، ولا أحد يضع كفّاً أو ذراعاً على كَتِف امرأة بجواره .. ما هذا، ياعفاف؟ كانت الخالة تسأل باستغراب:

لم أرَ نساء بجوارهم؟ أي بنتي، أنت ارسمي النساء، إذا لم تعثري عليهنَّ في الصور. ضعينا نحن جميعاً حولهم، فندعهم يشمّون، ويشمّون روائح الرارنج والجمّار، ونحن نزيح الشالات عن أكتافنا وأعناقنا. مكّيّة ستفوح منها رائحة القرفة والقَرَنْفُل والهيل، تلك التي دخلت مسامّها، فدعيهم يشمّونها، علّهم يبتسمون وتنفرج أساريرهم قليلاً. بنتي، لا تتركيهم وحيدين، ترى مو زين على صحّتهم.

كانوا لا يعرفون عن هذه الخالة والحبيب الغائب، الميت الذي قضى في أحد سجون البصرة. بقيت تقاوم ابنة الأخت الفضولية، وتُبعدها عن القنابل، لكي لا تنفجر في وجوه الجميع، وبعد هذه الأعوام كلها .. بين الدموع والضحك، تتعانقان، وتدفن وجهها بين خصلات شَعْرها:

لو تدرين مَنْ سأرسم معهم؟ كلنا جميعاً، نحن بالطبع، نساء وشابَّات العائلة والطرف والحَيّ والمحلّة. بعضنا يعانق أنجلز، والآخر يصافح ماركس، وهم وسط العائلة، وعلى سفرة الطعام، والوالدة تعزم عليهم بالأطباق اللذيذة، وأبي أيّوب، صحيح لا يوافق بالنظر إليهم صراحة، فكانت جلّ نظراته مواربة وغامضة، وبلا ضغينة، لأن مكّيّة تتفنّن بالطهي. بقي يقرّب الأطباق وبأريحية صوبهم. ترى أنا وضعتك في حضن إنجلز، لكي تكتمل المتعة. لا أعرف لم أتصوّر أن به شبهاً من حبيبك الذي تضنّين حتّى باسمه عليّ، إلى هذه الدرجة أرهقك الحبّ؟

وسوف يرهقك ويميتك أنت أيضاً، يا نور عيني، وينازعك على حياتك ووجودك. على مهلك، بعدك ما طلعت من البيضة .. أي تمام وجه حبيبي به شبه من إنجلز الرحيم ونظراته بها نبل أكثر من نظرات لينين الماكرة شوية.

وعادت الخالة فتحية تواصل التجوال بينهم. فيستوقفها من بعض الوجوه التي تُلحّ عليها بالقيام:

بتشذيب شواربهم الكَثَّة، ولحاهم القصيرة والطويلة. لا تدعي جميع ثيابهم داكنة دائماً عيني، وكلها بالأسود والرّماديّ، وكأنهم في حالة حِداد على عزيز، تُرى مَنْ مات لهم؟ هل لك علم بذلك؟ شَكِّليهم كما تحبّين أن يكونوا، ها، ومعظمهم يدُخِّن، لا ندري كم في اليوم الواحد؟

عفاف لم تفزع من هيئات رؤوسهم الكبيرة ونظرات بعضهم القاسية. وضعتهم حول طاولات مستديرة، وبجوارهم رجال وطلّاب وطالبة واحدة ترتدي ثياب المدرسة المتوسّطة، ملامحها عادية وذات نظرات بين الطفلة والناضجة، وابتسامة ابنة الرابعة عشرة. يوم وصلت باريس بحثت عن جميع معارض الألماني دورر الذي صوّر فيه نفسه، فوجدت أنه عدد قليل، لكنها لاحظت أن رمبراندت، وفان غوغ أنجزا أعداداً كبيرة من لوحات الرسم، كل واحد منهما فيها وجهه، وحالاته النَّفْسيَّة المتقلّبة على مدى عشرات الأعوام .. ترى هل كان ياسين يخاف من حقيقته عندما قالت له في أحد الأيّام:

في وسعي أن أدخلك التاريخ. تاريخ البورتريه، فأنا أراك موديلاً لا تغرب الشمس عنه وعن عيني .. ها، ما رأيك؟ أنت موديلي منذ اليوم .. سأظهر فيك ما لم تره من قبل، وما لا تعرفه عنك ..

فكاد يضربها، فأزاحت جسمها ووجهها عنه. ويوم انتقلوا إلى شارع التانكي أخذت التصاوير جميعها معها إلى هناك، فلم تشعر بجوارهم بالوحشة ولا الألم. بقيت، لا أحد يجيبها، لمَ انتحر الخال سامي؟ كل واحد من العائلة ينظر في وجهها ويعانقها ويصمت، وعندما قرأت ديويستوفسكي، تصوّرت أن شخصية "ستافروجين" هي مجموع وموروث ذلك الخال. لم تزد الخالة فتحية عن كلمة:

أي بنتي هو القَدَر الغاشم.

القَدَر الغاشم عمل كلاسيكي، ولا يقف أيّ واحد في وجهه، فالأعمال الكلاسكية تثير الافتتان الجماهيري، كما هم جماهير سكّان شارع التانكي. كان أكبر من ياسين وهلال؛ كان في الثامنة عشرة. بقيت تتحسّس رقبتها

طويلاً، وإلى هذه الساعة، وهي تريد كالمحقّقين العدليّيْن إعادة ترتيب الجريمة، نعم كان ينقصهم: السبب أو الأسباب. فالموضوع يجذب صميم جدًّاً، لكنه يصير كالصنم أمامها. طرب وقتذاك، ومن على أرض الواقع كانت تقول كلاماً بعيداً جدًّاً على أمل أن تعثر عفاف على خيط ما، في حركة التّنقّل بين الصّفّ الخامس ثانوي في كُلّيّة بغداد، وإلى الحركة التالية داخل حديقة الكُلّيّة، فَمَنْ كان معه يترصّده، أو يتبعه أو وضع يده عليه، على جزء، أو أجزاء من جسده، ونظر إليه بمنظار فاجر أو شيء من هذا القبيل .. الجميع، وعفاف في المقدّمة، ظلّت هناك وهنا أيضاً تُعيد تشكيل، وترتيب المفردات والشَّخصيَّات والأحداث الأكثر اقتراباً لما حصل. هل هو أحد أصدقائه على سبيل المثال؟ أم البستاني، أو أحد الأساتذة من الفاذرية؟ .. لم يُبطلْ مفعول الفضيحة بعد عشرة أو عشرين أو قرن، والجميع يُعدِّل ويُغيِّر في حيثيات الرواية وطريقة السَّرْد، كما يحصل في الأعمال الكلاسيكية، فمعظم حوادث الانتحار تلتصق بها رائحة سوء السمعة المفصّل على بعض العوائل، ولا تُمحى أبداً، كما كانت ترويه الروايات الرّوسيّة التي اصطحبت عفاف وهلال، وحتّى طرباً أعواماً وأعواماً، فهي تتحدّث عن أجيال عراقية عدّة، كما ذكرت لصميم في أحد الأيّام قائلة:

نعم، يا أستاذ، بواسطة تلك الروايات تعرّفت وتفهّمت عمّي وأبي وخالي وأخي وأفراد أسرتي جميعاً. ياسين ويونس وأساتذة الأكاديمية وقادة الأحزاب والنقابات و.. عوائلنا جميعاً من الشمال إلى الجنوب. ما كان يحصل لنا كان قاسياً، وهو نقطة التقائنا مع الغير، عندهم الحقّ بكتابة قصصنا، فهم لم يتحاملوا علينا، وعلى سنسفيل أسلافنا. استساغوا أوهامنا قبل مباركة أحلامنا، وأحاطونا بالرحمة والتعاطفْ. صحيح الروايات لا تحسِّن المعيشة، ولا تجنّب التفاهة والمهانة، ولكنها تجعل لحياتنا بعض المعنى.

مسيو كيوم
في منافع المرض

بدأت إقامتها بين المعارض تصيبها بالتّشوّش، فتُبصر المراحل والمدارس والتواريخ وتسجّل الملاحظات، تجلس وتخرس ولا تُشفق على حالها ورأسها، فلم تعد قادرة على الفصل ما بين الموتى، والأكثر موتاً. فشاهدت فترات من حياتها، وقبل هذه الحياة، قبل الطفولة، وعندما كان العالم بلا لغات ومعاجم، وأبوّة وأمومة وأديان وأعداء ووسطاء .. و.. هيّا، يا عفاف، هل تقدرين على هذه الإغراءات جميعها؟ فلتتكلّمي، فهذا أمر لا يصدّق ؛ الجمال يُنذر بالنهاية، ولا أحد بجوارها، لكي يتبادلا التّأمّلات. أنطوانيت السّوريّة تراها بضعة شهور في العام في قسم النحت، ثمّ تعود لدمشق. معرضها الجديد يتطلّب إجراءات رسمية عدّة وأستاذها في الرسم، وبعد أعوام تقابله في أحد المعارض، فيعرض عليها بعاطفة وإعجاب غير مشروطَيْن الاشتراك في معرض كبير وعالمي، يشترك فيه رسَّامون من القارّات كلها، أضاف بصوت شديد الصدق:

أنت، يا آنسة، اسم عربي مميّز يعود لسنوات، وساهم في معارض مشتركة جيّدة جدًّاً من النشاط والبروز. حسنا، نريد لوحَتَيْن .. واسمعي، إليك هذا الملفّ الأوّليّ به عنوان المؤسّسة، وأمناء المشروع، شخصيًّاً بالكاد أعرف أحدهم هو ناقد ورسّام: مسيو كيوم فيليب. التفاصيل والمعلومات جميعها هنا، وهذا، أخرج قلماً، وكتب رَقْم هاتفه الشّخصيّ

على ظهر الملفّ. تصافحا بابتسامة، وأضاف، من الجائز ستكونين العربية الوحيدة .. وربّما .. ويده ما زالت بيدها.

تراءى لها اسم كيوم، الطيف الذي كان يقفل بعض اللوحات عليه وعليها، قد حضر إلى هنا، ليتبعها، فتراه مضاءً وحده، وحده هو يلتمّس الطريق إليها، لأقلّ من ربع الثانية، أجل، هو ذاته الجسد الذي يرخي المسرّات عليها، فتحسب أنها تسمع شيئاً يتكسّر في خلاياها، فتقوم برسمه: هيئة آلهة قابلة للتشابك، وبالتالي للسكنى. مَنْ هو؟ ما هذا؟ ومتى ظهر؟

الكَتِفَان المشدودتان، الردفان القويَّان، والبطن الخاسف قليلاً ؛ هوذا الشكل الأكثر شهوانية وتلقائية. جينات لاستعارة بلاغة غير الغرام والهوى والحبّ، فإذا بلغتها، فماذا ستقول بعد ثوانٍ؟ تكاد تفرّ من بين ثيابه ذات الأناقة الرّياضيّة بنيته النحيلة. هيئته شاغرة بشيء لا تعرف ما هو، هي ستشغله.

تنفّست بصوت داخلي، وانتبهت إلى أنهما يقفان وحدهما في بهو قاعة شاسعة مضيئة فسيحة من أحد القصور العريقة التي تقع في جنوب باريس، في منطقة "شاتو دي فنسين". هما وحدهما. حضرت باكراً، وعلمت من الكرّاسة أن العدد يفوق الثلاثين فنّاناً. كان الشهر نوفمبر، وقد حلّت العتمة سريعاً. فأشعلت الشموع بجانب الإضاءات الخانسة المتوارية بين أعمدة القصر، تدلّت ثريات برّاقة ذات تشكيلة أخّاذة، نصفها بقي مطفأ. بدأت بالعطاس قليلاً، فاقترب:

اعتاد المسؤول عن المعرض كلمسة فنّيّة وضع عيدان من بخور الصندل والمسك. هل تضايقك الرائحة؟

كادت تغصّ قبل أن يواصل:

كيوم، أنا كيوم فيليب. أحد المشرفين على المعرض .. و

لا بدّ أن تجيب، أليس كذلك؟ عاد وهي مازالت تسعل ولا تقدر على الكلام. رفعت رأسها إليه، وبدأت تردّد في سرِّها:

لا بأس أن تردّ بشيء ما .. وصوته:

من المؤكّد أنك الآنسة العراقية عفاف أيّوب.

مدّ يده.

كانت تريد أن تتهالك على الأريكة البعيدة أو على الأرض:

آه، هي الآنسة عفاف.

رفعت خصلات من شَعْرها القهوائي الطويل المجعّد إلى أعلى بدبابيس، وتركت الباقي نازلاً على كَتِفَيْهَا. لاحظت وهي ترفع الدبابيس، بعض الشعيرات البيضاء ظاهرة للعيان.

أوّل ما وصلت شاهدت في بطن إحدى الصالات موقداً وحوله بعض الرجال ينفضون الغبار عنه، ويلقم بالخشب الكبير والأغصان، فتنبعث منه شعلة يتمايل لهبها على الجدران الشاهقة وسطوح بعض اللوحات. وقفت أمام النار في البداية. كانت ترتدي سروالاً من الجينز الكالح والمبقّع، وكنزة صوفية مكسّمة ومشدودة على بطنها، فبرز صدرها الذي ترفعه حمّالة صدر من النوع الفاخر، لأجل رفعة نهدَيْها الناهضَيْن الكبيرَيْن، وفوق هذا جاكيتاً من الجِلْد الأسود، ويغطّي رقبتها وبعضاً من ذقنها شالٌ صوفي بألوان موج البحر. لقد مرّت بالباب الخارجي من القصر، وبدت تتمايل من لسعات

برد، فبدأت تعتصر شالها لكي تتدفّأ، فكادت تتعثّر وهي تشاهد بعض الجذور وأغصان الأشجار قد قُطعت للتّوّ، وبدأ الضوء ينحسر بسرعة، وهي تدخل وتشاهد النيران، فتسمع صوتها، وهي تتحرّك وتحترق.

لماذا، وفجأة، ولأمر مجهول، شعرت أنها محظوظة كَمَنْ اهتدت بعد طول انتظار. وهذه المقدّمات من الكآبة، لماذا تظهر وتشعر بها في هذه الساعة بالذات؟ بالتأكيد، هي متروكة منذ أعوام. ثمّة سوء تفاهم، وليس عليها أن تنزعج الآن، فهذا ليس وقته. توقّفت لحظة، وقالت لنفسها:

لا تتحرّكي بعيداً. أمسكي نفسك. ماذا جرى ويجري لك؟ المرّة الأولى سترين مَدعوِّين عند الافتتاح. أُبّهة وثياباً خاصّة، وأثواب السّيّدات الخاصّة بالسهرة، ربمّا، ومن الجائز أن تقام المأدبة في إحدى صالات هذا القصر العجيب، والطاولة، ليست كما في بيت شارع التانكي، وآه، لن تحضر مكّيّة إلى هنا، ولا تعرف نوعية المأكولات أو الأحاديث الجانبية التي قد تجري ما بين الضيوف. وهي ستغلط في بعض الألفاظ الفرنسية فيما يخصّ الأطعمة بالذات، أمام المَدعوِّين، وستلفظ بعض التعابير، ربمّا في غير مكانها، والمجاملة والإتيكيت، وأقداح النبيذ، وهي تريد قدحاً حالاً. الحساء يربكها إذا ما حضر، وأنواع المرق جميعها، وتلك الأيدي التي ترفع وتبدّل الملاعق والشوك والسكاكين، من الجائز أن تتصادم بها، والدقائق التي عليها الإصغاء فيها لجارها، مَن سيكون، يا ترى؟ فنّان أمريكي أو أفريقي؟ ما هذا البرد؟ وما إن صارت في الصالة الثانية، نعم، هذا لحن " ضوء القمر" لكلود ديبوسي، تعرفه من اللّازمة إيّاها، فأرادت أن تنشد معه أُغنيَّة لعبد الوهاب. ستُغنّي فيما بعد، فيما إذا طُلب ذلك منها .. وهي تتلفّت باحثة عن لوحاتها من بين اللوحات المعلّقة أمامها. شعرت أنها تحت ثيابها أشبه بالمهاجرة واقفة أمام . حانة من حانات الحَيّ الفلاني

وهي تريد كأساً من النبيذ قبل أن تتكوّم على صدر هذا الأمير حالاً، فليس في حوزتها من ثروات إلا حبالها الصّوتيّة:

أين وُضعت لوحاتي، من فضلك؟

لا تقلقي، آنسة. أساتذة البوزار القدامى كلهم قدّموا توصيات لمجمل أعمالك وتخطيطاتك، واللوحات المختارة للمعرض. هنا، أنا واحد من مجموعة مسؤولين نقوم بتقويم واختيار وتقديم لوحات كل فنّان. في الغالب نختار ثلاثاً، وبما أن لوحاتك المقدمة صغيرة نوعا، اخترنا أربعاً.

أجاب قبل أن تسأل عن هذه التفاصيل كلها:

بعد مرور هذه الأعوام كلها ما زالت فرنسيتي تشبه لوحات التّنقيطيَّيْن الاثنَيْن؛ جورج سورا، وبول سيناك. إلا تسمعها وكأنني اخترعت شكلاً غير مكتمل لها، ربمّا، هي، وقبل أن أُكمل، اقترب، وكاد يمس ذراعي:

تشبهك. أليس هذا ما كنت تودّين قوله؟

الصالة الأولى يتوافد إليها المَدعوّون، وما إن سمعت قوله حتّى أطلقا ضحكات ذات ذبذبات مرتفعة، وعلى الفور، استدارت بعض الرؤوس صوبهم. حضرت من أجل أن تراه بأُمّ العين، لكي تستطيع أن تُخبر عنه شخصاً ما، لا تدري مَنْ هو ؛ صميم، معاذ، وربمّا طرب. يجب أن تُخبر ما تقوم به في هذه الثواني، ولو اقتضى الأمر أن لا تدع الوقت يمرّ عمداً. نعم، هو الزمن الملتبس الذي يجدر به أن يكرّس لشخص واحد على الأكثر، وهذا يحصل مَرَّة في الحياة، فلا يعود الشخص يظهر، ربمّا في مكان آخر، ولا يصحّ أن تكون هناك تلميحات فقط، فهذه ليست ضرورية، عليها أن تنساها على الفور. فتدخل الموضوع رأساً، لكن صوت كيوم يشرح:

لوحاتك في إحدى صالات الداخل، ونحن في طريقنا إليها.

مَنْ سأل عن اللوحات؟ مَنْ سيقول هذا المكان مناسب لعرضها؟ وهل هذه هي الطريقة الفضلى لوضع اللوحات والتصاوير والموت؟ هل المكان هنا يساعدها على تمضية الزمن معه، هكذا، من أجل الحَوَل في عينها اليسرى، لقصر قامتها، لنهدَيْها الكبيرَيْن، للإعاقة في مكان ما، هناك في شارع التانكي، بسبب عظام رُسْغها النحيلة جدَّاً التي ما إن يلمسها حتّى تظهر مشكلة، وسيخشى عليها الكسر والتهشيم. وماذا عن الفخذَيْن اللطيفَيْن والحوض، وما يجاورهم، فلم تلحق بهم أيّ أذى.

كانت الممرّات طويلة معطّرة مضاءة بنور خافت، وسجّاد طويل قديم وأنيق. هنا فكّرت بنزع حذائها ووضعه جانباً أو رفعه بيدها. كانت أصابع قَدَمَيْها تورّمت من المشي الطويل، والالتفات الطويل، والوقوف الطويل. كيوم يسير أمامها، ويلتفت قائلاً:

تلك الصالة، يبدو أنه لم يصلها بعد إلا القليل من المَدعوّين.

هنا توقّفت، وأسندت ظهرها على الحائط. بقي سائراً، وتجاوز الصالة، وغاب. مدّت يدها، وبحركة واحدة دفعت بالحذاء خارجاً. عاد كيوم، وهي واقفة بجورب أسود تنتظره وهو يحمل بيَدَيْه قَدَحَيْن من النبيذ الأحمر. ارتبكت جدَّاً، فأطلق ضحكة مجلجلة، بدّدت اضطرابها، فضحكت معه، فلم تبحث عن أيّة كلمات وهي تشاهده ينزل أرضاً واضعاً القَدَحَيْن جانباً، وبدون كلام، خلع حذاءَيْه هو الآخر، ودفعهما بعيداً. حذاؤه رياضي من الماركات العالمية التي لا تفقه بها، تعرفها من الإعلانات عنها في المترو والحافلة والشارع. حذاؤها كان ذا كعب متوسّط، وغير مريح:

هيّا، اشربي نخب عادات الطفولة الأولى. قال لها.

نزلت بجواره، وبدأت تشرب. مدّت ساقَيْها إلى أمام. والمَدعوّون من حولهم يمرّون، يحرّكون رؤوسهم بالتّحيّة، ويواصلون:

بون سوار.

كان يجلس في الجانب الآخر منها، وكان يتسرّب منه النَّفَس والبخار، فيدخلها ويساكنها وهو يقترب كثيراً، يشربان ويتشابهان. كانت تريد أن تشبهه في تلك اللحظة، أن تدخله أكثر ممّا ينبغي، فلا تعرف كيف، فتلتصق بصوتها الذي بدأ خفيضاً في بادئ الأمر، وقالت همساً:

صوتي بلا كعب.

أرادت أن ترتفع، وعلى الفور، كما لو كانت تتعلّق بتلك الثّريّا المتدلّية في الصالة الأولى في أحد قصور فرنسا الملكية والـ .. التفتت ونظرت في عَيْنَيْه، وخافت، شحبت. النظر إلى الجالس في الجانب الآخر منها، إذاً، هو بجانبها إلى اليسار، فتراه جيّداً، وبدون حَوَل. آنسة، تُدعى عفاف. لا يتّسع المكان للمرأة والآنسة، وهما جالستان على الأرض. العمل الوحيد الذي تقوم به هو النظر، فالمرء يحتاج لمدّ يد المساعدة، لكي تكون قوّة الإبصار لديه دقيقة وعميقة، فلا يتلاشى في دقائق. استطاعت حمل صوتها وبصرها، فوضعتهما بين يَدَيْه. كان صوتها كشهوتها، كرغبتها، كمرضها، خفيضاً ومنحنياً على نفسه، عليه أن يأذن لها بالغناء، فبدأت:

"أي سرّ فيك، لست أدري
كل ما فيك من الأسرار يُغري

خطر ينساب من مفتر ثغر
فتنة تعصف من لفتة نحر
هذه الدنيا هجير كلها
أين في الرمضاء يظلّ من ظلالك
لو جرت في خاطري أقصى المنى
لتمنيت خيالاً من خيالك"

شطط الرجال الفرحين

صدّقت عفاف رائحة الحديث الذي لم يتفوّه به كيوم وهي تغنّي، فقط صدق حديث الأيدي وما تبعثه دقّات الساعات وحجرات النوم والأضواء التي تبقى مضاءة، لكي لا يحضر النوم، فلا هو، ولا هي يستسلمان للكرى .. فماذا يعقب الغناء والشراب وغمغمة الأيدي؟ هكذا بدأت بالتّنهّد، وهكذا بدأ المرض مع كيوم؛ سيقان ممدودة بين ممرّات القصور. أقداح تفرغ، فيمرّ أحدهم، فتعود للامتلاء ثانية، والغناء الذي لم يرتفع عالياً جدّاً، قال لها بصوت غنائي:

أعلى، أعلى. ارفعيه عالياً، فلا قيمة للغناء إلّا جامحاً. وما على الجميع إلا أن يصغي لك، وينسى المعرض وديبوسي، ولو إلى حين ...

كان يشير عليها بيَدَيْه أن لا تتوقّف، رافعاً يده إلى أعلى وهو يقف أمامها، مادّاً يده إليها. وقفا وسارا إلى أمام. بدا أن هذا قصره، أو قصر والده أو جدّه، فهو يعرف الصالات المضاءة التي لم تمتلئ بعد، والتي على وشك الامتلاء بالمَدعوّين. يسير أمامها، وكل واحد منهما بيده حذاءاه وقدح من النبيذ. يبتدعان بعض القصص، ولا يخطّطان على ورق لوحة من ضوئهما، فيدخل إحدى الغرف المعتمة، وهي وراءه، تقع في آخر الممرّ وبعيدة عن الأصوات والأضواء والمَدعوّين والخطوات. كأنها حجرة أطفال ذات نوافذ مطلّة على الحديقة، عريضة كبيرة ستائرها . سحبت إلى منتصفها .. وهي تحوي كل شيء الآن .. نور خفيض، وأثاث ملوكي قادم من

مستودعات خاصّة بالملكية .. مَنْ يأبه الآن بالملوك ورؤساء الجمهوريات؟ شعرا بعطش شديد، فوقف بباب الحجرة، لعلّ أحدهم يمرّ. لم يرَ أحداً، فخرج وعاد بعد قليل، وهو يحمل صينية من المكسّرات والمعجّنات وقنّينة مفتوحة من النبيذ. كانا يواصلان حديثاً انقطع منذ بدء الخليقة، وها هي الأشياء والصفات والألوان والآلام تواصل حياتها وهي تفكّر بهما، فماذا هما فاعلان؟ وحركة يد كيوم وأصابعه تعود وتحضر إليها، من علمه عليها وعلى ملاذاتها الآمنة! ما زالت كالبارحة له، وهو يبدأ من القَدَمَيْن مثلها. عندما شاهدته أوّل مَرَّة، أرادت النزول إلى ساقَيْه، وخلع حذاءَيْه، ومداعبة أظافره، وأصابعه، وما بينهما. من علمه عليها وهو يحضر بلا جلبة. لماذا لم تصبْ يده بأيّ اختلال، ولا يدها أيضاً، وهما يبدآن بالعناق .. يتصبَّبان عَرَقاً، ليس هو إلا ذلك النهر الذي كانت تزوره هناك، وهذا هو الصّيّاد الذي يُدعى كيوم. لم تقابله بثياب النوم، فما كان عليه إلا أن استدار وبدا شبه عارٍ، وفوق سجّادة ثمينة استلقى، وبحركة لا تحسب أنها قاربت أيّ يد رسمتها أو شاهدتها، يده التي جعلتها يغمى عليها. لا شرشف ناصع البياض، ولا لحاف مندوفاً للتّوّ، وعدت به بيبي فاطم نذراً مجيداً، فيما إذا عرّست بشارع التانكي وزفتها بالهلاهل. فكم كانت الساعة وقتذاك في تلك الديار؟ أقفلت البارات، وعاد السكارى الحيارى، وصارت الأعمار رقيقة، والآنسة عفاف في الثانية والثلاثين عاماً، واللّذّة كما هو ضمير الغائب، ما إن تدعوه وتناديه: أنت، فيجيبك. صحيح، اللّذّة تسبّب الإيلام. كم هي الساعة الآن؟ كانت تسمع أنفاسهما، كما لو كانا في حُلْم. بَغتة صمت كيوم، ثمّ وجم، فتوقّف وانقلب وصار بجوارها. سحب سترتها وغطّاها، ثمّ احتضنها برفق ورقّة. شعرت أن هناك سحابة من الخوف عليها. وكانت هي تختض في قلب القوّة الغاشمة التي تصاحب اللّذّة، من هذه السعادة التي جعلتها تشعر أن دمها كان ساخناً ووقحاً، فعانقته

وهي تشمّه بطريقة حيوانية. كانا يتنفّسان في فمي بعضهما، وكانت السنون جميعاً، مع باقي الأعوام، تتجمّع في تلك الليلة، فتشدّ أبصارهما إليها وحدها. بدا لها أنه من قوم يلتئمون على النباتات والأعشاب، فبطنه يكاد يلتصق بظهره، وعظام صدره تمسّها بيدها، وقامته معتدلة، وشَعْره ذهبي وفضّيّ، يربطه بشريط من الخلف، ووجهه لا يحدّد عمره الحقيقي. عيناه مطبوعتان بشطط الأطفال، وحركات يده تدرّبت على استمالة النساء، فبدا من الرجال الفرحين، أصحاب البهجة الشاحبة، من إمارة الجانب الآخر من الزمان، وهي لا تُفضِّل هذه الغلالة اليقظة في نظرات عَيْنَيْه. كبر ونما ونال تحصيله العالي، ولا أحد سدَّ عليه الطريق، وهذا كله ما كان يعنيها، حتّى لو كان إطفائيّاً أو بستانيّاً أو طاهياً، فهو القادم من هناك. ليس من عصر محدّد، لا النهضة ولا العبّاسيّ ولا الإغريق الذين شغفت بهم وبأساطيرهم وملاحمهم التي تحتفي بالجسد البشري، فهو جوهر المثال في تعرّي الذكر، كما شاهدت كيوم المكتمل بهاء، بالذات، والذي يفسّر بأنه "دليل على الحكمة والقوّة والكمال، عكس الحضارات الآشورية والفرعونية، التي تغرق العري بالخزي والخضوع، هنا الإغريق يقرنون العري بالبطولة".

النجاة من الوحشة

هل دار بخَلَد كيوم أن آنسة تجاوزت الثلاثين، كانت البكارة تنهض وتنام معها، ودون قتال بدت مسمّرة تحت يده وبدنه. يظلّ يتأمّلها بصمت وشيء من مسافة ما، وهما، أحدهما في مواجهة الآخر. هادئ وهو يلتصق بها، ويحلو لها الالتصاق به. تُغمض عينها وجوقة شعراء ورسَّامي البوزار العراقيّيْن بالدرجة الأولى، الكواسر، طلع البدر عليهم وهم يتفاوضون، وما زالوا ينتظرون:هل يفضّها قضيب باتريك، زيداً أو عمرواً؟

كانت القبلة على مسافة قرون تنادي، وما عثرت عليها. قبلة تمكث بلغات أجنبية وشرقية وسريانية ويونانية، قبلة بها ملح ودمع وعَرَق يتجمّع بين الأطراف والذراعَيْن، فيعتصران بعضهما بعضاً، ويتقاسمان النجاة من الوحشة. يعاود ويقبّل ويشمّ، لا يقول أيّ ضمير، ولا يركّز على الترجمة، وتستطيع اللغة أن تتلاشى وتتوارى. اللغة تخطئ، تهذر وتتعب. قالت له بصوت ثمل:

أنت مؤلِّف، تؤلّفني ولا تصفني، وعلى مسؤولية هذا الصباح المشرق.

محظوظان يتقاسمان اليوم والبارحة، البيوت والغرف والأسرة والدول والعوائل والنوم واليقظة .. كلها بِدَع، فهذه المرأة لا تدري، لا تدرك، لا تعرف ما يُفقِد المرء عقله، ويبقيه معتوهاً تائهاً؟ هل بقدر مسامّ الجِلْد ووفرة العَرَق الذي يفرزه الجسد؟ أم بعدد مَرَّات اللَّثْم الذي تباركه الألسنة

واللعاب والذقن والشَّفَتَان واليدان وحاشية الأعضاء كلها، ولو كانت الجدّة بيبي فاطم، أو الخالة فتحية قد شاهدتاه ولو لثوانٍ لرددتا في وجهه وهما تتضاحكان:

ليبارك الله والرسول والسّيّد المسيح والسّيّدة مريم وإبراهيم الخليل، ويوسف الفتّان، وبوذا الحكيم ونوح الأليف، فأنت المبارك من نهر الكورنيش، وعذوق التمر وخمرة العمّ مختار وسَرْدِيَّات صميم، وخزفيات طرب، وبقجة معاذ، ومنحوتات يونس .. سيدعوك معاذ محبوب المكعّب الدائم، الذي يُرتجى منه تجلّي الرغبة، ولفح التّدلّه. مكّيّة ستُدخلك الحمّام وتقوم بتدليك ظهرك وتمشيط شَعْرك الناعم. وسنية تأخذ بيدك إلى الغرفة الزّجاجيّة، لترى سقوط الأشعّة على شَعْرك الذّهبيّ وعينَيْك اللَّتَيْن امتلأتا بالشهد، فتأخذ وقتك هناك في الحديقة، وأنت ترتدي كامل ثيابك، والوالد الرصين العاقل السّيّد أيّوب، سيراك بدلاً مؤقّتاً من هلال الغائب.

أناشيد المشَّائين

ظلّتْ تنشد له أُغنيّات، وطوال أيّام المعرض الذي استغرق شهراً. فتمّ بيع أغلب اللوحات، ومن ضمنها لوحاتها الأربع، وبأسعار لا تُصدَّق. لم تعلم مَن اقتناها، وفشلت أن تعرف اسمه أو حتّى الجهة. ظلّت طوال الأسابيع المنقضية تجلب معها كرّاسة الرسم الكبيرة. تظلّ ساهرة في حجرة الأطفال إيّاها، فتتحفّى، وهما مستلقيان، وجِلْدهما يتموّج فوقه ضوء غامض، يأتيهما منْ شقّ النافذة، فتُبصر بشراتهما صافية، وهناك شيء يبعث فيها الطمأنينة. فتعمل تخطيطاً لظهره ما إن يديره، كَتِفَاه تظهران أصغر سنّاً من باقي أعضائه. تشتغل كأنها مصابة بحمّى وما عليها إلا أن تمرّ على كل بقعة من جسده، فتمسّها بدون إبطاء. هذه الأعضاء أخوة لها، فهي كلها تنهض في وجهها، وأمامها، وتهبها نفسها كاملة غير منقوصة. فتقوم بتصويرها من أعلى وأسفل، من جنب ومن الوسط. كانت تزيح الشرشف الرّصاصيّ الذي جلبه في اليوم الثاني، فترى حمرة دافئة في أوّل فخذه وعظم حوضه.

كل ما فيك ملك يدي وريشتي.

هكذا كانت تُصوِّر وتُردِّد.

فتبدأ باختيار العناوين للتخطيطات التي أنجزتها خلال ثلاثين يوماً:

التدريب على الشهوة.

كان يحضر ويغيب، ثمّ يعود إليها. لا يأتي. ينام في حضنها، وينهض في الصباح، ويخاطبها بالصيغة الحُلْمِيَّة، وعلى نحو مباغت، يُقبِّلها، ويغيب. الغياب الذي يدوم على طول المخيّلة الحرّة، فترتهن للهرم فجأة، الإنهاك البطيء كما تسلّق الجبال الوعرة، فتتجمّع على مهل فصول السنة وأعباء الحبّ وبلل الدموع التي لا تستقرّ، وهي تنتظر خطواته على بلاط الباب الخارجي، أمام المصعد، ورائحة الكولونيا والتبغ والدم الذي يتثاقل في عروقه، وهو لا يصعد، يتوقّف، فتعود لشمّ ياقة قميصه المتروك عندها. شمّ حيواني صرف، فتفرشه كشرشف، وتنظر على مهل، وفجأة تراه واقفاً أمام الباب، وبيده الكثير من معالم باريس على شكل صور فوتوغرافية سائلاً إيّاها المكوث في الشّقّة في الفترة القادمة، والعمل بجانب تدريس الأطفال الأجانب اللغة العربية، وعمل البرامج الثّقافيّة، وبيعها للإذاعات العربية التي فتحت حديثاً في باريس:

هيّا، أعطيني أشكالاً حديثة متوهّجة بريشتك المشرقة لكل أثر من آثار بلدك، على الخصوص الجنائن المعلّقة. سنقوم بالطباعة والتوزيع على المكتبات في أنحاء فرنسا جميعها والمناطق الطّلّابيّة على الخصوص ..

هل تراها ستعود وتُيمِّم وجهها شطر تلك الديار، فتضيء المصابيح وتشاهد تشقّق السياجات، وأصص النباتات تقزّمت، والتي كانت متسلّقة ريّانة هوت وتحطّمت على مفترق الطُّرُق ..؟ كانت تسرع الخطى، وتستطيع زيارة تلك الأطراف، فتبقى تشتغل وتحيط بأولئك النزلاء الذين حطّوا عليها من الغياب، فأنزلتهم إلى الأرض .. كان كيوم يهبها ثلاثة أرباع ما يحصلان عليه، ويُبذِّر الباقي عليهما معاً .. فانصرفت عن ما درجت عليه من عمل يومي مضنٍ في إكمال مشروع معرضها الجديد:

عوليس / كيوم.

لم يعد أمر شغلها وتصاويرها يشغله، أم، لم يعد يحفل لأمرها وأمر فنّها؟

كانت تريد أن يكون لها قسمات وكيان حقيقي لترتيب غرامه، وانتقاله وخطواته ووجوده .. وهذه الغيابات المتعدّدة، هل هو عصيان طفل؟ أم ترويض للشّرقيّة من الجوانب جميعها؟ أم رفض الاستسلام لها، بأيّ حال من الأحوال؟ هل هو فرار، هجران؟ أم تركٌ أبعد من هذا كله؟ فبدأت صحّتها تتسرّب من بين يَدَيْها، فكانت تستيقظ مُجهَدة ومُسمّمة. لم تتعرّف على طباعه، فلماذا يلجأ رجل مثل كيوم للتلاعب، للكذب، للمبالغات؟ ناقد فنّيّ بارز، مقالاته تخز، وأفكاره لها سلطة نافذة، فكان يقف أمام لوحاتها، وكالمُحلّل النَّفْسيّ يرفض اختزال مَحو الوجوه في بعضها، لمجرّد التحصين الذّاتيّ ضدّ الألم. كان يرجّح ذلك لحالة الذهول أمام مراجع المعرفة. والحبّ كيوم؟ ذلك الذي يدعها تفارق الدنيا، ماذا ستفعل به؟ نعم، قالت له في أحد الأيّام:

لا تفرّط في الملاحظة، فهذا يخيفني منك، فأتصوّرك، إذا خرجت، فلن تعود.

والحبّ، حسبت أنه يتقدّم صوبها، وهو إلى جانبها منذ عام وعام .. غاب، غاب، غاب، بدون استئذان، فبلغت من العجز أن أمضت حياتها في الشرفة المطلّة على الشارع العامّ، بقيت هناك على مرّ الفصول، يناير، مارس، سبتمبر، مايو، تمّوز، فتخلد للنوم وهي تنتظر هناك، وليس بيدها كبّة الخيوط لتلك الخرساء التّاريخيّة بينلوب .. كيوم لم يقل لها، سأخذ إجازة لكي أحارب كما عوليس الذي بقي هومير يأمره بالعودة إلى إيثاكا، فيتّجه إلى أسوار العشيقة "كاليبسو"، فبدأت الأعراض تظهر على قسمات وخطوات الزوجة الصامتة، فمضجعها ظلَّ خاوياً على الدوام:

اكتئاب طويل الأمد .. فلا تتوجّه عفاف صوب المستشفى الحكومي، ولا تخبر طبيبها العامّ مسيو جورج اللّبنانيّ، عن هذه التّهيّؤات خشية أن يغلق الطريق في وجهها، فيحضر، ولا يعثر عليها، فتكره أن يغمض لها جفن، فلا تسمع قرع الباب. رفض أن يكون بحوزته مفتاح للشّقّة، ورفض استدعاءه من نومه ويقظته، بعريه وثيابه .. فتعود للرسم، تفلح قليلاً في وضعه في لوحات، وهو في حالات بين النوم واليقظة، وعلى وشك الموت، فيطيب لها السهر على راحة أعضائه، وتمسيد شَعْره، وفكّ شريط شَعْره، وتركه حرّاً، لكي تعبث بخصلاته. كانت تُفضِّل الكرّاسات الفارغة دائماً، الفراغ يجعلها تدخل وتغادر كما تشاء للحجرات والأمكنة، وإلى قلب وجسد كيوم، وهي تجوسه سنتيماً وراء آخر بحكم التّذوّق والرغبة والمداعبة والفنّ، فتناديه: لا تغادر، لا تدعه يغادر، وكلّما قَّررت وحزمت أمرها على الاتّصال به عن طريق أستاذها الأوّل مسيو دنيس، توقفت حالاً. تعرف جيّداً، أوّل البارحة، وقبل عقود، وإلى عقود أنها خاسرة. كيف تتعامل إذا فشلت بالحبّ؟ بالجلافة، بالفظاظة، بالتّوهّج والإشعاع الذي ينير الوجه بالحيوية الزائفة التي تخفي المرارة .. أجل، فشلت في كل حبّ خاضتْهُ، وهي تحمل عبء هذا الفشل. لكنْ، مَنْ قال إنها فشلت؟ . فتدفع بقَدَمَيْها، وتبدأ المشي. أوّل ما وطئت قَدَمها هذه الأرض وقبل ثلاثة عشر عاماً، كان باستطاعتها أن تُحملق بالرجال والنساء كما تشاء، في الموجودات والكائنات جميعها، وتقول لهم: تعالوا. تتأجّج، ودمها يثقب رئَتَيْها، وهي تشاهد خطفاً، ولا تعبأ بما ترى ؛ عشرات، ربمّا، مئات الفرنسيّيْن وهم يتخاطبون مع أحد ما غير موجود بجوارهم. تظاهرت أنها لا ترى جيّداً. لم تدقّق، فكانت تسعل وهي تمرّ بجنبهم. تماماً، حديث تامّ، وشفاه تتحرّك، وتردّد في الإجابة، وتقلّص في الوجه، وزَمّ في الفم. يسيرون ويقفون عند بعض الزوايا، ولا ينتظرون أيّ وافد جديد مثلها. تلاحظ ذلك وهي في

طريقها للبوزار. تبتسم في بعض الأحيان في وجوه بعضهم. فكانت ترفع صوتها بالغناء، وهي تمرّ أمامهم. حالما أبصرت أولئك القوم، تصوّرت أن هذا السلوك هو جزء من الإتيكيت الفرنسي العريق، وربمّا الأوربي، لمَ لا؟ فلن يجد المرء أجدر من نفسه للحديث معها. من الجائز أن يكون تمريناً للحبال الصّوتيّة والتدريب على الغناء مثلها، فهي لا تقدر على هذا الأمر في أثناء الفصول الدّراسيّة، أو الشارع العامّ كأفضل ما يكون عليه الغناء. فكانت تُصنّف ذلك الأمر نوعاً من العرض الفنّيّ العامّ .. لوحات كلاسيكية عالمية لا تخطر على البال، فما كان عليها إلا الذهاب والانغمار وسطهم. بدا لها أنهم أفراد يرسمون أحوالهم المتذمّرة الضجرة المكتئبة، ولا يتوقون لسماع أصوات الغير ..

ترى، هل ضاق كيوم ذرعاً بصوتها؟

لكن جدّتها بيبي فاطم كانت تستحسن هذه العادة اللطيفة، ولا تنتظر من أيّ واحد من العائلة كلمة رقيقة، فهذه عادتها التي دأبت عليها، وهي تكوي وتشطف الطارمة والكراج، وتطوي الثياب. ذكرت لطبيبها العامّ:

أن الإغريق لديهم هذه الخصلة المباركة في الكلام والتّأمّل، فتقدح وتتوهّج الأفكار في أثناء المشي، وأخوة الحكي مع النفس، فأحبّت أولئك المشّائين اللّيليّيْن والنّهاريّيْن النّورانيّيْن من الفرنسيّيْن والأجانب، فكانت تنخرط وسطهم، فلا تقطع حديث أحدهم مع الآخر، ولا تسمح أن يتدخّل أيّ أحد بشؤونها.

عوائد الحبّ

عندما تقف أمام المرآة، يفرض عليها الحبّ نظام الإعجاب بالقسمات والملامح التي تعلق الأبصار بها. ويوم بدأت، وبالتدريج بتناول المهدّئات، لاحظت أن الكثير من ملامحها غادرتها إلى حيث لا تعلم، والباقي، بدأت تنفصل عنها بالتدريج، ولا تعرف أحداً للقيام بالبحث عنها، أفراد عائلتها لن تحظى بعد اليوم بملاقاتهم. ترى إلى أين تذهب الملامح؟ ومَنْ يجرؤ أن يخبر عن ذلك؟ أخذت عفاف تردِّد لنفسها: أن عليها القيام بالبحث عنّي. وكما ينبغي أن يكون البحث. نعم، فملامح المرء هي من عمل الكبرياء والرفعة، فلا يجوز أن يُترَك ويختم عليه بالندامة فيما إذا ضلّ الطريق إليها.

صار أنفها أقلّ ارتفاعاً ممّا كان عليه، وبدأت أصابعها بالالتواء والتّشنّج صعوداً إلى الرُّسْغ الضعيف، وفمها ازداد انكماشاً، اعوجّ بعض الشيء، والتمّ في جانب واحد من الوجه. اعوجاج الفم غيَّر من طراز البناء المعماري لسكن أعضاء وجهها، فكانت تضحك بصوت عال، وهي تصل طبيبها العامّ قائلة له بعربية صحيحة:

تحوّل وجهي دكتور من النمط الكلاسيكي إلى النمط الاستعماري في انعدام القيمة، وها أنت تراني أقوم بالتصفيق بيدي، وأضحك ..

بدأت بتناول بعض المهدّئات العادية في بادئ الأمر، وبدأت لسبب تجهله:

لم تعد تنتظره.

تخرج مساء، وتبدأ المشي. كان هذا هو كل مدّخراتها. توقّفت عن الانتظار. فلا تريد أن تسمع حركة المصعد إلى طابقها الأخير، فلا أحد يزورها إلا أنطوانيت وشقيقها الأصغر، وهما على سفر دائم. عليها أن لا تُسرع الخطى، ولا تُبطِئها. نعم، خطوتها رتيبة، لتكن دائمة، مستمرّة وعلى وتيرة واحدة. تراجعت قليلاً في بادئ الأمر. قالت:

علّها تلمحه، علّه يكون هو، فتناديه، فيسيران معاً.

هي على استعداد أن تناديه، وتطلق صوتها عالياً:

كيوم .. كيوم ..

في الأحوال كلها لا تلمحه، فقامت بينها وبين أسفلت الشوارع ألفة. تترك ثقلاً على هذه الأرض، هو ذاته الثقل الذي بقيت تردّد:

سأُفرغ ما في رأسي. هيّا، يا عفاف، هنا قومي بذلك في الشوارع والأُمسيَّات، وأفلحي في الشهيق والزفير .. و

هكذا أخبرت الطبيب. الغضب كله لا يجعلها سعيدة، والحزن لا يجعلها تموت، وهي لا تريد أن تكون سعيدة فقط. عليها أن تأخذ يد كيوم بين يدها، وتغنّي له، وهما يسيران في حدائق لوكسمبورغ والتويلري، فترفع رأسها عالياً:

"أتوب إلى ربّي
وإنّي لمرَّة يسامحني ربّي

إليك أتوب

***

يا جيرة بانت
عن مغرم صب
لعهده خانت
من غير ما ذنب
ما هكذا كانت
عوائد الحبّ"

فتمتلئ تجاويف الأعصاب ونسيجها بليل كيوم، بالرغبة به. فرجة دائمة هذا المشي، والقندرة نوعيتها ممتازة، تدع الحياة طويلة وهي تراودك أكثر منه، وقياس قَدَمَيْها يتّسع، يتبدّل ويكبر منذ وصلت هنا. لم تتوقّف عن هذا. في إحدى المَرَّات سألت بصورة عرضية طبيبها، فابتسم ضاحكاً:

لا قدرة لي على ملاحقة ما يصيبك من هواجس، قريباً سوف أُحوّلك للدكتور كارل فالينو صديقي وأخصائي شاطر جدَّاً، ويفهم بالفنون، فلديه تجارب في هذا، لكنه يستحي الإعلان عنها ..

أجل تكبر القَدَم، فلا يتعرّف الحذاء عليها، وحالما تدخله يأبى ذلك. الحذاء مفردة، لا يطعن في بلاغتها، وأنساق طابع تأريخها وقصصها على مرّ الحضارات .. فإذا كان الحذاء ضيِّقاً، وبدأت جِلْدته تخز القَدَمَيْن، فيقطع عليك الاستعداد للتعارف، للعاطفة. نعم، للحبّ أيضاً. فتغضب

الأقدام بصورة صارخة وتتّسع، تكبر وتلهمك اللّذّة والألم، فتفلح بالتّوقّف عن الرغبة بكيوم ..

هيّا، ابدئي السير، هذا هو الحذاء الذي لم يتوقّف عن الكلام معها. يصغي ويتقلّص جِلْده، فيستكين، ويتراجع في بعض الأحيان فيَخِز قَدَمها. الجذاء مستعدّ أن يدخل السباق في اللحظة الراهنة:

هيّا، ارفعيه عالياً هو وقَدَمَيْك، يا عفاف. تحدَّثي معه، فهو يُتقن الحديث على أسفلت الجادّات والأزقّة، فوق الأحجار والوحل والطين والمياه الوسخة. عفاف مخلوق المشي الذي يطول حكيه، فيقصّ حكايات جديدة.

منذ المدينة الأولى وهي تمشي مع يونس وطرب ومعاذ وصميم وهلال والعمّ مختار وسنية وفتحية. يمشون وينشدون، وقَدَمها لا تنام مثلها. لا تعرف أن تضع رِجلاً فوق رِجل، ولا ليلة فوق ليلة، ولا عفاف فوق كيوم. الحذاء يبقى فوق الأسفلت، يئنّ في صوت خفيض، وهي تغنّي بصوت مرتفع، وقَدَمها تكبر نصف درجة، فتشعر بارتياح ما، بلذّة، فتدخل القندرة، وتشفق على لحمها الذي احمرّ وتورّم. شاهدت جنود الحروب بالبساطيل، وهم عائدون، هي لن تعود، لمَنْ تعود، ولمَنْ ... البساطيل غليظة وقذرة تسع المُدُن كلها. البساطيل لها صله برحم الليالي والبيوت والبكاء والشفقة. هي عفاف تشبه البسطال الذي أعلن ولاءه للطُّرُقات والدروب. ويوم لا يتعرّف على قَدَمها، تزداد غضباً كما تغضب يوم ترى كيوم. الحذاء يُلهم شرعية وبلاغة للأمكنة والآلام والذَّرَّات المعلَّقة بين الأهداب، ومع هذا، ففي غالب الأحيان، الحذاء لا يتعرَّف على قَدَمها، فيكبر قياسها نمرة جديدة، فيتضاعف رضوخها للقنادر، فما إن تعود، وبدون تذمّر، كانت تستلقي على السرير، وترفع قَدَمها عالياً على الحائط،

فتراها كبيرة، مخيفة، تستقلّ عنها، وتمشي بعيداً، لا تتحامل على نفسها، ولا تبرح المكان، ولا تعود تعرف معالم الطريق والبيت والحجرة والمدينة لا تعود لها، وهي تتدلّى بين ارتفاع وسقوط وأمواج تتلاطم، ووجوه تتجمّع، وتنادي عليها من الأسفل والأعلى، نفير أبواق، وهي تصيح على السّكّان القدامى، الذين تدافعوا على مسامها، وتمدّدوا على جذعها القصير وحوضها الصغير، فوصلوا عشّها الجميل الذي قامت برسمه وهو تحت الضوء الطّبيعيّ حتّى جفّ ماؤه، واسودّ لونه. ضحكت وهي تقول للدكتور أنطوان:

أعضاؤنا تصل نهاية الخدمة، دكتور .. وأنا لا أعرف بالضبط أيّها أنجز مهمّته أسرع؛ المرض الإفرنجي؟ أم الداء البلدي؟

اللعنة، كانت تتأهّب للانصراف، أين وضعت المعطف، هو ذاته معطف طرب؟ .. كانت مُتعَبَة من المشي الطويل، ربمّا هي الحجرة نفسها، لكنها الآن شديدة الحرارة، والباب مُغلَق بصورة مواربة، وما إن بدأت بفَتْح عينها، فصدرت بعض الأصوات الهادئة والرقيقة. كان وجه شابَّة ترتدي ثياباً بيضاء، لا تذكر أنها وضعت في أحد الأيّام هذا اللون في تصوير من تصاويرها، هو لون بعيد، بعيد جدًّا، لا تستطيع النظر إليه، ووجه هادى القسمات ومريح الحركات، كان يقف أبعد قليلاً من الممرّضة، وهو يقرأ ورقاً بين يَدَيْه. وصوت الملعقة الفضّيّة والسّيّدة ترفعها إلى فمها، وهي تُطعمها الحساء، هذا هو الآخر الذي يُسبّب لها بعض الحساسية. رفعت رأسها قليلاً عن الوسادة، أبصرت السماء، ووجها مقبلاً عليها، ليس واحداً، كلهم ظهروا، لم يتقاعس أحد في ذلك الضرب من بياض الغيوم الآتية من وراء النافذة ..

باريس 2014/ 2018

تنويه

- استعانت المؤلّفة ببعض ممّا دوّنته شخصيّاً، أو ممّا هو محفوظ في أرشيفها الخاصّ، أو ممّا قامت به من مراسلات مع بعض الصديقات والأصدقاء، فدخل في نسيج العمل، ووُضع داخل أقواس، حتّى لسَرْدِيَّاتي الشّخصيّة.

- جميع ما ورد من نصوص وتواريخ ومعلومات عن بغداد، في ضوء الوقفيات والإعلاميات والحجج الشّرعيّة المحفوظة في آرشيف وزارة الأوقاف ببغداد. استعانت به المؤلّفة من كتاب؛ "معالم بغداد في القرون المتأخّرة"، تأليف الدكتور عماد عبد السلام رؤوف، للناشر: بيت الحكمة بغداد / العراق، الطبعة الأولى: بغداد ٢٠٠٠م ١٤٣١.

شكر وامتنان

- إلى صديقتي الطبيبة والمعالجة النَّفْسيَّة وفاء قاسم، ذات الذّهنيّة المشرقة والأفكار المتّقدة، والبصيرة الرّوحيّة الصافية والسّخيّة في الاستشارات والمناقشات العلمية والنَّفْسيَّة والعصبية جميعها التي كنّا نتبادلها، وطوال فترة صداقتي بها، التي امتدّت طوال ربع قرن.

- إلى الأصدقاء: من المهندسات والمهندسين والمُربّين الذين قاموا بتزويدي معلومات جدّ نفيسة، غطّت مساحة ممّا وضعته داخل قويسات.

- إلى المعمار الصديق معاذ الألوسي الذي سمح لي بالعمل من داخل - المكعّب - بيته، الذي همتُ به شَغَفاً، وأنا أشاهد صوره عبر كتابه الساحر "نوستوس" حكاية شارع في بغداد، فوافق على نقل معظم شخصيات هذا العمل للسُّكنى فيه، أو مجرّد الحُلْم بذلك!!

صدر للمؤلفة عالية ممدوح

- افتتاحية للضحك، قصص قصيرة، دار العودة ، بيروت ، 1973.

. هوامش إلى السيدة ب، قصص قصيرة، دار الآداب، بيروت، 1977.

. ليلى والذئب، رواية، دار الحرية، بغداد، 1980.

. حبات النفتالين، رواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دار فصول، القاهرة، 1986 .

(تُرجمت إلى سبع لغات عالمية عن مؤسسة البحر المتوسط في روما)

. حبات النفتالين، طبعة ثانية، دار الآداب، بيروت، 2000.

. مصاحبات، قراءة في الهامش الابداعي العربي والعالمي، مقالات، نصوص، عن دار عكاظ، المغرب، 1993.

. الولع، رواية، دار الآداب، بيروت، 1995.

. الغلامة، رواية، عن دار الساقي، بيروت، 2000.

. الغلامة، طبعة ثانية، دار الآداب، بيروت، 2017.

. المحبوبات، رواية، دار الساقي، (فازت بجائزة نجيب محفوظ للآداب 2004).

. التشهي، رواية، دار الآداب، بيروت، 2007.

- غرام براغماتي، رواية، دار الساقي، بيروت، 2010.

- غرام براغماتي، طبعة ثانية، دار الأسرة، المملكة الأردنية، عمان، 2017.

- الأجنبية، سيرة روائية، دار الآداب، بيروت، 2013.

(ترجمت معظم رواياتها إلى لغات عالمية وطبع بعظها أكثر من طبعة واحدة).

فهرس المحتويات

الفصل الأوّل: كلاكيت أوّل مَرَّة 11

الأستاذ صميم مجهول النَّسَب 13

الفاذرية الأمريكان 23

ضيوف الشرف 29

أكسسوار 33

تقطيع 36

الفصل الثاني 41

تراكيب الجمال 50

ابتكارات خصوصية 55

الفصل الثالث: استشارات قانونية 61

أهو ده اللي صار 63

الخمرة وأخواتها 69

لسان بيبي ولسان المدينة 75

طبوغرافيا الأسى 80

أهو دي اللي صار 84

الفصل الرابع: هلال أيّوب آل 91

ماكيت الغائب 93

الأبطال يتوافدون..... 99
Don't believe yesterday 101
الغياب 106
بيبي فاطم، أليس كذلك؟..... 109
دهاء الموت..... 116
البول العراقي 119
الفصل الخامس: نعم، المرض موجود، 125
الدكتور كارل فالينو 127
بينلوب وعوليس 131
عفاف الشخص الوحيد الذي أنتظره..... 138
فريق العمل 142
وقفيات العوز 149
لقطات قريبة 152
الفصل السادس: النّحّات يونس الهادي..... 157
الآنسات الطروبات..... 162
ذاكرة الأيدي 165
بطون النساء 171
في ابتزاز الفراق 183
إلى آخر الدموع 184
من مهملات الحبّ..... 196
عداوة الحبّ..... 198
اثنان خير من واحد 199
عيد القُنْدَرَة 203

الفصل السابع: كلاكيت آخر مَرَّة 205

عفاف أيّوب آل / 2 207

عوائد الحبّ 211

"بقجة" معاذ الألوسي 214

مشغل الثورات 218

قالت فماذا تروم؟ 223

الشراب وأدواته..... 226

خفيف الروح 229

غرض جنسي..... 232

مسيو كيوم..... 239

في منافع المرض..... 239

شطط الرجال الفرحين 247

النجاة من الوحشة 250

أناشيد المشَّائين..... 252

عوائد الحبّ 257

شكر وامتنان 265

صدر للمؤلفة عالية ممدوح..... 267

من الرواية:

غريب أمركم، دكتور، أعني أجدادكم الإغريق، عندما كان يتمّ التركيز الشديد لتطويل فترة الحنين عبر عائلة عوليس وزوجته المستسلمة وطفله تيليماخوس، فيتمّ تصعيد احتياجات المحارب للتعويض عن الأوقات السَّيِّئة والخسارات المتوالية في الحروب، فغدت إيثاكا، شخصية سَرْدِيَّة مُهلِكَة لمَنْ يتنظر الوصول إليها. فنرى عوليس يجرجر قَدَمَيْه "كصيّاد مرتحل"، وهو لا يملك ما يعارض به القَدَر، والمدينة على بُعد إصبع منه، فلا يصلها. يتجمّع في فمه ما لا يقال، فلا يتفوّه بكلمة .. فهل تغيّرت الطريق إليها؟ أم غادرت إيثاكا، وارتحلت؟

فحسب خطاب هومير، الوقت يفلت من بين ذراعَيْه، والزوجة لا تغادر خرسها، العابر للخرساوات المكتئبات المنتظرات جميعهنّ دونما غفوة ولا نوم، وعلى طول سَرْدِيَّة التاريخ، ألم تشاهد يدها يوماً، دكتور، وهي تفكّ كبّة الخيوط تلك، وتعيدها؟ فبماذا تُذكّرك؟ كلاّ، ليس بالحكمة والصبر؛ بالتّسوّل وبالعوز رسمت يدها، وهي تتسوّل ظلاّ لعوليس، وهو ينهض مبتهجاً من بين أحضان "كاليبسو". ما الذي نراه فيها؟ اليد، والذراع، الأصابع والكفّ والرُّسْغ. يدان هاربتان، ويُغمى عليهما دائماً، فتقرع الأجراس، لكي لا تتوقّف عن تلك التعاسة.

إنني متأكد أن رواية التانكي هي من أجمل وأعمق ما كُتب في أدبنا العربي الحديث عن بتر الأمكنة منا، أو بترنا منها، حتى يصبح الوطن يمشي وحيداً، ونحن نمشي وحيدين بعيداً عنه.

لقد شعرت أثناء قراءتي للرواية بأثقال الطوبوغرافيا التي صارت خريطة دواخلنا، ومجالاً مستباحاً بالعنف والحسرة والموت البطيء. ثم هذا المكعب الذي يشبه سفينة الطوفان، نغلقهُ على ما تبقى من خراب المدينة، ونبحر على متنه طلباً للنجاة منه، ومن أنفسنا.

رواية ألم لا تروضه سوى متعة الكتابة.

محمد الأشعري

مكتبة نوميديا 184
Telegram@ Numidia_Library